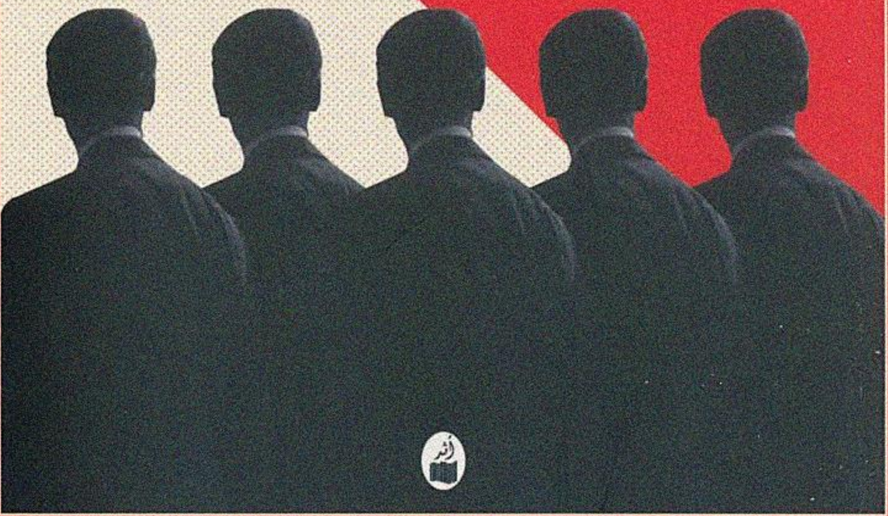
يفغيني زامياتين

ترجمها عن الروسية يوسف حلاق

نحن



أثر

يفغيني زمياتين

نحن

رواية

ترجمها عن الروسية

يوسف حلاق

أثر

نحن

نحن

يفغيني زمياتين

الطبعة الأولى 2016/1437

ردمك: 978-9938-88040-3

المملكة العربية السعودية- الدمام

تلفون : 00966505774560

الموقع الالكتروني : www.darathar.net

E-mail: info@darathar.net

الكاتب وروايتُه

وُلد «يفغيني إيفانوفتش زمياتين» في «ليبيديان» من مقاطعة «تمبوف» عام 1844م. أنهى مرحلة الدراسة في كلّية بناء السفن في معهد «البوليتكنيك» في «بطرسبرج». شاركَ في الأحداث الثورية ما بين عامي 1905 و1907 م، وتعرّض إلى الملاحقة بعد ذلك. كانت كتاباته قبل الثورة، والتي بدأت تُنشر منذ عام 1908م، ذات نزعة ديمقراطية، ومشبعة بروح تقاليد الواقعية النقدية الروسية. وكانت قصصه في أفضل نماذجها، تُصوّر حياةَ الريف الروسيّ بألوان هجائية ساخرة.

في عام 1914م، ينشر قصّته المعادية للحرب (في الريف)، فتُصادر، ويُقدّمُ بسببها للمحاكمة، وفي عام 1916م يغادر إلى إنجلترا، ويكتب فيها قصّته الهجائية (سكّان الجزيرة) عن تحوّل الإنسان إلى آلة. وفي خريف عام 1917م يعود «زمياتين» إلى روسيا، ويشارك في هيئة تحرير عددٍ من دُور النشر والمجلّات.

انعكست في قصص «زمياتين» في تلك الفترة (الكهف، ماماي، رسالة زاموتي، أنوار القدّيس «دومينيك») أحداث فترة الشيوعية العسكرية والحرب الأهلية، على شكل عودة إلى الحياة البدائية. وكان أكثر ما يؤرّقه، هو المستقبل الذي رآه وقد تجمّد في نقطةٍ ما. وبدهيٌّ أنّ هذه الرؤية كانت تتناقض مع الرؤية «الرسمية»، فكان أنْ بدأ الشقاق بين «زمياتين» والسلطة في الاتّساع حتى «لم تعد الكتابة أمرًا ممكنًا» كما جاء في رسالته إلى «ستالين» عام 1931م، خاصّةً، بعد أن لم يسمح له بنشر روايته «نحن»، كما لم يسمح له كذلك بعرض بعض مسرحيّاته.

بعد رسالته إلى «ستالين»، أُذن له بمغادرة البلاد مع زوجته، فهاجر إلى أوروبا وتُوفّي في «باريس» عام 1937 م.

كتب «زمياتين» روايته «نحن» حوالي عام 1920 م، لكنّ النصّ الروسي للرواية لم يظهر كاملًا إلّا في عام 1952م في «نيويورك». وقد عرف العالم الرواية عن الترجمة الإنجليزية التي صدرت في عام 1924م، ثمّ الفرنسية في عام 1929م. ولم تصدر الرواية كاملةً باللغة الروسية إلّا في عام 1988م.

أحدثت الرواية تأثيرًا واضحًا في الرواية الأوروبّية المعروفة (بالرواية المضادّة للأوتوبيا) ومن أعلامها «أو. هاكسلي» و«جورج أورويل».

قيل في الرواية كلامٌ كثيرٌ من قِبل النقّاد السوفييت والأوروبيين منذ عشرينات هذا القرن. وقد يكون «زمياتين» في مقابلته مع الناقد الفرنسي المشهور «فريديريك ليفيفر» لمجلّة «لونوفيل ليتيرير» في عام 1932م الأقرب إلى الصواب، في تعريفه موضوع روايته، حين قال: «لم ير النقّاد قصيرو النظر في هذه الرواية أكثر من أُهجية سياسية. وهذا غير صحيح طبعًا. فهذه الرواية نذيرٌ بالخطر الذي يتهدّد الإنسان والإنسانية بسبب السلطة المتزايدة المتضخّمة للآلة وللدولة، أيًّا كانت هذه الدولة».

يوسف حلّاق

المذكّرة الأولى

الملخّص:

إعلان. أحكم الخطوط. قصيدة.

أنقلُ ما جاء اليوم في جريدة الدولة كلمةً كلمةً:

«بعد مئةٍ وعشرين يومًا ينتهي بناء «الإنتْغرال»[1].. باتت الساعةُ التاريخية العظيمة التي ينطلقُ فيها أوّلُ «تكامل» إلى الفضاء الكوني قريبة.

منذ ألفِ عام، أخضعَ أجدادُنا الأبطالُ الكرةَ الأرضية كلّها لسلطة الدولة الواحدة. وعلى كاهلكم الآن تقع مأثرة أمجد: أن تُدخلوا معادلة الكون اللامتناهية بوساطة «التكامل» الزجاجي، الكهربائي، الذي ينفثُ النارَ في عملية التكامل. على كاهلكم الآن، أن تُخضعوا لنير العقل الخيّر الكائناتِ المجهولة التي تقطنُ الكواكبَ الأخرى، والتي ربّما لا تزالُ في حالة الحرّية المتوحّشة. وإذا لم تدرِك هذه الكائنات أنّنا نحملِ إليها السعادة الأكيدة رياضيًا، فمن واجبنا أن نحملها على أن تكونَ سعيدة؛ لكنْ علينا أن نختبر الكلمة قبل أن نختبر السلاح.

---

(١) الإنتْغرال يعني التكامل. وسنستخدم الكلمة العربيّة لاحقاً للدِلالة على اسم المركب الفضائيّ.

وباسم المحسن نعلنُ لأرقامِ الدولة الواحدة كلّها ما يلي:

على كلّ من يأنسُ في نفسه القوّة والقدرة ، أن يكتبَ بحثًا، بيانًا، قصيدةً أو أيّ شيء آخر في جمالِ الدولة الواحدة وعظمتها. وسيكون هذا أوّل ما يحمله «التكامل».

عاشت الدولة الواحدة، عاشت الأرقام، عاش المحسن!».

أكتب هذا وأشعربأن وجْنتاي تتّقدان. أجل، إدخال المعادلة الكونية الهائلة في عملية تكاملٍ واحدة. أجل، بسْطُ الخطّ المنحني المتوحّش وتقويمه حسب المماسّ وجعله مستقيمًا، لأنّ خطّ الدولة الواحدة هو الخطّ المستقيم. الخطّ المستقيم العظيم، الإلهي، الدقيق، الحكيم هو أحكمُ الخطوط.

أنا «د -503»، مَن بنى «التكامل»، لستُ إلّا واحدًا من رياضيّي الدولة الواحدة. وقلمي الذي ألِف الأعداد والأرقام، ليس قادرًا على أن يخلقَ موسيقى الأسجاع والقوافي. سأحاولُ وحسب، أن أسجّل ما أراه وما أفكّر فيه، بل على وجه دقيق، ما نُفكّر فيه (تمامًا ما نُفكّر فيه نحن، ولتكن «نحن» هذه عنوان مذكّراتي). فهذا سيكون مشتقّ حياتنا، حياة الدولة الواحدة رياضيًا، وإذا كان الأمر كذلك، ألن يكون هذا بذاته، وعلى الرغم منّي قصيدة؟ سيكونُ كذلك، وهذا ما أؤمنُ به وأعرفُه معرفةَ اليقين.

أكتب هذا وأشعر بأن وجْنتاي تتّقدان. هذا يشبه غالبًا ما تشعر به المرأة حين تسمع أوّل مرّة نبضَ الإنسان الجديد الأعمى الذي لا يزال صغيرًا جدًا في داخلها. إنّه أنا، وفي الوقتِ ذاته ليس أنا. وعليّ أن أغذّيه شهورًا طويلةً من عُصارة مُهجتي ومن دمي، ثم أنتزعه من ذاتي رغم الآلام، وأضعه عند أقدام الدولة الواحدة.

لكنّني، مثل كلّ واحدِ منّا، أو مثل كلّ واحدِ منّا تقريبًا، مستعدّ.
نعم، مستعدّ.

*****

المذكّرة الثانية

الملخّص:

الباليه. الانسجام المربّع. س.

الربيع .. من خارج السور الأخضر، تحمل الريحُ من السهول المتوحّشة غير المرئية غبارَ العسل الأصفر من أزهارٍ ما. الشفاهُ يُصيبها الجفاف بسببِ هذا الغبار الحلو، فتراك تتلمّظ شفتيك في كلّ دقيقة، ولا بدّ مِن أنّ النِساء اللواتي تلقاهنّ كلّهنّ (كذلك الرجال طبعًا) ذواتِ شفاهٍ حلوةٍ، وهذا ما يعيقُ التفكير المنطقي إلى حدّ ما.

لكنّ السماء! إنها زرقاء لم تُفسدها سحابةٌ واحدة (كم كانت أذواق الأقدمين وحشية، إذ كان بمقدور كتل سخيفة، فوضوية، متدافعة بغباء من البخار أن تُلهم شعراءهم!). فأنا أحبّ. ومتأكّد من أنّي لن أخطئَ إذا قلت: نحن نحبّ تمامًا مثل هذه السماء المعقّمة التي لا عيبَ فيها ولا شائبة. في أيّام كهذه، يكونُ العالم كلّه مسبوكًا من ذلك الزجاج الأمتن والأخلد نفسِه الذي سُكب منه السور الأخضر، وأبنيتنا كلّها. في أيّام كهذه، ترى الأشياء في عمقها الأشدّ زرقة، وترى معادلاتها المدهشة المجهولة إلى الآن، ترى هذا كلّه في أيّ شيء من الأشياء اليومية، الأقرب والآلفُ إليك.

على سبيل المثال؛ الآن صباحًا، كنتُ في العنبر الذي يجري فيه بناء «التكامل». على حين غِرّةٍ رأيتُ الآلات: كانت كرات المنظِّمات تدور بعيون مغمضة، بنكران ذات، وأذرعة التدوير تنعطفُ وهي تلمع ذات

اليمين وذات الشِمال، والميزان ذو العتلة يهزّ كتفيه بإباء، والمثقب يستقرّ على إيقاع موسيقى غير مسموعة. فجأةً، رأيت كلّ ما في هذه الباليه الفخمة المغمورة بشمس زرقاء خفيفة، التي تصنعها الآلات من جمال.

وساءلت نفسي: ما سرّ هذا الجمال؟ ولماذا يكون الرقص جميلًا ؟ الجواب: لأنّ هذا كلّه حركة غير حرّة، لأنّ معنى الرقص العميق كلّه في التبعية المطلقة، الجمالية، في اللاحرّية المثالية. وإذا ما صحّ أنّ أجدادنا كانوا يعكفون على الرقص في أشدّ لحظاتِ حياتهم إلهامًا (التمثيليات الدينية، الاستعراضات العسكرية) فهذا ليس له إلّا معنًى واحد: غريزة اللاحرّية صفة لصيقة بالإنسان عضويًا منذ قديم الزمان، وإنّما نحن في حياتِنا الراهنةِ الآن عن وعي ..

لكنّني مضطرٌّ إلى أن أكملَ فيما بعد، فقد فرقع المرقّم. رفعت عينيّ: «ف -90»، طبعًا. بعد نصف دقيقة ستكون هنا بنفسِها لنخرج في نزهة.

«الغالية ف» ! هذا ما كان يبدو لي دائمًا، إنّها شبيهةٌ باسمها: أقصر بعشرة سنتيمترات من المعيار الأمومي، ولهذا، فهي مصقولةٌ كلُّها دائريًّا، والـــ ف الوردي -الفم -مفتوحٌ لكلّ كلمة من كلماتي. وهنا كذلك، الثنية المستديرة المنتفخة على معصم اليد، مثل هذه الثنيات تكونُ عند الأطفال.

حين دخلَتْ، كان الناظم المنطقيّ في داخلي لا يزال يهدر بملء قوّته، وبفعل العطالة انطلق لساني يتحدّث في المعادلة التي فرغتُ توًّا من صياغتها، والتي احتوتنا نحن جميعًا والآلات والرقص.

-رائع. أليس كذلك؟ - سألتُها.

-أجل، رائع. إنّه الربيع. -أجابتني: «ف -90» وهي تبتسمُ لي

ابتسامة وردية.

أرأيتم؟ الربيع .. هي تتحدّث عن الربيع. إنّهنّ النساء .. صمتٌّ.

تحتُ، الشارع مزدحم: في طقس كهذا؛ ننفقُ الساعة الشخصية التي تعقب الغداء في نزهة إضافية. وكما هي الحال دائمًا، كان المصنع الموسيقيّ ينشد بأبواقه كلّها مارش الدولة الواحدة. وكانت الأرقام، مئات الأرقام، بل الآلاف منها في لباسها الموحّد، وأنواطها الذهبية على صدورها (والنَوط هو الرقم الذي أعطته الدولة كلّ واحدٍ وواحدةٍ منّا) تسير صفوفًا منتظمة، كلّ صفّ من أربعة، وهي توقّع خطواتها بانبهار. وأنا، نحن الأربعة واحدةٌ من تلك الموجات التي لا تنتهي في هذا التيّار الجبّار. عن يساري «ف -90» (لو أنّ أحد أجدادي الشعراء كتب ما أكتبُه الآن قبل ألف سنة، لسمّاها غالبًا هذا الاسم المضحك: «فتاتي»)؛ وعن يميني رقمان مجهولان لا أعرفهما، أحدُهما مذكّر والآخر مؤنّث.

سماء زرقاء جذلى، وشموس طفلية صغيرة في كلّ نَوط من الأنواط، ووجوهٌ لا يعكّر صفوها جنون الأفكار .. والأشعّة كلّها من مادّة واحدة مشعّة مبتسمة. والإيقاعات النحاسية: «ترا -تا -تم. ترا -تا -تم»، والدرجات النحاسية المتلألئة تحت الشمس، ومع كلّ درجة ترقون أعلى فأعلى، في زرقةٍ تبعث الدوار ..

وها أنا ذا الآن، كما في صباح هذا اليوم في العنبر، أرى مرّة أخرى كأنّما أوّل مرّة في حياتي، أرى كلّ شيء: الشوارع المستقيمة الثابتة، وزجاج الطرقات ينفث الأشعّة في كل اتّجاه، والموشورات السداسية والسطوح المتوازية، الإلهية للمنازل الشفّافة، والانسجام المربّع للصفوف ذات الزرقة الضاربة إلى اللون الرمادي. وهكذا: كأنّما أنا وليس أجيالًا كاملة، أنا بشخصي هزمت الإله القديم، الحياة القديمة،

أنا بشخصي أوجدتُ هذا كلّه، وأنا كالبرج أخشى أن أحرّك مرفقي كي لا تتساقط شظايا الجدران والقباب والآلات ..

ومن ثَمّ لحظةٌ، قفزةٌ عبر القرون. تذكّرتُ (لا بدّ من أنّه التداعي عن طريق التضادّ)، تذكّرتُ على حين غِرّة لوحة في متحف: شارعهم، شارعهم إذّاك، شارع القرون العشرين، زحام يضطرب فيه ويختلطُ الناسُ بالعربات، بالبهائم، بالإعلانات، بالأشجار، بالألوان، بالطيور بشكل محموم. ويقال إنّ هذا ما كان فعلًا، هذا ما كان يمكنُ أن يكون. بدا لي أنّ هذا غير معقول، سخيف، مستحيل، لذا لم أتمالك نفسي، وقهقهتُ فجأة.

وللحال صدًى- ضحكةٌ عن يساري. التفتُّ: كانت تنغرز في عينيّ أسنانٌ حادّةٌ بيضٌ -ذات بياض خارق - ويطالعني وجهٌ نسائي مجهول.

قالت: العفو، لكنّك كنت تجتلي كلّ شيء بإلهام، كأنّك إله أسطوري في اليوم السابع من أيّام بدء الخليقة .. يبدو لي أنّك واثق أنّك أنتَ، ولا أحد سواك هو الذي خلقني كذلك .. وهذا إطراء كبيرٌ لي ..

وهذا كلّه من دون ابتسامة، بل أكاد أقول مع شيء من الإجلال، (ربّما بلغها أنّي باني «التكامل»)، لكن، ولست أدري، أفي عينيها أم حاجبيها، كان هناك مجهول غريب، مثير للأعصاب؟ ولم أستطع على أيّ شكل من الأشكال أن ألتقطه، وأعطيه صيغةً أو قيمة عددية.

ولسببٍ ما ارتبكتُ، وأخذت أعلّل في شيءٍ من التخبّط سبب ضحكي. واضح تمامًا أنّ هذا التضادّ، هذه الهوّة التي لا يمكنني تجاوزها بين اليوم والأمس ..

- لكن لماذا لا يمكنُ تجاوزها؟ (يا لها من أسنان بيض!). يمكن إقامة جسرٍ عبر الهوّة. لنتصوّر وحسب: الطبل، الكتائب، الصفوف، هذا كلّه كان موجودًا كذلك .. ومن ثَمّ ...

- واضحٌ طبعًا! -هتفت (كان هذا تقاطع أفكار مدهش: كانت تقول بكلماتي ذاتها تقريبًا ما كنت أسجّله قبل النزهة). - هل تفهمون؟ حتى الأفكار، وهذا لأنّه لا أحد هنا «واحد فرد» بل «واحد من». فنحن كلّنا متشابهون، كلّنا واحد.

وأردفتْ: هل أنت متأكّد؟

رأيت الحاجبين المشدودين إلى الصدغين على شكلِ زاوية حادّة، كأنّهما قرنا حرف S حادّان، ومرّةً أخرى ارتبكت، تطلّعتُ يمينًا، شِمالًا و ..

عن يميني هي، «م-330» (أرى رقمها الآن). رقيقة، حادّة، لدِنة في عناد كالسوط، وعن يساري «ف»، امرأة مختلفة تمامًا، كلُّها استداراتٌ، وذات ثنية طفلية على المعصم، وفي طرف صفّنا نحن الأربعة رقم مذكّر لا أعرفه، مقوّس مرّتين على شكل حرف S. كنّا جميعًا مختلفين ..

هذه، «م -330»، التي عن يميني، التقطتْ على ما يبدو نظرتي المرتبكة، وقالت متنهّدة:

-أجل، مع الأسف!

في الحقيقة جاءت «مع الأسف» هذه في محلّها تمامًا. لكن، كان هناك مرّةً أخرى شيءٌ ما على وجهها أو في صوتها ..

قلتُ في حِدّة غير مألوفة بالنسبة إليّ:

- لا شيء يستدعي «مع الأسف» هذه. العلم ينمو، وواضح أنّه إن لم يكن اليوم فبعد خمسين، مِئة عام ..

- حتى أنوف الجميع ..

- أجل، حتى الأنوف، - كان صوتي قد أخذ يعلو فيما يكادُ يكونُ صراخًا. ما دام هناك سبب، أيّ سبب للحسد .. ما دام لي أنف كالزرّ ولآخر أنف ..

- لكنّ أنفك، أكاد أقول إنّه «كلاسيكيّ» كما كانوا يقولون قديمًا .. أمّا يداك .. ألا أريتني يديك!

لا أقوى على الاحتمال حين ينظرون إلى يديّ: كلتاهما مكسوّة بالشعر تمامًا، شعثاء، كأنّهما عودة سخيفة إلى البدائية. مددت يدي، وقلت بصوت محايدٍ ما أمكنني:

- يدا قرد.

نظرت إلى اليدين ثم إلى الوجه:

- حقًّا، إنّها ظاهرة مثيرة جدًّا للفضول. كانت تزورّني بعينها، ولاحَ القرنان عند زاويتي الحاجبين من جديد.

- إنّه مُسجّل على اسمي، فتحت «ف -90» فمها ورديًّا جذلًا.

لو بقيت على صمتها .. فما قالته لا داعي له إطلاقًا. وعمومًا «ف» اللطيفة هذه .. كيف أقول هذا؟ سرعةُ لسانها محسوبةٌ بشكلٍ غير دقيق، سرعةُ اللسان المحسوبة بالثانية يجب أن تكون دائمًا أقلّ قليلًا من سرعةِ الفكرِ بالثانية، وليس العكس، على أيّ شكلٍ من الأشكال.

في نهاية الشارع، في برج المكثّفات، دوّى الجرسُ مُعلنًا الساعة السابعة عشْرة. انتهت الساعة الشخصية. أخذت «م -330» تبتعد مع ذاك الرقم المذكّر الشبيه بحرف S. إنّه يبدي احترامًا عظيمًا، وأرى الآن كما لو أنّي أعرف هذا الوجه تمامًا. لقد التقيت به في مكانٍ ما، لكنّي لا أستطيع أن أتذكّر الآن.

ابتسمت لي «م»، وهي تودّعني، ابتسامة خفيفة، غامضة كما في المرّة الأولى:

- عرّج بعد غد على القاعة 112.

هززت كُتفي:

-إذا كلّفت بمَهمّة خاصّة إلى تلك القاعة التي ذكرتها تحديدًا ..

وأجابت بثقة غير مفهومة: ستُكلّف.

كانت هذه المرأةُ تُحدث فيّ انطباعًا غير لطيف، كذاك الذي يُحدثه طرفٌ غير قابل للتحليل، يندسُّ عرضًا في معادلة، ثمّ إنّي كنت مسرورًا بالبقاء وحدي مع «ف» اللطيفة، ولو إلى وقت قصير.

عبرت معها خطوط الشوارع الأربعة، واليد باليد، وعند الناصية كان علينا أن نفترق؛ هي ذات اليمين، وأنا ذات الشِمال.

-كم كنتُ أودُّ أن أوافيَك اليومَ وأرخي الستائر. اليوم تحديدًا، الآن .. قالتْ ذلك، وهي ترفع إليّ عينيها المدوّرتين البلّورتين الزرقاوين صوبي في وجَل.

مُضحكة. ماذا كان بوسعي أن أقول لها؟ أمس تحديدًا كانت عندي، وما تعرفُه ليس أسوأ ممّا أعرفُه أنا، أنّ يومنا التالي المخصّص

للجنس هو بعد غد، إنّه ببساطة «استباق الفكرة» إيّاه، تمامًا كالاستباق (الضارّ أحيانًا) في إضرام شرارة في محرّك.

حين وداعها قبّلتُ مرّتين .. لا، سأكونُ دقيقًا، ثلاثَ مرّات عينيها الزرقاوين الرائعتين اللتين لا تعكّر صفاءهما أيّة سحابة.

*****

المذكّرة الثالثة

الملخّص:

الجاكتة. السور. اللوح.

تصفّحت ما كتبتُه البارحة كلّه، ورأيت رأي العين: لم أكتب ما كتبت بوضوحٍ كافٍ، بمعنى أنّ هذا واضحٌ الوضوح كلّه بالنسبة إلى أيّ أحدٍ منّا، لكن ما أدراني: قد لا تكونون -أنتم أيّها المجهولون الذين سيحمل إليهم «التكامل» مذكّراتي- قد لا تكونون قرأتم كتابَ الحضارة العظيم إلّا إلى تلك الصفحة التي وصل إليها أسلافُنا قبل نحو تسعِمئة عام. قد لا تكونون تعرفون حتى هذه البدهيات الأوّلية مثل: لوح الساعة، الساعات الشخصية، المعيار الأمومي، السور الأخضر، المحسن. وهذا شيء يُضحكني، وفي الوقت نفسه يُشعرني بعنتٍ كبير في التحدّث على هذا كلّه. إنّ هذا أشبه ما يكون بأن يضطرّ كاتب من قرنٍ ما، وليكن القرن العشرين، إلى أن يشرح معنى «جاكتة» أو «زوجة» أو «شقّة» في روايته. لكن لو تُرجمت روايته إلى متوحّشين، أمن المعقول أنّ بإمكانه الاستغناء عن شروحٍ عن «الجاكتة»؟

أنا واثق أنّ المتوحّش سينظر إلى الجاكتة، ويقول: «ما نفعها؟ ليست إلّا عبئًا زائدًا». ويبدو لي، أنّكم أنتم كذلك ستنظرون النظرة نفسها حين أقول لكم: إنّ أحدًا منّا لم يخرج خارج السور الأخضر منذ أيّام حرب المئتي عام.

لكن، أيّها الأعزاء، يجب أن نُعمل الفكر قليلًا، ففي ذلك نفعٌ عظيم

لنا. فمن الواضح أنّ التاريخ الإنساني كلّه - بقدر ما نعرف - هو تاريخ انتقال من أشكال الترحال إلى أشكالٍ أكثرٍ استقرارًا. أولًا، يستتبع ذلك أنّ أكثر أشكال الحياة استقرارًا (وهو شكلُ حياتنا) هو في الوقت نفسِه أكثرها كمالًا (وهو شكلٌ من أشكال حياتنا كذلك). وإذا كان الناس قد سعَوا في الأرض من أقصاها إلى أقصاها، وضربوا في آفاقها، فما ذلك إلّا في عصور ما قبل التاريخ، حين كانت توجد أممٌ وحروب وتجارات واكتشافات أميركات جديدة مختلفة. لكن ما نفع ذلك الآن؟ ومَن يشعر بالحاجة إليه؟

أنا موافق: عادة الاستقرار هذه لم تأت من دون تعب، كما أنّها لم تأتِ في لحظة واحدة. ذلك أنّه حين تخرّبت الطرق كلّها في أثناء حرب المئتي عام وعلاها العُشب، لا بدّ مِن أنّه بدا للناس في الفترة الأولى آنذاك، أنّه من المشقّة عليهم العيش في مدنٍ معزولةٍ الواحدة فيها عن الأخرى بمجاهل خضر. لكنْ، ما الغريبُ في هذا؟ فبعد أن سقط ذنَب الإنسان، لا بدّ من أنّه لم يتعلّم فورًا طرد الذباب من دون ذنَب. ولا بدّ من أنّه عانى وكابد في الفترة الأولى وهو من دون ذنَب. لكن الآن، هل تستطيعون أن تتصوّروا أنفسكم بأذناب؟ أو هل تستطيعون تصوّرَ أنفسكم في الشارع عراةً، من دون جاكتة؟ (من المحتمل أنّكم لا تزالون تغدون وتروحون في جاكتاتِكم). والأمر نفسه هنا: لا أستطيعُ تصوّرَ مدينة لا تتمنطق بالسور الأخضر، ولا أستطيعُ تصوّرَ حياة لا تتّشح بملابس اللوح الرقمية.

اللوح .. ها هي ذي أرقامه الأرجوانية على خلفيّتها الذهبية، ترنو إليّ من جدار غرفتي في قسوة وحنان. وعلى غير إرادة منّي أتذكّر ما كان يُسمّى عند الأقدمين «أيقونة». أودّ لو أنظم شعرًا أو تراتيل (لا فرق بينها عندي، فهي واحدة). آه، ما لي لست شاعرًا لأغنّيك بهيئةِ صورة لائقة بك أيّها اللوح، يا قلبَ الدولة الواحدة ونبضها.

نحن جميعًا، وربّما أنتم كذلك، قرأنا ونحن أطفال في المدرسة هذا الأثر العظيم من آثار الأدب القديم الذي وصل إلينا، بل أعظمها، وهو «جدول الحركة على الطرق الحديدية»، ضعوا حتى هذا «الجدول» إلى جانب اللوح، وسترون الغرافيت والألماس جنبًا إلى جنب: في كِليهما المادّة ذاتها، «الفحم». لكن ما أشفَّ الألماس وأبقاه وأشدَّ بريقه! من منكم لا تنحبسُ أنفاسه وهو يقلّب بجلبة صفحات «الجدول»؟! لكنّ لوح الساعة يحوّلُ كلّ واحد منّا في اليقظة إلى بطلٍ فولاذي سداسيّ العجلات، في قصيدة عظيمة. ففي كلّ صباح، وبدقّة سداسية العجلات، وفي ساعة واحدة ودقيقة واحدة ننهض، نحن الملايين، كرجل واحد. وفي ساعة واحدة نبدأ، نحن الملايين، عملَنا كرجل واحد، وفي ساعة واحدة كرجل واحد، نُنهيه كذلك. وفي ثانية واحدة يُحدّدها اللوحُ، نرفع الملاعقَ إلى أفواهِنا وقد انصهرنا في جسم واحد ذي ملايين الأيدي، وفي ثانية واحدة نخرج في نزهة، ونذهب إلى قاعة تمارين «تيلور»، ثمّ نمضي إلى النوم.

سأكونُ صريحًا الصراحةَ كلّها: لا يوجد لدينا حتى الآن حلٌّ دقيقٌ مطلقٌ لمسألة السعادة: فمرّتين في اليوم، من الساعة 16 إلى 17، ومن 21 إلى 22، يتفكّك الجسم الواحد الجبّار إلى خلايا متفرّقة: إنّهما الساعتان الشخصيّتان اللّتان حدّدهما اللوح. في هاتين الساعتين، يمكنكم أن تروا الستائرَ في غرفِ بعضِنا مُسدلةً بحشمة، وتروا بعضَنا الآخرَ، يعبرُ الشارعَ على درجاتِ المارش النحاسية بخطوات رتيبة موزونة، وبعضنا الثالث، كما هي حالي الآن، يجلسُ إلى مكتبه في غرفته. لكنّني أؤمن إيمانًا راسخًا - ولْيقولوا إنّي رجل مثالي أو خيالي - أؤمن، سواءً أطال الوقتُ أم قصر، سنجدُ في وقتٍ ما لهاتين الساعتين مكانًا في الصيغة العامة، وستدخل هذه الثواني الـ 864000 كلُّها في لوح الساعة.

لقد تهيّأ لي أن أقرأ وأسمع كثيرًا من الغرائب عن تلك الأزمنة التي

كان الناس لا يزالون يعيشون فيها حالة الحرّية، أي حالة عدم التنظيم، حالة التوحّش. إنّما أغرب ما سمعت وقرأت، كان يبدو لي دائمًا التالي: كيف كان بإمكان سلطة الدولة آنذاك، حتى وإن كانت هذه السلطة جنينية، أن ترضى بأن يعيش الناس من دون أيّ شيء يشبه لوحنا، من دون نزهات إلزامية، من دون تنظيم أوقات الطعام، وبأن يستيقظوا وينامو حين يحلو لهم ذلك، بل يزعمُ بعضُ المؤرّخين أنّ الأضواء كانت تُشعل آنذاك طَوال الليل في الشارع، وأنّ العربات والناس كانت تسير طَوال الليل في الشوارع.

هذا شيءٌ لا أستطيع فهمَه بأيّ شكلٍ من الأشكال. ذلك أنّه مهما بلغت محدودية عقلهم، كان عليهم أن يُدركوا مع هذا، أنّ حياةً كهذه كانت قتلًا حقيقيًا شاملًا، لكنّه قتل بطيء يومًا بعد يوم. كانت الدولة «الإنسانية» تُحرّم قتل الفرد، لكنّها لم تكن تُحرّم قتل الملايين قتلًا جزئيًا. قتل فردٍ واحدٍ يعني أنّنا نقومُ بتقصير مجموع الحيوات الإنسانية خمسين عامًا، هذا إجرام، أمّا تقصير مجموع الحيوات الإنسانية خمسين مليون عام، فليس ذلك بإجرام. أليس هذا أمرًا مضحكًا؟ إنّ هذه المسألة الرياضية الأخلاقية يقومُ بحلّها أيُّ رقم عمره عشر سنوات عندنا في نصف دقيقة، أمّا هم فلم يستطيعوا أن يجدوا لها حلًّا، كلّ من عندهم من أمثال «كانط» لم يستطيعوا أن يجدوا لها حلًّا (لأنّ أيًّا من «كانط» وأمثاله لم يفطنْ إلى ضرورة بناء نظام أخلاق علمية، أي مبنية على الطرح والجمع والقسمة والضرب).

أوَليس هذا أمرًا لا معقولًا؟! وهو أنّه أمكن للدولة (كانت تتجرّأ على إطلاق هذا الاسم على نفسها) أن تدعَ الحياة الجنسية مِن دون مراقبة: من يشاء وفي أيّ وقت يشاء وقدْر ما يشاء .. شيء غير علميّ بتاتًا، كالحيوانات. وكالحيوانات، على عمًى، كانوا ينجبون الأطفال. أليس أمرًا مضحكًا أن يكونوا عرفوا البستنة وتربية الدجاج والأسماك

(ولدينا معطياتٌ دقيقة على أنهم عرفوا هذا كلّه) ولم يستطيعوا، مع هذا، الاستمرار إلى الدرجة النهائية لهذا السلّم المنطقيّ: إنجاب الأطفال، ولم يصل بهم تفكيرهم إلى معيارَينا: الأموميّ والأبويّ؟!

هذا كلّه مضحك وغير معقول، إذ إنّني ما إن كتبتُ ما كتبتُ، حتى انتابني الخوف: الخوف أن تحسبونني، يا قرّائي المجهولين، فجأة مُهرّجًا شِرّيرًا، أو تظنّونني فجأةً أنّي أريد السخرية منكم، وأنّ ما أرويه لكم بمظهر الجِدّ هو هراءٌ في هراء.

لكنْ، أولًا: أنا لستُ مؤهّلًا للمُزاح، ففي كلّ مزحة يدخل الكذب كتابع غير مرئيّ. وثانيًا: إنّ علم الدولة الواحدة يؤكّد أنّ حياة الأوّلين كانت كذلك تمامًا. وعلم الدولة الواحدة لا يمكنُ أن يُخطئ. ثم أنّى كان لمنطق الدولة أن يكون إذّاك، حين كان الناس يعيشون حالة الحرّية، أي في حالة الوحوش، القردة، القطيع؟ وبماذا يمكننا أن نطالبهم، إذا كنّا لا نزال حتى في وقتنا هذا نسمع بين حين وآخر صدًى وحشيًا، قرْديًّا يأتينا من مكان ما من القاع، من أعماق الشعر؟

من حسن حظّنا أنّنا لا نسمع هذا إلّا نادرًا. من حسن حظّنا أنّ هذه ليست سوى أعطال طفيفة في بعض القطع، يسهل إصلاحُها من دون حاجة إلى إيقاف المسيرة الخالدة، العظيمة للآلة كلّها. ولكي نرمي جانبًا المسمار الملتوي لدينا يدُ المحسن الماهرة، الثقيلة، لدينا عين الحرّاس الخبيرة ..

آه، وبالمناسبة، تذكّرتُ الآن: رجل الأمس ذاك، المنحني مرّتين كحرف S. يبدو أنّني رأيته خارجًا من مكتب الحرّاس. أدركتُ لماذا كان لديّ هذا الشعور الغريزيّ بالاحترام نحوه وهذا الارتباك حين .. هذه الـ «م» الغريبة في حضرته .. عليّ أن أعترف أنّ «م» هذه ..

قُرع جرس النوم: الساعة هي 22:30. إلى اللقاءِ غدًا.

*****

المذكّرة الرابعة

الملخّص:

المتوحّش ذو مقياس الضغط الجوي. الصرع. لو أنّ.

حتى الآن، كلّ شيء في الحياة كان واضحًا أمامي، (ليس من العبث على ما يبدو، أنّ لديّ بعضُ الشغف بهذه الكلمة «واضح»). أمّا اليوم .. فلا أفهم.

أوّلًا: كُلّفتُ فعلًا بالحضور إلى القاعة 112 ذاتِها، كما قالت لي. مع أنّ هذا الاحتمال كان 1500 / 10000000 = 3 / 20000 (1500 هو عدد القاعات، و 10000000 هو عدد الأرقام). وثانيًا .. على أيّة حال من الأفضل أن أبدأ بالترتيب.

القاعة. إنّها نصف كرة ضخمة، مشمسة مصنوعة من كتل زجاجية، صفوف دائرية من رؤوس كروية بنبلٍ، محلوقة بنعومة. تطلّعتُ إلى ما حولي واجف القلب قليلًا. أظنّ أنّي كنت أبحث إن كان المنجل الوردي -شفتا «ف» اللطيفتان -لن يلمعَ في مكانٍ ما فوقَ أمواج اللباس الموحّد الزرق. لكنْ، ها هي ذي أسنان حادّة وبيض في شكل غير اعتياديّ تشبه ..

لا، هذا ليس ما أريده. اليوم مساءً، في الساعة 21 ستأتي «ف» إليّ -لذا، فالرغبة في رؤيتها هنا، كانت أمرًا طبيعيًا تمامًا.

ها هو ذا الجرس يُقرع. نهضنا، أنشدنا نشيد الدولة الواحدة، ثمّ

على المنصّة محاضرٌ صوتيٌّ يُشعّ بمكبّر صوته الذهبيّ، وحدّة ذكائه:

-«أيّتها الأرقام المحترمة! منذ فترة، عثر علماء الآثار على كتاب من القرن العشرين، يتحدّث فيه مؤلّفه بسخرية على المتوحّش ومقياس الضغط الجويّ. فقد لاحظ المتوحّش أنّه كلّما كان مقياسِ الضغط الجويّ يتوقّف عند إشارة «مطر»، كان المطر يسقط حقيقةً. وبما أنّ المتوحّش كان يرغب في سقوط المطر، فقد سحب منه زئبقًا بحيث توقّف مستواه عند «المطر» (على الشاشة، المتوحّش المغطّي بالريش يُخْرِج الزئبق. ضحكٌ). إنّكم تضحكون، لكنْ، ألا ترون أنّ أوروبّيّي تلك الحقبة هم أجدر منه كثيرًا بضحككم؟ فالأوروبيّ كالمتوحّش، كان يريد المطر، المطر بالحرف الكبير، المطر الجبريّ، لكنّه كان يقف بائسًا، عاجزًا أمام مقياس الضغط الجويّ. أمّا المتوحّش، فكان لديه قدرٌ أكبر من الجرأة والطاقة والمنطق. ولْيكن منطقًا متوحّشًا: فقد استطاع أن يقرّر وجود علاقة بين النتيجة والسبب، كان، وهو يسحب الزئبق، قد تمكّن من القيام بالخطوة الأولى، في ذلك الطريق العظيم الذي ..».

هنا (أكرّر أنّني أكتب من دون أن أخفيَ شيئًا) كأنّما أصبحت لبعض الوقت كتيمًا لا تنفذ إليه التيّارات المحيّية المتدفّقة من مكبّرات الصوت. بدا لي فجأةً، أنّي أتيت إلى هنا عبثًا (لماذا عبثًا؟ وكيف لا آتي ما دمتُ مُكلّفًا في مَهمّة؟)، بدا لي أنّ كلّ شيء فارغ، كلّ شيءٍ إنْ هو إلّا قشرة. ولم أُعمل انتباهي في صعوبة إلّا حين انتقل المحاضر الصوتي إلى الموضوع الرئيس، إلى موسيقانا، إلى التأليف الرياضي (الرياضيّ سبب، والموسيقى نتيجة)، إلى وصف المقياس الموسيقي المبتكر حديثًا.

-«.. ما إن يُدارُ هذا المفتاح، حتى يُنتجَ أيٌّ منّا ما قد يبلغُ ثلاث سوناتات في الساعة. لكنْ، كم كان هذا يكلّفُ أجدادكم جهدًا! إذْ ما كانوا يستطيعون أن يبدعوا إلّا بعد أن يبلغوا نوبات «الإلهام»، وهو

شكل غير معروف من أشكال الصرَع. وإليكم مثالٌ مُسلٍّ جدًّا على ما كان يحدثُ عندهم: موسيقى سُكْرٍ يا بنيّ، القرن العشرون. هذا الصندوق الأسود -(تزاح الستارة على المنصّة، فتظهر هناك آلتهم القديمة جدًّا) - هذا الصندوق كانوا يسمّونه «رويال»[١] أو «ملكيًّا»، ممّا يدلّ مرّةً أخرى على ما كانت عليه حالةُ موسيقاهم كلّها ..».

واستمرّ، لكنّني لم أعدْ أذكر شيئًا. من المحتمل جدًا لأنّ .. ولأقلْها صراحةً لأنّها، هي «م-330»، اقتربت من الصندوق «الملكي». الراجحُ أنّني صُعقتُ بسبب ظهورها المفاجىء فوق المنصّة.

كانَت ترتدي لباسًا غريبًا من العصر القديم: ثوبٌ أسودُ يلفّ قامتها، ويلتصق بها التصاقًا وثيقًا، بياضُ كتفَيها المكشوفين وصدرها بارزٌ بحدّة، وهذا الظلّ الدافئُ المتمايل من أنفاسها بين .. وأسنانها الناصعة البياض التي تكاد تكون شرّيرة ..

ابتسامة، لسعة، إلى هنا، إلى أسفل. جلستْ، عزفتْ، كان شيئًا متوحّشًا، متشنّجًا، غير متجانسٍ، كحياتهم كلّها آنذاكٍ، ليس فيه ظلّ من الآلية المعقولة. وطبعًا هؤلاء مِن حولي على حقّ: كلُّهم يضحكون. بعضهم وحسب .. لكنْ، لماذا أنا منهم، لماذا أنا كذلك؟

أجل، الصرَع مرض نفسي، وجع .. واللسعة وجع بطيء، شهيّ .. فلتستمرّ أعمق وأوجع. هذه هي الشمس، تطلع ببطءٍ. ليست شمسنا، ليست هذه الشمس البلّورية المشربة بزرقة قاتمة، التي تطلّ علينا بتوازن ورتابة عبر القرميد الزجاجيّ، بل تلك الشمسِ الوحشية المندفعة، الحارقة، انزعْ ما عليك كلّه، وارمه بعيدًا عنك مِزقًا صغيرة!

---

(١) هناك نوع من أنواع البيانو يُسمّى بالروسية "رويال".

نظر الجالسُ جانبي بطرف عينه يسارًا إليّ وضحك ضحكة خافتة، لا أدري، لمَ أذكر بشكل واضح ما رأيته؟ رأيتُ فقاعة لُعاب متناهية الصغر، تعلو شفتيه ثمّ تنفجر. هذه الفقاعة أعادتني إلى صوابي، فعدتُ أنا الذي كنتُه.

مثلهم جميعًا، لم أكنْ أسمعُ غيرَ صريرِ أوتارِ سخيفٍ عجولٍ. كنت أضحك. شعرت بحالةٍ من الانشراح والوضوح: فقد صوّر لنا المحاضر الصوتيّ الموهوب بحيوية فائقة هذا العصر المتوحّش، وهذا كلّ ما في الأمر.

وبأيّة متعة ولذّة استمعتُ إلى موسيقانا الحالية بعد ذلك!؟ (لقد عُرضت على مسامعِنا نهايةَ الحفلة لتِبيان الفرق). الدرجات اللونية البلّورية للصفوف الملتقية والمتباعدة فيما لا نهاية له، والألحان الـمُجملة لصيغ «تايلور» و«ملكورين»، والحركات الطنينية المربّعة لِتكّاتِ «فيثاغورث» الموسيقية، والأنغام الحزينة للحركة التذبذبية الخابية، واللمسات اللحنية الساطعة المتناوبة مع خطوط الوقفات الفرونفوفيروفية -التحليل الطيفيّ للكواكب، يا لَلعظمة! ويا لَلسننية الراسخة الوطيدة الأركان! ويا لَبؤس موسيقى الأقدمين الاعتباطية، التي لا يحدّها شيءٌ سوى الخيالات المتوحّشة.

وكالعادة، أخذ جميعُهم يخرجون من القاعة صفوفًا متراصّةً، أربعةً أربعة، عبر الأبواب الواسعة. لاحت إلى جانبي الهيئة الأليفة المنحنية مرّتين، فانحنيتُ احترامًا.

بعد ساعة يجب أن تحضر «ف» اللطيفة، انتابني اضطرابٌ لطيف ونافع. أسرعتُ أجتازُ البيوت عن جانبي إلى الدائرة، دسستُ البطاقة الوردية في يد المناوبة، واستلمت منها الإشعار بحقّي في الستائر. هذا

الحقّ عندنا لأيّام ممارسة الجنس وحسب، فيما عداها، فإنّنا نعيش بين جدراننا الشفّافة كأنّما المسكوبة من هواء لألاء علنًا، على مرأى من الآخرين، مغمورين بالنور دائمًا وأبدًا. فليس عند أحدِنا ما يُخفيه عن الآخر، كما أنّ هذا يخفّف من العمل الشاقّ والرفيع معًا، الذي يقوم عليه الحرّاس. وإلّا، ما أدرانا ما كان يُمكنُ أن يحدث! من الجائز أنّ مساكنَ الأقدمين الغريبة، غير الشفّافة هي التي أفرزت نفسيّتهم الانعزالية البائسة. «بيتي (هكذا!) هو قلعتي» .. كان لا بدّ من أن ينحطّ بهم تفكيرُهم إلى هذا الحدّ! ..

في الساعة 21 أسدلتُ الستائر، وفي هذه الدقيقة تحديدًا دخلت «ف». وقد علتْ أنفاسُها قليلًا. مدّت إليّ فمها الوردي الصغير والبطاقة الوردية الصغيرة. نزعتُ القسيمة، ولم أستطع أن أنزع نفسي عن فمها الوردي حتى اللحظة الأخيرة تمامًا -حتى الساعة 22:15.

ثم أريتها «مذكّراتي»، وحدّثتُها. يبدو أنّي حدّثتُها بطريقة جيّدة جدًا عن جمال المربّع والمكعّب والخطّ المستقيم، وكانت تصغي إليّ بشكل وردي فاتن. فجأة، سقطت من عينيها الزرقاوين دمعةٌ، فثانية فثالثة على الصفحة المفتوحة (الصفحة السابعة) مباشرة، فساح الحبر. وهكذا يجب أن أعيدَ نقل ما كتبته.

-أيّها الغالي «د»، لو أنّك، لو أنّ ..

ما معنى «لو أنّك»؟ ما معنى «لو أنّ» هذه؟ هل عادت من جديد إلى أغنيتها القديمة: الطفل، أو ربّما هناك شيء ما جديدٌ يتعلّق .. يتعلّق بتلك؟ مع أنّ الأمر هنا كما لو أنّه .. لا، مثل هذا سيكون سخيفًا أكثر مما ينبغي له.

المذكّرة الخامسة

الملخّص:

المربّع. سادة العالم. الوظيفة اللطيفة النافعة.

مرّة أخرى، ليس هذا هو المراد. مرّة أخرى، أتحدّث إليك يا قارئي المجهول وكأنّك .. ولْنقل رفيقي القديم «ر-13»، الشاعر ذو الشفتين الزنجيّتين. جميعهم، بلى، جميعهم يعرفونه. أمّا أنتم الذين في القمر، في الزُهرة، في المرّيخ، في عُطارد فمن يعرفكم، أين أنتم ومن أنتم؟

إليكم الموضوع: تصوّروا مربّعًا، مربّعًا حيًّا رائعًا، وعلى هذا المربّع أن يتحدّث عن نفسه، عن حياته. إنّ آخر ما يرد في ذهن المربّع طبعًا هو أن يقول لك: إنّ زواياه الأربع متساويةٌ كلّها. إنّه لا يرى هذا، لإنّه أمرٌ مألوفٌ جدًّا لديه، أمرٌ يوميٌّ بالنسبة إليه. من ناحيتي، فأنا أشعر بنفسي دائمًا في وضع المربّع هذا. على سبيل المثال: هذه القسائم الوردية وكل ما يتّصل بها، إنّها بالنسبة إليّ كتساوي الزوايا الأربع، أمّا بالنسبة إليكم، فقد تكون شيئًا أصعب من ثنائية الحدّ «بينوم» عند «نيوتن».

هكذا إذن، قال أحدُ حكماء الأقدمين قولًا ذكيًا، بالمصادفة طبعًا: «الحبّ والجوع يحكمان العالم». وتاليًا، كي يملك الإنسان العالم عليه أن يملك سادة العالم. وقد تمكّن أجدادُنا أخيرًا من السيطرة على الجوع بثمن باهظ، أعني بذلك: حرب المئتي عام العظيمة، الحرب بين المدينة والقرية. والراجح أنّ المسيحيّين المتوحّشين ظلّوا يتمسّكون في عنادٍ

«بخبزهم»[1]، منطلقين من خرافات دينية. لكن في عام 35 قبل تأسيس الدولة الواحدة، ابتُكر غذاؤنا الحالي، النفطي. الحقيقةُ، أنّه لم يبق على قيد الحياة إلّا 2٪ من سكّان الكرة الأرضية. لكن، بالمقابل، كم أصبح مشرقًا وجه الأرض وقد تطهّر من قذارة آلاف السنين! لكن، بالمقابل، هذان الاثنان بالمئة ذاقوا طعمَ النعيم في مخادع الدولة الواحدة.

لكن، أليس واضحًا أنّ الهناءة والحسد هما البسط والمقام للكسر الذي يُسمّى السعادة؟ وأيّ معنًى سيكون قائمًا لضحايا حرب المئتي عام التي لا تحصى، لو بقي في حياتنا سببٌ للحسد؟ لكنّه بقي مع ذلك، لأنّه بقيت أنوفٌ على شكل زرّ وأنوفٌ «كلاسيكية» (حديثنا آنذاك في النزهة)، لأنّ كثيرين كانوا يسعون إلى الفوز بحبّ بعضهم، بينما لم يكن يسعى إلى الفوز بحبّ بعضهم الآخر أحد.

ومن البداهةِ، أن تشنّ الدولة الواحدة بعد سيطرتها على الجوع (الجوع الجبريّ = مجموع الخبرات المادّية) هجومها على سيّد العالم الآخر: الحبّ. وأخيرًا، تمّ لها كذلك هزيمة هذه القوّة الطبيعية. أي تمّ لها تنظيمها، إعطاؤها صيغة رياضية، فأُعلنت منذ نحو ثلاثمئة عام شرعتنا التاريخية حول الجنس «Lex sexual»: «لكلّ من الأرقام الحقّ في أيّ رقم آخر بوصفه إنتاجًا جنسيًّا».

بعد هذا، يأتي دور التقنية، يعاينونك ويفحصونك بدقّة في مختبرات مكتب الجنس، يحدّدون لك بدقّة تركيب الهرمونات الجنسية في الدم، ويضعون لك جدولًا مناسبًا لأيّام الجنس. ثم تتقدّم بتصريح في رغبتك في أن تفيد في الأيّام المخصّصة لك من الرقم كذا (أو الرقم كذا)، فتستلم

---

(١) بقيت هذه الكلمة عندنا بشكل مجاز شعريّ وحسب، فالتركيب الكيميائيّ لهذه المادّة مجهولٌ بالنسبة إلينا.

دفتر القسائم المقرّر (الوردي): وهذا كلّ شيء.

واضح: لم يعد هناك أيّ داعٍ للحسد، مقامُ كسر السعادة صار صفرًا، والكسر تحوّل إلى ما لا نهاية بهيّة: ذاك الذي كان بالنسبة إلى الأقدمين مصدرُ عددٍ لا يُحصى من أسخف المآسي، تحوّل هو نفسُه إلى وظيفة منسجمة مفيدة لطيفة للجسم، مثله مثل النوم، العمل العضليّ، تناول الغذاء، التغوّط وغيرها. من هنا ترون كيف تُطهّر قوّة المنطق العظيمة كلّ ما تُلامسه. آه لو تعرفون أنتم كذلك، أيّها المجهولون، هذه القوّة الإلهية، لو تتعلّمون المضيّ وراءها حتى النهاية.

.. غريب، كتبت اليوم عن أرقى ذُرى التاريخ الإنساني، وكنت طَوال الوقت أتنفّس هواءَ الفكر الجبليّ النقيّ، بينما في داخلي يبدو كلّ شيء متلبّد، عنكبوتيّ، يجثم ∞4[1] ذو أربعة قوائم على شكل صليب. أم أن هذه هي قوائمي؟ قائمتاي العلويتان تحديدًا؛ يداي، وهذا كلّه لأنّهما - يداي الشعثاوين - كانتا طويلًا أمام ناظريّ. إنّني لا أحبّ التكلّم عليهما ولا أحبّهما: فهما أثر من العصر المتوحّش: أوَيعقل أن يكون ذلك فيّ حقيقةً؟ ..

أردتُ شطب هذا كلّه لأنّه يخرج عن مجال الملخّص. لكنّني قرّرت بعد ذلك ألّا أشطبه. فلتعكس مذكّراتي -كأدقّ مقياس اهتزاز- حتى أتفه الاهتزازات الدماغية: فأحيانًا، مثل هذه الاهتزازات نفسها تكون نذيرًا.

لكنّ هذا عبث، شيء بلا معنى، يتوجّب عليّ شطبه فعلًا: لقد روّضنا قوى الطبيعة كلّها، ولا يمكن لأيّ من الكوارث أن تقع.

---

(١) ∞4 هو رمز الطرف المجهول في المعادلة الرياضيّة، وذلك في اللغات الأوروبيّة.

الآن، بات واضحًا لي تمامًا الشعورُ الغريبُ الذي في داخلي، إنّه بسبب وضعي المرّبعي الذي تحدّثتُ عنه من قبل. والمجهول ∞ ليس في داخلي (فهذا غير وارد) بل هو مجرّد خوفي أن يبقى فيكم، يا قرّائي المجهولين، مجهول ما. لكنّني أؤمن أنّكم لن تدينوني بقسوةٍ بالغة، أؤمن أنّكم ستدركون الصعوبة البالغة التي أشعرُ بها في أثناء الكتابة إليكم، والتي لم يشعر بمثلها أبدًا أيُّ كاتبٍ على امتداد التاريخ الإنسانيّ كلّه: بعضُهم كتب للمعاصرين، وبعضُهم للأحفاد، لكنّ أحدًا منهم لم يكتبْ لأسلافِه أو لكائناتٍ تُشبهُ أسلافَه الأوائل، المتوحّشين..

المذكّرة السادسة

الملخّص:

حادثة. «واضح» الملعونة هذه. 24 ساعة.

أكرّر: لقد عاهدتُ نفسي على أن أكتبَ من دون أن أخفيَ أيّ شيء. ولهذا عليّ التنويه هنا، مهما كان هذا مؤسِفًا، بأنّ عملية تصلّب الحياة وتبلورها لم تبلغ نهايتها حتى عندنا كما يبدو، إذ لا تزالُ هناك عدّة درجات حتى بلوغ المثلِ الأعلى. المثل الأعلى يكون (وهذا واضح) حيث لا شيء يحدثُ صدفةً، أمّا عندنا .. تفضّلوا انظروا: ها أنا ذا أقرأ اليوم في جريدة الدولة، أنْ سيُقام في ساحة المكعّب بعد يومين عيدُ العدالة. هذا معناه أنّ أحد الأرقام أخلّ مرّة أخرى بسَيْرِ آلة الدولة، وأنّه حدث مرّة أخرى أمرٌ ما غير متوقّع، ليس في الحسبان.

إضافة إلى ذلك، فقد حدث لي أنا الآخر شيءٌ ما. وحقيقةُ الأمر، أنّ هذا حدث في أثناء الساعة الشخصية، أي في أثناء الوقت المخصّص للحالات غير المتوقّعة، ومع هذا ..

في حوالي الساعة 16 (في الساعة 16 إلّا عشر دقائق تمامًا) كنتُ في البيت. وفجأة رنّ الهاتف:

- «د -503»؟ - كان صوتُ امرأة.

-نعم.

-مشغول؟

-لا.

-هذه أنا، «م -330». سأطيرُ إليك حالًا ثمّ نذهبُ إلى البيت القديم. أمُوافق؟

«م -330» .. «م» هذه تُغيظني، تُنفّرني، تكاد تُفزعني. لكنْ لأنّها كذلك، قلتُ: نعم.

بعد خمس دقائق كنّا في المنطاد. صحن السماء الأيّاريّ الخزفيّ الأزرق، وشمس لطيفة تطنّ فوق منطادِنا الذهبيّ، لا تتجاوزُه ولا تتخلّفُ عنه. وهناك أمامَنا، تلوحُ سحابةٌ بيضاء كأنّها القَذى في العين، سحابةٌ سخيفةٌ منتفخةٌ كخدّي «كوبيدون» قديم. ويُشعرني هذا لسببٍ ما بالضيق. النافذة الأمامية مرفوعة، والريح تلفح، والشفاه تتجفّف، وأنت تلعقها رغم إرادتك، وتفكّر طَوال الوقت في الشفاه.

وها هي ذي بقع خضر داكنة، أخذَتْ تتراءى هناك بعيدًا وراءَ السور. ثمّ انكماش خفيف غير إراديّ في القلب -نحو الأسفل. نحو الأسفل، نحو الأسفل، كأنّنا نهبطُ من جبل شديد الانحدار، فإذا نحن عند البيت القديم.

كان هذا البناء الغريب، الهشّ، المبهم مكسوًّا كلّه بقشرة زجاجية: وإلّا كان مصيره الانهيار منذ أمدٍ بعيدٍ. وعند الباب الزجاجيّ عجوز كلّها غضون، خاصّةً فمها: كلّها تجعُّدات وثنايا، الشفتان غائرتان صوب الداخل، والفم مطبق. كان من غير المعقول بتاتًا أن تتكلّم، مع ذلك تكلّمَت.

-ماذا أيّها العزيزان، أأتيتُما تُلقيان نظرةً على بيتي؟ - وتلألأت

غصونها (غالبًا، أخذت شكل أشعّة ممّا أعطى انطباعًا على أنّها «تلألأت»).

-نعم، يا جدّة، شعرتُ برغبةٍ مرّة أخرى، - قالت لها «م».

كانت الغصونُ تتلألأ:

- يا لها من شمس، آ؟ لكن، فيمَ الأمر؟ آه أيّتها اللعوب، آه أيّتها اللعوب! أعرِفُ! أعرِفُ! حسنًا، اِذهبا وحدكما، وأنا من الأفضل لي أن أبقى هنا وحدي تحت الشمس ..

هِمْ .. يبدو أنّ رفيقتي تتردّد كثيرًا على هذا البيت. أودّ لو أنفض شيئًا ما عنّي، فأنا أشعر بضيق: الراجحُ أنّها تلك الصورة البصرية نفسها التي تلازمني -السحابة على الصحن الخزفيّ الأزرق الأملس.

قالت «م» ونحن نرقى الدرج العريض العاتم: أحبّها هذه العجوز.

-لمَ؟

-لا أعرف، ربّما بسبب فمها، ربّما بلا سبب، أحبّها هكذا بكلّ بساطة.

هززت كتفي، أمّا هي فأردفت، وهي تبتسم ابتسامة طفيفة، ربّما لم تكن تبتسم إطلاقًا.

-أشعر أنّي مخطئة جدًّا ، واضح أنّه ينبغي ألّا يكون هناك «حبّ هكذا ببساطة»، بل أن يكون «حبّ لأنّ». العناصر كلّها في الطبيعة يجب أن ..

-واضح ... قلتُ وأمسكتُ، فقد فطنتُ إلى كلمة «واضح» هذه.

اختلستُ نظرة إلى «م»: تُرى، هل لاحظتْ أم لا؟

لكنّها كانت ترنو إلى مكان ما في الأسفل، كانت عيناها مُسدلتين كالستائر.

وتذكّرتُ فجأة: مساءً، حوالي الساعة 22، كنت أمرّ في الشارع، وبين الحجرات الشفّافة المضاءة بنور ساطع، كانت هناك حجرات عاتمة، ذات ستائر مسدلة، وهناك خلف الستائر .. ماذا عندها هناك خلف الستائر؟ لماذا هتفتْ لي اليوم، عمومًا، لم هذا كلّه؟

فتحتُ بابًا ثقيلًا غير شفّاف، ذا صرير؛ فإذا نحن في بناء عاتم غير مرتّب (هذا ما كانوا يُسمّونه «شقّة»). هنا تلك الآلة الموسيقية «الملكية» الغريبة ذاتُها، وتلك الموسيقي الوحشية، الفوضوية، المجنونة كموسيقى تلكم الأيام ذاتِها، واختلاطُ ألوان وأشكال. سطح مستوٍ في الأعلى، جدران زرقٌ داكنة، أغلفة كُتب قديمة حمرٌ وخضر وبرتقاليّة، وبرونز أصفر- شمعدانات وتمثال بوذا، وخطوط أثاثٍ شوّهها الصرع ومسخها، لا تنتظمُ في أيّة معادلات.

لم أحتمل هذه الفوضى إلّا مُكرهًا، أمّا رفيقتي فكانت ذات بِنية أقوى من بِنيتي فيما يبدو لي.

-بالنسبة إليّ هذه أحَبُّ .. -كأنها فطنتْ فجأةً إلى شيء ما (بانتْ منها الابتسامةُ اللسعةُ، وأسنانها البيض الحادّة)، فأردفتْ:

-على وجه دقيق، هذه أسخف «شققهم» كلّها.

-أو بشكل أدقّ: دولهم، - قلتُ مصحّحًا؛ آلاف الدول المتناهية الصغر، المتحاربة دومًا، العديمة الشفقة، مثل ...

-واضح طبعًا ...، - قالت «م» بجدّية بالغة كما بدا.

اجتزنا غرفةً توجدُ فيها أسرّة صغيرة للأطفال (كان الأطفال في ذلك العهد ممتلكات خاصّة كذلك). وطالعتنا من جديد غرف، وبصيص مرايا، وخزانات متجهّمة، ودواوين مختلفة الألوان بشكل لا يُطاق، ومدفأة هائلة الحجم، وسرير كبير من الخشب الأحمر. أمّا زجاجنا الحالي، الرائع، الشفّاف، الخالد، فكان على شكل نوافذ مربّعة، بائسة وهشّة.

-وتصوّر: هنا كانوا «يحبّون هكذا ببساطة»، ويحترقون، ويتعذّبون: (ستارة العينين المسدلة من جديد). يا له من هدر سخيف، غير متبصّر للطاقة الإنسانية، أليس كذلك؟

كانت تتكلّم كأنّها من داخلي، كانت تترجمُ أفكاري. لكن كان في ابتسامتها دائمًا ذلك الأمز المجهول، المثير للحنق. وكان هناك، وراء الستائر، في داخلها، شيء ما لا أعرفُ كُنْهَهُ يعتمل فيها، يضيق به صدري، كنتُ أودّ لو أناقشها، لو أصرخ في وجهها (هكذا تمامًا)، لكنّي كنت أجد نفسي مضطرًا إلى موافقتها، فعدم موافقتها كان أمرًا مستحيلًا.

وها نحن هؤلاء نتوقّف أمام مرآة. في هذه اللحظة لم أكن أرى غير عينيها. خطرت لي فكرة: الإنسان مصنوع بشكلٍ وحشيّ كهذه «الشقق»، الرؤوس الإنسانية غير شفّافة، ليس فيها إلّا نوافذ صغيرة في الداخل -العيون. وكأنّها حزرتْ فالتفتتْ. «ها هما عيناي وماذا؟» (هذا طبعًا من دون أن تتفوّه بكلمة).

أمامي نافذتان عاتمتان بشكل فظيع، وفي الداخل حياة مجهولة، غريبة. لم أكن أرى سوى النارِ -كان «موقدُها» هي يشتعل- وأشكالِ

مُبهمة شبيهة ...

كان هذا أمرًا طبيعيًّا: فقد رأيت انعكاس ذاتي هناك. لكنّ الأمر غير الطبيعيّ، الغريب عليّ (يبدو أنّ هذا كلّه كان من تأثير الحالة الـمُكربة التي وجدتُ نفسي عليها) أنّني أحسستُ حقيقة أنّي رجل مقبوض عليه، مُلقَى في هذا القفص الوحشيّ، شعرت بأنّي أُخذتُ عنوة في تيّار الحياة القديمة الوحشيّ.

-هيّا، -قالت «م»- تعالَ دقيقةً إلى الغرفة المجاورة.

كان صوتها يتهدّلُ من هناك، من الداخل، من وراء العينين النافذتين العاتمتين، حيثُ كان الموقد يضطرم.

مضيت إلى الغرفة المجاورة، وجلست. من رفٍّ في الحائط كان وجه غير متناسق، أفطس الأنف لأحد الشعراء الأقدمين، يبدو أنّه «بوشكين»، يبتسم في وجهي مباشرة ابتسامة لا تكادُ تُلحظ. ما لي أجلس هنا هكذا، وما لي أتحمّل بإذعان هذه الابتسامة؟ وعلام هذا كلّه: وجودي هنا، وهذه الحالة السخيفة؟ هذه المرأة المنفّرة، المثيرة الغيظ، وهذه اللعبة الغريبة ..

هناك، اصطكّ باب الخزانة وهسهس حرير، وتمالكتُ نفسي بجهد كبير كي لا أمضي إلى هناك و .. لا أذكرُ تمامًا: كنتُ أغالبُ نفسي في أن أقول لها كلمات جارحة.

لكنّها خرجتْ إليّ. كانت ترتدي ثوبًا قديمًا قصيرًا أصفرَ فاقع اللون، وقبّعة سوداء، وجوربين أسودين. الثوب من الحرير الشفيف، وكنت أرى بوضوح: الجوربان طويلان جدًّا، أعلى من الركبتين، والجِيد منها مكشوفٌ، وظلّ بُنّيٌّ ..

-واضح، قاطعتني «م»، - أن يكون أحدُنا أصيلًا معناه أنّه يتميّز من الآخرين، يختلفُ عنهم. وتاليًا، أن يكون أحدُنا أصيلًا، فذلك يعني الإخلال بالمساواة. وما كان يُسمّى في لغة الأقدمين البُلهاء (التبذّل)، يعني عندنا اليوم أداء الواجب لا غير. لأنّ ..

لم أعد أتمالك نفسي:

-نعم، نعم، نعم! هو ذا تمامًا، وليس لكِ، ليس لكِ ..

اقتربت من تمثال الشاعر الأفطس، وقالت بجدّية متناهية كما بدا لي (ربّما لتُليّن قلبي) بعد أن أسدلت الستارة على نار العينين الوحشيّتين هناك، في الداخل، وراء نافذتيها، قالت شيئًا يتقبَّلُه العقلُ تمامًا:

-ألا تراه أمرًا عجبًا أنّ الناس كانوا يتحمّلون في وقتٍ ما أمثال هذا؟ ولم يكونوا يتحمّلونهم وحسب، بل كانوا يجلّونهم. يا لها من روح تغمرها العبودية! أليس كذلك؟

-واضح .. يعني أريد أن .. (هذه اللعينة «واضح»)!

-بلى، أفهمك طبعًا. لكنّ حقيقة الأمر تكمنُ في أنّ هؤلاء الأسياد كانوا أقوى من ملوكهم المتوّجين؛ فلماذا لم يعزلوهم، لم يبيدوهم؟ عندنا ..

-أجل، عندنا ... ما إن بدأتُ حتى انفجرتْ ضاحكةً فجأةً. بعينيّ وحسب، رأيت هذا الضحك: رأيت الخطّ المنحني الرنّان، الشديد الانحدار، اللدِن كالسَوط لهذا الضحك.

أذكر أنّي أخذتُ أرتجفُ بكِياني كلّه. لو أُمسك بها وَ .. وماذا؟ لست أدري.. إنّما كان يجب أن أفعل شيئًا، أيّ شيء. فتحتُ النَوط الذهبي،

ونظرتُ إلى الساعة تلقائيًا. كانت السابعة عشرة إلا عشر دقائق.

-ألا ترين أنّه آن الأوان؟ - قلتُ لها بقدرِ ما أوتيت من تهذيب.

-وإذا طلبتُ منك أن تبقى معي هنا؟

-اسمعي: هل تعنين ما تقولين؟ عليّ أن أكون في القاعة بعد عشر دقائق.

- .. والأرقام كلّها ملزمة بحضور المحاضرات المقرّرة في الفنّ والعلوم. -قالتْ بصوتي ثم سحبَت الستارة.

رفعتْ عينيها: عبر النافذتين المظلمتين، كان الموقد يستعر.

-أعرف أحدهم في المكتب الطبيّ هناك. إنّه مسجّل عليّ، وسيعطيك تقريرًا طبيًّا إذا طلبتُ منه. ما رأيك؟

فهمتُ. أخيرًا فهمت ما كانت ترمي إليه هذه اللعبة كلّها.

-هكذا إذن! ألا تدرين أنّه عليّ في حقيقة الأمر، كأيّ رقم شريف، التوجّه فورًا إلى مكتب الحرّاس و ..

-ليس في حقيقة الأمر (الابتسامة اللسعة الحادّة). أشعر بفضول فظيع! هل ستذهبُ إلى هناك أم لا؟

-تنوين البقاء هنا؟ ... أمسكتُ أكرة الباب. كانت الأكرة نحاسية، وسمعتُ صوتي: كان نحاسيًّا مثلها!

-دقيقة .. هل يمكن؟

دنت من الهاتف. ذكرتْ رقمًا، لكنّني كنتُ على قدرٍ من الاضطراب،

فلم أحفظه. وهتفتْ:

-سأنتظرك في البيت القديم. نعم، نعم، وحدي ..

أدرتُ الأكرة النحاسية الباردة:

-هل تسمحين لي بالمنطاد؟

-طبعًا، طبعًا! تفضّل ..

هناك، في الشمس عند المدخل، كانت العجوز تغفو مثل نبتة. مرّة أخرى، كان أمرًا عجبًا أن ينفرج فمُها المطبق بإحكام، وأن تقول:

-وتلك، رفيقتك، أبقِيَتْ هناك وحدها؟

-وحدها.

انطبق فم العجوز ثانية، وهزّت رأسها. الراجحُ، أنّه حتى نخاعها الآخذ في الضعف، كان يدرك كلّ ما في سلوك هذه المرأة من سخفٍ وتهوّر.

في الساعة 17 تمامًا كنت في المحاضرة. وهنا أدركتُ، لسبب ما، فجأة، أنّي لم أقل الحقيقة للعجوز: «م» لم تكن وحدها الآن هناك. لقد خدعت العجوز من دون قصد، وقد يكونُ هذا ما يعذّبني إلى هذا الحدّ ويمنعني من الاستماع. أجل، ليست وحدها: هذا هو لُبّ الموضوع.

بعد الساعة 21:30 كنتُ أحظى بساعة فراغ. كان يمكنني الذهاب اليوم إلى مكتب الحرّاس وأقدّم بلاغًا. لكنّني كنتُ في غاية الإعياء بعد هذه القصّة الغبية .. ثمّ إنّ الفترة القانونية للبلاغات، يومان. أمامي مُتّسع من الوقت لأفعل هذا غدًا، أمامي أربع وعشرون ساعة كاملة.

المذكّرة السابعة

الملخّص:

شعرة الهدب. «تيلور». السيكران والسوسن.

ليل. أخضر، برتقاليّ، أزرق، آلة ملكية حمراء، ثوب أصفر كالبرتقال. ثمّ بوذا نحاسي. وفجأة يرفع بوذا جفنيه النحاسيّن ويسيل منهما عصير. ومن الثوب الأصفر عصير، وعلى المرآة قطراتُ عصير، والسرير الكبير يرشح عصيرًا وأسرّةُ الأطفال، والآن أنا نفسي، ورعبٌ لذيذ قاتل ..

صحوت: ضوءٌ معتدل ضارب إلى الزرقة. زجاج الجدران والأرائك الزجاجية والطاولة الزجاجية تلمع كلّها. هدّأ هذا من رَوعي، كما أنّه كفّ قلبي عن الخفقان العنيف. عصير. بوذا .. ما هذا العبث؟ واضح أنّي مريضٍ. قبل هذا، لم أرَ أحلامًا قطّ. يقال: إنّ رؤية الأحلام كانت أمرًا مألوفًا عند الأقدمين. طبعًا، فحياتُهم كلّها كانت أرجوحة دوّارة مرعبة: أخضر، برتقاليّ، بوذا، عصير. لكنّنا نحن نعرف أنّ الأحلامَ مرضٌ نفسي خطير. وأنا أعرف أنّ دماغي كان حتى الآن جهازًا ميكانيكيًا مضبوطًا بعنايةٍ مُتناهية، ولامعًا إذ لا شائبة فيه، أمّا الآن .. نعم، الآن تحديدًا، ها أنذا أشعرُ في الدماغ هناك بجسمٍ غريب،كأنّما هو شعرة هدب دقيقة جدًّا في العين: أنت تشعر بذاتك كلّها، أمّا تلك العين ذات الشعرة، فيستحيل عليك نسيانها لو ثانيةً واحدةً.

الجرس البلّوري الصغير النشط عند رأس السرير: الساعة السابعة،

نهوض. من خلال الجدران الزجاجية عن يميني وشِمالي ألمحُ نفسي، غرفتي. حركاتي كأنّما هي مكرّرة ألف مرّة ومرّة. وهذا ما يبعث فيك النشاط؛ فأنت ترى نفسك جزءًا من كلّ واحدٍ ضخم جبّار. وأيّ جمال دقيق: لا حركة زائدة ولا ثنية ولا انحناء!

أجل، «تيْلور» هذا كان من أنبغ الأقدمين بلا شكّ في ذلك. صحيحٌ أنّه ما فطن إلى تعميم طريقته في الحياة كلّها، في كلّ خطوة، في يوم تامٍّ، لم يتمكّن من تطبيق نظامه على اليوم من ساعته الأولى حتى الرابعة والعشرين، ومع هذا كيف استطاعوا أن يكتبوا ما يملأ مكتبات كاملة من رجال نكرة، مثل: «كانط»، وكادوا ألّا يلحظوا «تيلور»؟ هذا النبيّ الذي استطاع أن يستشرفَ في زمنه أبعدَ من عشرة قرون.

انتهى الفطور. أُنشد نشيد الدولة الواحدة بانسجام، وبانسجام، بانتظام، أربعة أربعة إلى المصاعد. أزيز المحرّكات لا يكادُ يُسمع -وبسرعة نحو أسفل، أسفل، أسفل: انكماشٌ خفيف في القلب ..

وهنا فجأة، لأمرٍ لا أعرفه، هذا الحلم السخيف مرّة أخرى، أو تابعٌ غير ظاهر لهذا الحلم. آه، بلى، البارحة كذلك في المنطاد -الهبوط نحو أسفل. وعلى أيّة حال، انتهى هذا كلّه تمامًا. وأحسِن بي أنّني كنت معها حازمًا وعنيفًا على ذاكَ الشكل!

كنت أنطلق في عربة الأنفاق إلى حيثُ جسمُ «التكامل» الرشيق الذي لا يزال جامدًا.لم تبعث النارُ فيه الحياةَ بعد، يلمع فوق قاعدته تحت أشعّة الشمس. أغمضت عينيّ، وأخذت أحلم بواسطة الصيغ: حسبت في ذهني مرّة أخرى كم يجب أن تكون السرعة الأوّلية كي ينسلخ «التكامل» عن الأرض. ففي كلّ ذرّة من الثانية، تتحوّل كتلة «التكامل» وتتغيّر (يُستهلك الوقود التفجيريّ). كانت المعادلة التي

انتهيت إليها مُعقّدة جدًّا، ذات قيم متصاعدة.

وكما في الحلم: هنا، في عالم الأعداد الصلب، جلس شخص ما إلى جانبي، دفعني برفق، قال: عفوًا.

فتحت عينيّ قليلًا، وأوّل ما وقع عليه بصري (كان هذا تداعيًا عن طريق «التكامل») على شيء يندفع في الفضاء، كان رأسًا، وكان يندفع لأنّ على جانبيه أذنين جناحين ورديّين منتفخين، ومن ثَمّ خطّ منحنٍ لقِدالٍ متدلّ -ظهرٌ محدودب، شيء مُنحنٍ مرّتين، حرف S.

من خلال جدران عالمي الجبريّ الزجاجيّ، شعرةُ الهدب من جديد، أمرٌ مُزعجٌ أنّه عليّ اليوم أن ..

-بسيطة، بسيطة، أهلًا، ابتسمتُ لجاري متبادلًا معه التحيّة. لمع على نوطه S" - 4711» (أضحى معلومًا لماذا ارتبط منذ اللحظة الأولى بالنسبة إليّ بحرف S. كان هذا انطباعًا بصريًّا لم يسجّله الوعي).

ولمعت عينان -مثقبان حادّان -وهما تدوران بسرعة وتنغرزان أعمق فأعمق، ها هما ستخترقانني عمّا قليل حتى أعمق الأعماق، وتريان حتى ما أنا نفسي لا ...

فجأة، شعرةُ الهدب صارت واضحة لي تمامًا: إنّه واحد منهم، من الحرّاس. وأبسط شيء أن أقول له الآن كلّ شيء من دون أيّ تأخير.

-البارحة .. يعني، كنت في البيت القديم ..،كان صوتي غريبًا، مسطّحًا، مفلطحًا، حاولت أن أتنحنح.

-وماذا، شيء ممتاز. إنه يوفّر مادّة لاستنتاجات مفيدة جدًّا.

-لكن، كما لا بدّ من أن تفهم، لم أكن وحدي، صحبتُ الرقم «م

-330»، وها أنا ذا ..

-«م -330»؟ أغبطك. امرأة مثيرة للاهتمام جدًا، امرأة موهوبة. لديها كثيرون من عارفي قدرها.

.. لكن هو آنذاك، كان في النزهة كذلك، قد يكون هو مسجّل على اسمها كذلك؟ لا، التلميح له بهذا غير وارد، غير معقول: الأمر واضح.

أجل، أجل! وكيف لا، كيف لا! كثيرُون جدًا، - كانت ابتسامتي تتّسع وتزداد سخفًا، وكنتُ أشعرُ بسبب هذه الابتسامة أنّني عارٍ، غبي ..

بلغ المثقّبان أعمق أعماقي، ثمّ انقلبا يدوران بسرعة وينغرزان في عينيّ؛ ابتسم S ابتسامة مزدوجة، وأومأ لي، ثمّ انسلّ خارجًا.

غطّيتُ وجهي بجريدة، (إذ بدا لي أنّ جميعهم ينظرون إليّ) ونسيتُ فورًا شعرةَ الهدب والمثقّبين وكلّ شيء لشدّة ما أثارني ما قرأته. سطر واحدٌ قصير: «حسب مصادر موثوقة، تمّ من جديد العثور على آثار تنظيم طليق حتى الآن، هدفه التحرّر من نير الدولة الخيّر».

«التحرّر»؟ شيء مذهلٌ فعلًا هو مدى حيويّة تلك الغرائز الإجرامية في السلالة البشرية. أقول «إجرامية» عن وعي. فالحرّية والجريمة مرتبطتان فيما بينهما ارتباطًا وثيقًا أكيدًا .. ولنقل كارتباط حركة المنطاد وسرعته: سرعة المنطاد = 0 فهو لا يتحرّك، حرّية الإنسان = 0 فهو لا يقترف جريمة. هذا واضح. والوسيلة الوحيدة لإنقاذ الإنسان من الجريمة هي في إنقاذه من الحرّية. وها نحن هؤلاء ما كدنا نتخلّص من هذا (بالمقياس الكوني: القرونُ تتساوى بالطبع «ما كدنا») حتى ظهر

فجأة أناسٌ متخلّفون بائسون ..

لا، أنا لا أفهم: لماذا لم أتوجّه فورًا، أمس تحديدًا، إلى مكتب الحرّاس. اليوم بعد الساعة 16 سأذهب إلى هناك حتمًا.

في الساعة 16:10 خرجت، فورًا رأيت «ف» عند الناصية، وكلّها في دهشة وردية من هذا اللقاء. (إنّها ذات عقل بسيط مدوّر. وهذا مناسب، فهي ستفهمني وتؤيّدني ..). على أيّة حال لا، لست محتاجًا إلى تأييد، فقد اتّخذتُ قرارًا لا رجوع فيه.

كانت أبواق المصنع الموسيقيّ تصدح المارش بانسجام -المارش اليوميّ ذاته، لكنْ، أيّ سحر هذا الذي لا يُدرك في هذه اليومية، في هذه التكرارية، في هذه الزجاجية؟!

أمسكتني «ف» من يدي.

-لنتنزّه، عيناها الزرقاوان المدوّرتان مفتوحتان لي على اتّساعهما، نافذتان زرقاوان مفتوحتان على الداخل، وأنا أنفذ إلى الداخل من دون أن أتعثّر بشيء: لا شيء في الداخل، أي لا شيء جانبي، غير ضروري.

-لا، لن نتنزّه. فأنا عليّ أن.. -قلتُ لها: إلى أين؟ ولدهشتي رأيتُ دائرة الفم الوردية تأخذ شكل هلالٍ ورديّ، قرناه إلى أسفل -كأنّما بتأثير سائل حامض. انفجرتُ.

-أنتنّ، أيّتها الأرقام النسائية، يبدو أنّكنّ منخورات نخرًا لا شفاء منه بالخرافات. لا تستطعن التفكير المجرّد. اعذريني، لكن، هذه بَلادة لا أكثر.

-أنت ذاهبٌ إلى الجواسيس.. -تفو! وأنا التي جئتك من متحف

النبات بغصن سوسن ..

-لماذا «وأنا التي»، لماذا «و» هذه! طريقة نسائية خالصة! -خطفت سوسناتها بغيظ (أعترف بهذا). خذي سوسنك! تنشّقيه. إنّه جيّد، أليس كذلك؟ فليكن عندك قدرٌ، ولو كان ضئيلًا، من المنطق. السوسن ذو رائحة جيّدة، هذا صحيح. لكن هل تستطيعين أن تقولي كلمةً واحدةً عن الرائحة، عن مفهوم الرائحة فيما لو كان زكيًا أو غير زكيّ؟ هل تستطيعين، آ؟ هناك رائحة السوسن وهناك رائحة السيكران الكريهة، وكلتاهما رائحة. كان هناك جواسيس في الدولة القديمة، وعندنا الآن جواسيس، فأنا لا أخشى الجهر بهذه الكلمة. لكنّه واضحٌ الوضوح كلّه، مع هذا: هناك الجاسوسُ هو السيكران، وهنا الجاسوس هو السوسن. أجل، السوسن، السوسن!.

كان الهلال الورديّ يرتعش .. الآن أدركتُ تمامًا أنّ هذا بدا لي وحسب، أمّا آنذاك فقد كنت واثقًا أنها ستضحك، فصرخت بصوت أعلى:

-أجل، السوسن. وليس في هذا شيء مضحك، أيّ شيء مضحك.

كانت كرات الرؤوس المدوّرة الملس تسبح حذونا وتتلفّت. أخذتني «ف» برقّة من يدي:

-غريب أنت اليوم .. ألست مريضًا؟

الحلم، الأصفر، بوذا .. ومن الفور، اتّضحَ لي أنّ عليّ المضيّ فورًا إلى المكتب الطبّيّ.

-بلى، أنا مريض فعلًا، - قلت لها بسرور بالغ (هنا تناقض لا يمكن تفسيره أبدًا، فلم يكن هناك ما يدعو إلى السرور إطلاقًا).

-عليك إذن الذهاب إلى الطبيب فورًا. فأنت تعرف أنّك ملزم بأن تكون صحيحًا معافًى، ومن المضحك أن أبرهن لك ذلك.

-طبعًا أيّتها العزيزة «ف»، طبعًا أنت على حقّ. أنت على حقّ مطلق!

لم أذهب إلى مكتب الحرّاس: لم يكن هناك حيلة في اليد، اضطُررت إلى الذهاب إلى المكتب الطبي، وهناك احتُجزتُ حتى الساعة 17.

في المساء (هناك، مغلقٌ في المساء على أية حال) -في المساء جاءتني «ف»، ولم تكن الستائر مسدلة. حللنا مسائل من كتاب مسائل قديم: إنّه عمل يُهدّئ الأفكار ويجلوها. كانت «ف -90» تنكبّ على دفتر وهي تميل رأسها على كتفها الأيسر، وتسند بفعل الجهد الذي تبذله خدّها الأيسر بلسانها من الداخل. كان هذا طفليًّا وساحرًا إلى حدٍّ بعيد، وكان كلّ شيء في داخلي جيدًا، دقيقًا وبسيطًا إلى حدٍّ بعيد ..

ذهبت .. بقيت وحدي .. تنهّدت تنهيدتَين عميقتَين (هذا مفيد جدًا قبل النوم). فجأة، رائحة غير متوقّعة ثمّ ذكرى شيءٍ ما غير مريح إطلاقًا .. وسرعان ما وجدتُ: غصن سوسن مخبوء في سريري. اهتاج كلّ شيء في داخلي من الفور في لحظة، وصعد من القاع. لا، هذا، بكل بساطة، تصرّفٌ غير لائق منها أن تدسّ لي هذه السوسنات. أجل، لم أذهب، هذا صحيح، لكن ليس ذنبي أنّي مريض.

*****

المذكّرة الثامنة

الملخّص:

الجذر الأصمّ. ر -١٣. المثلّث.

كان هذا منذ أمد بعيد، في أثناء سنوات الدراسة حين أصبت بـ -1√. لا زلت أذكر بشكل واضح عميق القاعة الكروية المضيئة، ومئات رؤوس الأطفال الكروية، وأستاذ الرياضيات «بليابا». نحن لقّبناه «بليابا»: كان بنصف عمر، مفكّكًا، وحين كان المناوب يضع المأخذ في مؤخّرته، كان يصدر من مكبّر الصوت في البداية (بليا -بليا -بليا -تشش) وبعدها يبدأ الدرس. ذات مرّة حدّثنا «بليابا» عن الأعداد الصمّ. أذكر أنّي أخذت أبكي وأضرب الطاولة بقبضتي، وأصرخ: (لا أريد -1√! أخرجوني من -1√!). هذا الجذر الأصمّ دخل كِياني كشيء غريب، مخيف، كان يلتهمني إذ كان يستحيل إدراك كنهه، رفعُ ضرره لأنّه كان خارج حدود العقل.

وها أنا ذا أمام -1√ 1 من جديد. راجعت مذكّراتي وبات واضحًا لي أنّي كنت أخادع نفسي، كنت أكذب على نفسي لغاية واحدة -كي لا أرى -1√. أمّا أنّي مريض وما إلى ذلك، فهذه أمور لا معنى لها. كان باستطاعتي أن أذهب إلى هناك، منذ أسبوع، وأعرف ذلك، كنت على استعداد لأن أذهب إلى هناك بِلا تردّد. فلماذا الآن .. لماذا؟

في هذا اليوم كذلك، في الساعة 16:10 كنت أقفُ أمام الجدار الزجاجي اللامع، وفوقي البريق الذهبيّ الشمسيّ الصافي للحروف

على لوحة المكتب. عميقًا، عبر الزجاج طابورٌ طويل من الألبسة الموحّدة الزرق، ووجوه ترسل نورًا باهتًا مثل قناديل في كنيسة قديمة: لقد جاؤوا إلى هنا لأداء عمل جليل، جاؤوا يُسلّمون مذبح الدولة الواحدة أحبّاءهم، أصدقاءهم، ذواتهم. فأنا، أنا كنت أحاول الاندفاع إليهم ومعهم. لكن عبثًا، فقد التحمت قدماي التحامًا وثيقًا وعميقًا بالبلاطات الزجاجية. كنت أقف وأنظر ببلادة، من غير قدرةٍ منّي على أن أبرح المكان ..

-إيه، أيّها الرياضي، أين شردت بأفكارك؟

ارتعدتُ. عينان سوداوان مطليّتان بالضحك مُصوّبتان إليّ، وشفتان زنجيّتان غليظتان. إنّه صديقي القديم، الشاعر «ر-13» ومعه «ف» الوردية.

التفتُّ مستاءً (أظنّ أنّهما لو لم يعيقاني لكنت انتُزعت في نهاية الأمر من ذاتي -1√ مع قطعة من لحمي، ودخلتُ المكتب).

-لم أكن شارد الفكر، لكن، إذا أردتم الحقيقة، كنت أملّي ناظري، - أجبتُ بشيء من الحدّة.

-ظاهر، ظاهر! كان الأجدر بك، أيّها العزيز، أن تكون شاعرًا لا رياضيًا. هيّا تعالَ إلينا في مصافّ الشعراء، أ؟ سأرتّب الأمر في لحظة إذا شئت، أ؟

كان «ر-13» يتكلّم وهو يغصّ، كانت كلماته تتدفّق، ومن شفتيه الغليظتين يتطاير الرذاذ: كلّ حرف «باء» يلفظه نافورةً.

-كنت وسأظلّ أخدم المعرفة، - قلتُ عابسًا، فأنا لا أحبّ المزاح ولا أفهمه، أما «ر-13» فكانت عنده عادة المزاح السيّئة هذه.

-أيّة معرفة تتكلّم فيها! معرفتكم هذه هي الجبن عينه. وهذه هي الحقيقة، إنّكم، ببساطة، تريدون أن تحيطوا اللامتناهي بجدار، وتخشون النظر إلى ما وراء الجدار. هيّا انظروا وستغضّون أبصاركم انبهاراً! بلى!.

-الجدران هي أساس كلّ شيء إنسانيّ .. بدأتُ كلامي وتوقّفت.

تناثر الرذاذ حول «ر» كما من نافورة. ضحكت «ف» ضحكة وردية مدوّرة. طوّحتُ بيدي: اضحكا، الأمر سواء، فليس هذا ما يشغلني. كان عليّ أن أنتّف، أن أخمد بأيّ شيء كان $\sqrt{-1}$ اللعينة.

واقترحتُ: ما قولكم في أن نذهب إلى بيتي، ونجلس هناك نحلّ مسائل (خطرتْ على بالي ساعة أمس الهادئة، فلعلّه تكون لنا مثل هذه الساعة اليوم).

نظرت «ف» إلى «ر»، ثمّ نظرتْ إليّ نظرة واضحة مدوّرة، واصطبغت وجنتاها قليلًا بلون قسائمنا اللطيف المثير ..

-لكن اليوم .. اليوم عندي قسيمة على اسمه، وأومأت برأسها إلى «ر»، لكنّه مشغولٌ مساءً .. وهكذا ..

خفقت الشفتان المبلّلتان المطليّتان في طيبة:

-لا مشكلة، نصف ساعة تكفينا. أليس كذلك يا «ف»؟ أمّا مسائلك، فلستُ من هواتها. فلنذهب إلى بيتنا ولنجلس قليلًا.

كان أمرًا فظيعًا بالنسبة إليّ أن أبقى وحيدًا مع نفسي، بوجهٍ أدقّ مع هذا الجديد، الغريب عليّ، الذي يحمل كأنّما مصادفة وحدها رقمي «د -503». ومضيت إلى «ر». والحقيقة أنّ «ر» غير دقيق، غير إيقاعي، ذو منطق معوجّ: مضحك إلى حدٍّ ما. ومع هذا فنحن صديقان. وليس عبثًا

أنّنا نحن الاثنين اخترنا معًا منذ ثلاث سنوات مضت، «ف» الوردية اللطيفة هذه. وهذا ما كان يشدّ كلًّا منّا إلى الآخر، أكثر ممّا كانت تشدّنا سنوات الدراسة.

وبعد ذلك في غرفة «ر». كلّ شيء فيها كما في غرفتي تمامًا: اللوح، زجاج الأرائك، والطاولة، والخزانة، والسرير. لكنّه ما إن دخل حتى دفع أريكة وثانية، فتحوّلت السطوح عن مكانها، وخرج كلّ شيء عن قياسه المقرّر، صار غير إقليدسيّ. هو هو لم يتغيّر. حسب نظرية «تيلور» والرياضيات كان يسير دائمًا في المؤخّرة.

استعدنا ذكرياتنا عن «بليابا» القديم: كيف كنّا نحن الأطفال نلصق قوائمه الزجاجية كلّها بقصاصات الشكر، والعرفان بالجميل (كنّا نحب «بليابا» حُبًّا جمًّا). وتذكّرنا معلّم القانون[1]. كان معلّم القانون عندنا ذا صوت جهْوري بشكل غير اعتيادي كأنّما الريح تنفخ من مكبّر صوت، بينما كنّا - نحن الأطفال - نزعق بعده النصوص بملء أصواتنا، وتذكّرنا كيف حشا «ر -13» المتهوّر ذات مرّة بوق المكبّر بورقٍ ممضوغ: كلّ نصّ تقابله طلقة من الورق الممضوغ. بداهةً، عُوقب «ر» طبعًا، فما فعَله كان أمرًا كريهًا. لكنّنا الآن نقهقه، مثلّثنا كلّه يقهقه، أعترف: أنا كذلك كنت أقهقه.

-وماذا لو كان فعلًا حيًّا كالأقدمين؟ - خرج حرف (ب) نافورة رذاذ من الشفتين الغليظتين الخافقتين.

الشمس تنسكب من خلال السقف والجدران؛ الشمس تنسكب من فوق، من الجانبين، تنعكس من أسفل. «ف» على ركبتيّ «ر-13»،

---

(١) المقصود هنا طبعًا ليس (ناموس) الأقدمين (الإلهي) بل نواميس الدولة الواحدة.

وقطرات صغيرة من الشمس في العينين الزرقاوين: أحسست بدفء، تنحّيت قليلًا؛ خفت صوت -1√، لم يعدْ يتحرّك ..

-وكيف حال «تكاملكم»؟ هل سنطير لنضيءَ سكّان الكواكب الأخرى قريبًا، أ؟ هيّا، هيّا، حثّوا الخطى. وإلّا سنكتب لكم - نحن الشعراء - ما لن يقوى «تكاملكم» على حمله والتحليق به. فنحن في كلّ يوم من الساعة الثامنة حتى الحادية عشرة...، هزّ «ر» رأسه وهرش قذاله. قذاله أشبه بحقيبة سفر ذات أربع زوايا مربوطة من الخلف (تذكّرتُ اللوحة القديمة «في العربة»).

دبّت الحيوية في أنحاء جسمي:

-وأنت كذلك تكتب «للتكامل»؟ هيّا، قل لي: عن أيّ شيء تكتب؟ اليوم مثلًا.

-اليوم لم أكتب شيئًا. كنت مُنشغلًا بشيء آخر... تطاير رذاذه صوبَ وجهي مباشرة.

-ما هو هذا الشيء؟

قطّب حاجبيه:

-ما هو، ما هو! الحُكم، إذا شئت. كنت أنظم الحكم شعرًا. واحدٌ أبله، من شعرائنا. سنتان إلى جانبنا، يخالطنا وكأنّ كلّ شيء على ما هو عليه. وفجأة يباغتك: أنا عبقري، والعبقري فوق القانون». وراح يهرف بأشياء .. آه!

كانت الشفتان الغليظتان تتدلّيان، والطلاء في العينين قد تآكل. هبَّ «ر»، استدار، حملق في مكان ما عبر الجدار. كنت أنظر إلى حقيبته

المغلقة بإحكام، وأقول في نفسي: ما الذي يقلّبه في حقيبته تلك؟

مرّت دقيقةٌ من صمتٍ محرج غير متناسق. لم يكن الأمر واضحًا، لكنْ ما الأمر!؟ حقّا، هناك شيءٌ ما.

قلت بصوتٍ تعمّدته مرتفعًا:

-لحسن الحظّ أنّ الأزمنة القديمة مضتْ، لأمثال «شكسبير» و «دوستويفسكي» وأقرانهم المحتملين، ولا أعرف ما يُقال عنهم!

التفت «ر». كانت الكلمات تنثال كعهدها، تسوط، إنّما بدا لي أنّه لم يعد هناك ذاك الطلاء البهيج في العينين.

-أجل، أيّها الرياضيّ العزيز، لحسن الحظ، لحسن الحظ، لحسن الحظ! نحن أسعد متوسّط حسابي. كما تقولون: إجراء عملية تكامل من الصفر إلى اللانهاية .. من الأبله إلى «شكسبير»، هكذا!

ولا أدري لماذا تذكّرت، كأنّما من دون مناسبة إطلاقًا، تلك، نبرة كلامها، وامتدّ خيطٌ جدُّ دقيقٍ بينها وبين «ر» (أيّ خيط؟). مرّة أخرى شرع -1√ يتململ، فتحت النوط: الدقيقة الخامسة والعشرون بعد السادسة عشرة. بقي لديها خمس وأربعون دقيقة على انتهاء مفعول القسيمة الوردية.

-آن لي أن أذهب، - قبّلتُ «ف»، وشددتُ على يد «ر»، ومضيت إلى ناحية المصعد.

التفتُّ، وأنا في الشارع أقطعه إلى الجهة المقابلة. كانت تلوح هنا وهناك في كتلة البيت الزجاجية المضيئة المخترقة كلّها بأشعّة الشمس المربّعات الزرق الضاربة إلى اللون الرمادي، وغير الشفّافة للستائر

المسدلة -مربّعات السعادة التيلورية الإيقاعية. بحثتْ عيناي عن غرفة «ر-13»: كانت الستائر قد أُسدلت فيها.

العزيزة «ف» .. العزيز «ر» .. إنّ فيه كذلك، (لا أدري ما الحاجةُ إلى «كذلك» هذه، لكن، فلأكتب ما يجري به قلمي) فيه كذلك شيءٌ ما غامض إلى حدّ ما بالنسبة إليّ. ومع هذا فأنا وهو و «ف» مثلّث، وليكن مثلّثًا غير متساوي الأضلاع، لكنّه مثلّث على أية حال. فنحن إذا عبرنا بلغة أجدادنا (ولعلّ هذه اللغة أقرب إلى أفهامكم يا قرّائي في الكواكب الأخرى) نحن أسرة. هكذا يحسن أن نرتاح قليلًا ولو فترة قصيرة، أن ننغلق على أنفسنا في مثلّث بسيط متين من دون كلّ ما ..

*****

المذكّرة التاسعة

الملخّص:

الشاعر. قصائد. اليد الحديدية.

نهار مهيب، مشرق. في يوم كهذا تنسى مواطن ضعفك وأشكال عدم دقّتك وأمراضك، فكلّ شيء ثابت كالبلّور، أبديٌّ كزجاجنا الجديد.

ساحة المكعّب. ستّ وستّون دائرة جبّارة ذات مركز واحد هي المدرّجات. وستّة وستّون صفًّا: قناديل الوجوه الهادئة، العيون التي تعكس بهاء السموات أو، ربّما، بهاء الدولة الواحدة. وأزهارٌ قانية كالدم، شفاه النساء. وجوهُ الأطفال التي تعلوها ضفائر طرية من الزهر في الصفوف الأمامية على مقربة من مكان الحدث، وصمتٌ قوطيّ عميق محكم.

إذا حكمنا من خلال الشواهد والأوصاف التي وصلتنا، فإنّ شيئًا ما من هذا القبيل كان يشعرُ به الأقدمون عند إقامتهم الشعائر الدينية، لكنّهم كانوا يقيمونها لإلهم؛ أمّا نحن فنقيمها لإله معقول ومعروف. إلهم لم يهبهم سوى ألوان البحث الدائم المضني. إلهم لم يتفتّق ذهنه عمّا هو أذكى من تقديم أحدهم نفسه ضحية لسبب لا يعرفه، أمّا نحن فنقدّم الضحيّة لإلهنا، الدولة الواحدة، ضحيّة هادئة، مدروسة، معقولة. أجل، كانت هذه إقامة شعائر مهيبة للدولة الواحدة، ذكرى الأيّام والأعوام الصليبية لحرب المئتي عام، وعيدًا جليلًا لانتصار كلّنا

على الواحد، المجموع على الفرد.

ها هو ذا أحدُهم، إنّه يقف على درجات المكعّب المغمور بالشمس. وجه زجاجي أبيض... لا، لونُه غير أبيض، بل صار الآن من دون لونٍ، وشفتان زجاجيّتان. الآن، لم تكن فيه حياة سوى عينيه، عينين سوداوين تمتصّان وتلتهمان الفراغات، وذلك العالمَ الفظيع الذي لم يعد يفصله عنه إلّا بضع دقائق. النَوط الذهبي الذي يحمل رقمه كان قد نُزع، وكانت يداه موثقتين بشريط أرجواني (إنّها عادة قديمة؛ وتفسيرها على ما يبدو لي أنّه حين كان يحدث هذا كلّه قديمًا - إنّما ليس باسم الدولة الواحدة - كان المحكومون يشعرون بحقّهم في المقاومة، ولهذا كانت أياديهم تكبّل عادةً بالسلاسل).

في الأعلى، على المكعّب قرب الآلة هيئة جامدة كأنّها هي مسكوبة من معدن لذاك الذي ندعوه المحسن. وجهه من هنا، من أسفل، لا يكاد يبين: ما يُرى منه هو أنّه محدّد بمرتسمات مربّعية صارمة وجليلة. لكنّ اليدين المبسوطتين في المقدّمة، كما يحدث أحيانًا في الصور الفوتوغرافية، تبدوان عن قرب كبير هائلتي الحجم، تشدّان إليهما النظر، وتحجبان ما عداهما. وهاتان اليدان الثقيلتان المبسوطتان بهدوء على الركبتين حتى الآن واضح أنّهما حجريتان، وأنّ الركبتين تكادان تنوءان بثقلهما..

فجأة، ارتفعت إحدى هاتين اليدين الضخمتين، ارتفعت في حركة بطيئة، حديدية، فخرج من المدرّجات منصاعًا لليد المرفوعة رقمٌ، وتقدّم من المكعّب. كان هذا واحدًا من شعراء الدولة الذين أسعدهم الحظّ بأن اختيروا ليتوّجوا العيد بأشعارهم. دوّت فوق المنصات الأبيات النحاسية الإلهية عن ذاك المجنون، ذي العينين الزجاجيتين الواقف هناك على الدرجات، ينتظر النتيجة المنطقية لأفعاله الجنونية.

... حريق. في أبيات الشعرِ التي كان يلقيها، كانت الأبيات تميد وتنفث إلى الأعلى ذهبًا سائلًا وتهوي. كانت الأشجار الخضر تتكرمش، ويسيل نسغها، فما هي إلّا صلبان سود فوق ضرائح. لكنّ ظهر «بروميثيوس» (و»بروميثيوس» هو نحن طبعًا):

«صبّ النار في الآلة، في الفولاذ.

وكبّل الفوضى بالقانون».

صار كلّ شيء جديدًا، فولاذيًا: شمس فولاذية، أشجار فولاذية، أناس فولاذيون، فجأةً، يظهر مجنون (فيطلق النار من عقالها) فيعود كلّ شيء إلى الهلاك من جديد.

ذاكرتي الشعرية سيّئة مع الأسف، لكنّني أذكر شيئًا واحدًا: كان يستحيل اختيار صُوَرٍ أكثر غنًى منها في جمالها وعِبرها.

ومن جديد صدرت حركة بطيئة، ثقيلة، فإذا على درجات المكعّب شاعر آخر. هببتُ ناهضًا قليلًا: هذا غير ممكنٍ! لكن لا، هاتان هما شفتاه الغليظتان الزنجيّتان، إنّه هو .. لماذا إذنْ لم يقل لي مسبقًا أنّه أوكلت إليه هذه الـمَهمّة الرفيعة .. كانت شفتاه رماديّتين، ترتعشان. إنّي أفهم هذا. فهو بين يديّ المحسن، وفي حضرة مصافّ الحرّاس .. ولكن أن يضطرب، مع هذا، على هذا النحو ..

وتردّدت من جديد أبياتٌ عنيفةٌ سريعةٌ كفأس حادّة تتحدّث عن جريمة لم يُسمع بمثلها من قبل: عن قصيدة تجديفية يُسمّى فيها المحسن .. لا، لا لساني يعجز عن ذكرها.

هبط «ر-13» درجات وجلس في مكانه شاحبَ الوجه لا ينظر إلى أحد (لم أتوقّع منه هذا الحياء أبدًا). ولجزءٍ من الثانية لاح إلى جانبه وجه

-مثلّث أسود حاد -وامّحى حالًا: كانت عيناي وآلاف العيون مصوّبة إلى هناك، في الأعلى، إلى الآلة. وهناك بدرتْ حركة حديدية ثالثة من اليد الحديدية غير الإنسانية، فإذا المجرم يمضي ببطء، كأنّما تؤرجحه ريح غير مرئية، درجةً فدرجة. ها هي ذي الخطوة الأخيرة في حياته، بعدها تمدّد في رقدته الأخيرة، ووجهه شاخص إلى السماء، ورأسه ملقًى إلى الوراء.

ثقيلًا، حجريًّا، كالقِدر، دار المحسن حول الآلة، ووضع على العتلة يده الضخمة.. لا نأمة ولا نفس، العيون كلّها مثبتة على هذه اليد. أيّ إعصار ناري، أيّ أمر أخّاذ هذا، أن تكون أداةً، أن تكون حصيلة مئات آلاف الفولتات. أيّ مصير عظيم هذا!

مرّت ثانية لا تخضع لقياس. انخفضت اليد وهي تدير التيار. لمعَ نصلُ شعاع حادّ بشكل لا يطاق. وسمعتْ فرقعة تكاد تلتقطها الأذن في أنابيب الآلة كأنّها رعشة. الجسم الممدّد لا يزال في غلالة رقيقة مشعّة، لكنّه ها هو ذا يذوب، يذوب، يتحلّل بسرعة مرعبة أمام أعيننا. ثمّ لا شيء: مجرّد بركة ماء مقطّر صار ذاك الذي كان قبل دقيقة يتدفّق في القلب عنيفًا أحمر. هذا كلّه كان بسيطًا، وكان كلٌّ منّا يعرف هذا كلّه: نعم، إنّه انحلال المادة، وانشطار ذرّات الجسم الإنساني. رغم هذا كان يبدو لنا في كلّ مرّة على أنّه معجزة، كان يبدو لنا كآيةٍ على قدرة المحسن غير البشرية.

في الأعلى أمامه، أمام المحسن، وجوه متوهّجة لعشرة أرقام نسائية، وشفاه نصف مفتوحة من الاضطراب وأزهارٌ تهزّها الريح[1].

---

(١) الأزهار من متحف النباتات طبعًا. أنا لا أرى في الأزهار كما في كلّ ما يتّصل بالعالم المتوحّش الذي أبعد خارج السور الأخضر أيّ شيء جميل.

وَفق العادة القديمة، كانت عشر نساء تزيّن بأكاليل الأزهار لباس المحسن الذي لم يجفّ الرذاذ المتطاير عليه بعد. ثمّ ها هو ذا المحسن يهبط مثل كاهن عظيم بخطوات جليلة على مهل، مع تلك الخطوات كان يمضي بين المدرّجات، وفي إثره أماليد بيض غضّة من أيدٍ نسائية مرفوعة إلى فوق، وعاصفة مليونية من الهتافات، ثمّ هتافات مثلها على شرف الحرّاس الحاضرين حضورًا غير مرئي في مكان ما هنا. من يدري؟ ربّما خيال الإنسان القديم حين اختلق «ملاكه الحارس» المتوعِّد برقة المخصّص لكلّ إنسان منذ ولادته، إنّما كان يتنبّأ بحرّاسنا أنفسهم.

أجل، كان هناك شيء ما من الديانات القديمة، كان هناك شيء ما مطهّر كالعاصفة المطرية في هذه الاحتفالات كلّها. وأنتم الذين قد يتيسّر لكم أن تقرؤوا هذا، هل عرفتم دقائق كهذه؟ أشعرُ بالرثاء لكم إن لم تعرفوها ..

*****

جميل وحسب كلّ ما هو معقول ونافع: الآلات، الجزم، الصيغ، الغذاء ونحوه.

المذكّرة العاشرة

الملخّص:

رسالة. طبلة الأذن. أنا الكثُّ الشعر.

كان أمس بالنسبة إليّ تلك الورقة التي يكرّر الكيميائيون محاليلهم من خلالها: الجزيئات العالقة، كلّ ما هو زائد يبقى على هذه الورقة. وفي الصباح رسبتُ إلى الأسفل مُقطّرًا، شفّافًا.

في الردهة أسفل، خلف طاولة صغيرة كانت المراقِبةُ تسجّل أرقام الداخلين وهي تنظر إلى ساعتها. اسمها «خ». بالمناسبة، من الأفضل ألّا أذكر أرقامها لأنّني أخشى أن أكتب فيها شيئًا سيّئًا، مع أنّها في الواقع امرأة كهلة محترمة جدًّا. الشيء الوحيد الذي لا يعجبني فيها هو خدّاها المتهدّلان قليلًا كغلصمي السمكة (وماذا في ذلك يا تُرى؟).

صرّتْ بريشتها فرأيت نفسي على صفحة الدفتر: «د -503» وإلى جانب الرقم نقطة حبر.

أردت أن ألفت نظرها إلى هذا الأمر، لكنّها رفعت رأسها فجأة وقطرتْ فيّ ابتسامة حبرية.

-إليك رسالة. هيّا استلمها يا عزيزي، هيّا.

كنت أعرف: الرسالةُ التي قرأتها هذه المرأة يجب أن تمرّ كذلك على مكتب الحرّاس (أعتقد أنّه من نافل القول تفسير هذا الترتيب

الاعتيادي) وستكون عندي في وقت لا يتجاوز الثانية عشرة. لكنّ ابتسامتها تلك أربكتني، نقطة الحبر عكّرت من محلولي الشفاف. عكّرته، فلم أستطع تركيز تفكيري بأيّ شكل من الأشكال فيما بعد في ورشة بناء «التكامل»، حتى أنّي أخطأت مرّة في الحسابات، الأمر الذي لم يحدث لي من قبل أبدًا.

في الساعةِ الثانية عشرة ظهرًا، الغلصمان البنّيان المائلان إلى اللون الورديّ ومعهما الابتسامة مرّة أخرى، أخيرًا، صارت الرسالة في يدي. لا أدري لماذا لم أقرأ الرسالة هنا من الفور، بل دسستُها في جيبي وهرعت إلى غرفتي. وهناك فضضتُها وأجلتُ فيها نظرة سريعة ورسوتُ في مكاني .. كان هذا إشعارًا رسميًّا أنّ الرقم «م -330» سُجّلت على اسمي، وعليّ الحضور إليها في الساعة 21 من هذا اليوم. وفي أسفل الرسالة العنوان .. لا، بعد كلّ ما حدث، بعد أن أظهرتُ لها بشكل لا يقبل التأويل موقفي منها! زد على ذلك أنّها لا تعرف حتى إذا ما كنتُ ذهبتُ إلى مكتب الحرّاس أم لا، فلم يكن بوسعها أن تعرف من أيٍّ كان أنّي كنتُ مريضًا، وأنّي، عمومًا، لم أستطع .. رغم هذا كلّه ..

دار المولّد في رأسي وضجّ. بوذا، الأصفر، السوسنات، الهلال الوردي .. وإلى هذا كلّه «ف». هي الأخرى كانت تريد أن تأتي إليّ في هذا اليوم. هل أُريها هذا الإشعار بخصوص «م -330»؟ لا أعرف، إنّها لن تصدق، وأنّى لها تصديق انتفاء علاقتي في هذا كلّه، أنني لستُ ..! وأعرف يقينًا أنّه سيدور بيننا حديث صعب، سخيف، غير منطقي بتاتًا .. لا، كلّ شيء إلّا هذا. ولتُحلّ المسألة كلّها آليًا: أرسل لها نسخة من الإشعار وحسب.

أخذتُ أدسّ الإشعار في جيبي على عجل، فرأيت يدي المربّعة، القِردية هذه، وتذكّرتُ: أخذتْ، هي «م»، يدي آنذاك في النزهة ونظرتْ

إليها. أوَتكون حقًّا ..؟

وها هي ذي الساعة 21 إلّا ربعًا. ليلة بيضاء. كلّ شيء زجاجي ضارب إلى الخضرة. لكنّ هذا زجاج آخر، هشّ، ليس زجاجنا، ليس زجاجًا حقيقيًا، إنّه قشرة زجاجية رقيقة، وتحت القشرة كلّ شيء يدور، يمرق، يدندن .. ومن جهتي، لن أعجب إذا ما ارتفعت الآن صوب الأعلى قبابُ القاعات أدخنةً بطيئةً دائريةً؛ وابتسم القمر الكهل ابتسامة حبرية كابتسامة تلك التي وراء الطاولة صباح اليوم، وإن أسدلت الستائر كلّها في البيوت جميعها دفعة واحدة، وإن كان خلف الستائر ..

انتابني إحساسٌ غريب: شعرت أنّ أضلاعي كأسياخ حديدية، وأنها تعيقني، تعيق القلب حتمًا، وأنّ المكان يضيق بي حتى صار لا يكفيني. كنت أقف عند الباب الزجاجيّ الذي يحمل الأرقام الذهبية «م -330». كانت «م» تولّيني ظهرها، وقد انكبّت على الطاولة تخطّ شيئًا. دخلتُ ..

-هاكِ .. ومددت لها يدي بالبطاقة الوردية.

-استلمتُ اليوم الإشعار فحضرتُ.

-ما أدقّك! دقيقة. ممكن؟ أجلس، سأفرغ بعد قليل.

وعادت تخفض عينيها تُجاه الرسالة. ما الذي عندها هناك، وراء الستائر المسدلة؟ ما الذي ستقوله، ما الذي ستفعله بعد ثانية؟ كيف لي أن أعرف ذلك وأن أحسبه، وهي كلّها من هناك، من بلد الأحلام الوحشيّ القديم؟

رحت أنظر إليها صامتًا. الأضلاع أسياخ حديدية، والضيق .. حين تتكلّم يكون وجهها مثل دولاب سريع برّاق، لا يمكن استبانةُ

أشعّته. لكنّ الدولاب واقف الآن. ورأيتُ تزاوجًا غريبًا: حاجبان أسودان مرفوعان إلى أعلى عند الصدغين، مثلّث حادٌّ ساخر، وغضنان عميقان عميقان ممتدّان من الأنف إلى زاويتي الفم. هذان المثلّثان كانا يتناقضان فيما بينهما، ويرسمان على الوجه كلّه هذا المجهول المزعج. المثير على شكل صليب. كان وجهها يبدو مشطوبًا بصليب.

دار الدولاب وامتزجت الأشعّة:

-أحقًّا أنّك لم تكن في مكتب الحرّاس؟

-كنتُ.. لم أستطع: كنتُ مريضًا.

-نعم، فهذا ما كنت أتوقّعه. لا بدّ من أن يعيقَك شيء ما، أيّ شيء لا فرق (أسنان حادّة، ابتسامة). لكن في المقابل أنت الآن مِلك يديّ. تذكّر: «كلّ رقم لا يخبر المكتب خلال 48 ساعة يُعْتبر ..».

طرق قلبي حتى اعوجّت الأسياخ. كطفل، بغباءٍ وقعت. وبغباء صمتُّ. شعرت أنّي تورّطت ولا أدري ما أفعل ..

نهضتْ، تمطّت بكسل. ضغطتْ زرًّا، فسقطت الستائر من كلّ جانب في جلبة خفيفة، عُزلتُ عن العالم: بقينا وحدنا؛ أنا وهي.

كانت «م» في مكانٍ ما خلفي، قرب الخزانة. وكان لباسها الموحّد يهسهس، يسقط، وكنت أصغي، كنتُ كلّي آذانًا صاغية. وتذكّرتُ .. لا، لم أتذكّر بل برَقَ شيء في خاطري بواحدٍ بالمئة من الثانية ..

-كان عليّ من فترة وجيزة أن أحسب تقوّس طبلة من نوع جديد (هذه الطبلات المزيّنة بأناقة تسجّل الآن لحساب الحرّاس في الشوارع كلّها جميع ما يدور من أحاديث). وأذكر: كان هناك غشاء مقعّر ورديّ

يهتزّ -كائنٌ غريبٌ مُكوّن من عضو واحد -من أذن. والآن كنت كلّي طبلة من هذه الطبلات.

صوتُ زرّ يُفكّ عند الياقة، ثمّ على الصدر، ثمّ تحته قليلًا. الحرير الأبيض يهسهس على الكتفين، على الركبتين، على الأرض. أسمعُ (وهذا أوضحُ من الرؤية): من الكومة الحريرية الرمادية الضاربة إلى الزرقة، انسلّت ساق ثمّ أخرى ..

الطبلة المشدودة بقوّة تهتزّ وتسجّل الصمت. لا، ليس الصمت بل ضربات حادّة من مطرقة على الأسياخ بفواصل لا حصر لها. وأسمع

ــــــ أرى .. إنّها خلفي، تفكّر لحظةً.

مرّة أخرى أبوابُ الخزانة وطَرْقةُ غطاء، ومن جديدٍ حرير، حرير، حرير ..

-هيّا، تفضّل.

التفتّ. كانت في ثوب أصفر زعفرانيّ رقيق من طراز قديم. وكان هذا شرًّا ألف مرّة ممّا لو كانت من دون أيّ شيء. نقطتان حادّتان تتوهّجان بلون وردي من خلال القماش الرقيق كما جمرتان من خلال رماد، وركبتان مستديرتان بنعومة.

كانت تجلس على أريكة واطئة، وأمامها، على طاولة مربّعة، زجاجة فيها شيء أخضر سامّ، وكأسان صغيرتان، ومن زاوية فمها كان يتصاعد دخان -هذا البخور القديم في أنبوب ورقي رقيق جدًا (نسيت الآن ماذا كانوا يسمّونه).

كانت الطبلة لا تزال تهتزّ. كانت المطرقة هناك، في داخلي تهوي

بضرباتها على الأسياخ المحمرّة، وكنت أسمع كلّ ضربة من ضرباتها بجلاء .. فجأة راودتني فكرة: ربّما هي تسمعها كذلك؟

لكنّها كانت تنفث دخانها بهدوء، وترمقني بين حين وآخر بهدوء. ونفضت الرماد بلا مبالاة على بطاقتي الوردية.

سألتها بقدر ما استطعت من برودة أعصاب:

-اسمعي، لماذا سجّلت اسمك عليّ إذنْ؟ ولماذا جعلتني آتي إلى هنا؟

وكأنها لم تسمع. سكبت من الزجاجة في الكأس ورشفت.

-«ليكيور» رائع. ألا تريد؟

هنا فقط أدركت: إنّه كحول. وكالبرق لمع في ذهني ما كان أمس: يد المحسن الحجرية، نصل الشعاع الذي لا يطاق، وهناك، على المكعّب ذاك، ذو الرأس الملقى والجسم الممدّد. سرت قشعريرة في أوصالي.

-اسمعي، قلتُ لها: أنت تعرفين أنّ الذين يُسمّمون أنفسهم جميعًا بالنيكوتين، وخاصّةً بالكحول، الدولةُ الواحدة دونما شفقة..

انشدّ الحاجبان الأسودان عاليًا إلى الصدغين، والمثلّث الحاد الساخر:

-إبادة قلّة قليلة بسرعة أفضلُ من تمكين كثرة من إهلاك نفسِها، وما يلي ذلك من تشوّه وانحلال وما إلى ذلك. هذا صحيح حتى درجة الابتذال.

-أجل .. حتى درجة الابتذال.

-لو ترمي مجموعة هذه الحقائق الصلع العارية إلى الخارج. لا، تصوّر أحدهم وليكن أخلص المغرمين بي هذا، إنّني واثقة من أنّك تعرفه، تصوّر أنه خلع عنه كلّ زيفٍ ملابسه وظهر في مظهره الحقيقي وسط الجمهور .. آه!

كانت تضحك، إنّما كان ظاهرًا لي بجلاء مثلّثُها السفليّ الحزين: الغضنان العميقان الممتدّان من زاويتي الفم حتى الأنف، ولا أدري لماذا اتّضح لي من هذين الغضنين أنّ ذاك المنحني مرّتين، الأحدب، ذا الأذنين الجناحين عانقها كما هي ماثلة أمامي الآن، وأنّه ..

بالمناسبة، أنا أحاول الآن نقل أحاسيسي غير الاعتيادية آنذاك. أمّا الآن، وأنا أكتب هذا. فأعي بشكل رائع أنّ هذا ما يجب أن يكون، وأنّ له، كأيّ رقم شريف، الحقّ في المسرّات والمباهج، وسيكون من الظلم .. بلى، هذا كلّه واضح ..

كانت «م» مستمرّة في ضحكها المتواصل الغريب جدًا. ثم أمعنت النظر فيّ، في أعماقي:

-الشيء الرئيس أنّي مطمئنة معك تمامًا. أنت في غاية اللطف، ولن تفكّر، وأنا واثقة من هذا، لن تفكّر حتى مجرّد تفكير في الذهاب إلى المكتب وإبلاغهم أنّي أشرب «الليكيور» وأنّي أدخّن. ستكون مريضًا أو مشغولًا أو لا أدري ماذا. بل أكثر من هذا، واثقة أنّك ستشرب الآن معي هذا السمّ الساحر.

يا لها من لهجة وقحة، ساخرة. شعرت شعورًا عميقًا أنّني أكرهها الآن من جديد، وعلى أيّة حال، لماذا أقول «الآن»، فأنا كنت أكرهها على الدوام.

أفرغتْ في فمها جميعَ ما في كأس السمّ الأخضر، ونهضت، وخطت بضع خطوات وهي تشفّ وردية من خلال الزعفراني، وتوقفت خلف أريكتي.

وفجأة يدٌ حول عنقي وشفتان في شفتي .. بل شيء أعمق وأفظع .. أقسم أنّ هذا فاجأني تمامًا، ربّما لهذا السبب وحده .. فلم أكن أستطيع (الآن صرتُ أدرك هذا بوضوح تام)، لم أكن أستطيع أنا نفسي أن أريد ما حدث بعد هذا.

شفتان حلوتان بشكل لا يطاق (أفترض أنّ هذا طعم «الليكيور») وسُكبتْ فيّ جرعة سمًا حارقًا ثمّ جرعة ثانية وثالثة. انفلتّ عن الأرض ورحت، وأنا أدور بجنون، أهوي كوكبًا منفردًا إلى أسفل، إلى أسفل في مدار غير محسوب.

أمّا ما جرى بعد ذلك فلا أستطيع وصفه إلّا على وجه التقريب. إلّا عن طريق تشابيه على قدرٍ أو آخر من الدقّة.

لم يخطر هذا في بالي من قبل قطّ، لكنّ هذا هو الواقع، وهو أنّنا نحن على الأرض نسير طَوال الوقت فوق بحر مضطرب أحمر من النار المحجوبة عنّا هناك في رحِم الأرض. لكنّنا لا نفكّر في هذا أبدًا. لكن لو أضحت القشرة الرقيقة التي تحت أقدامنا زجاجية فجأة، لرأينا فجأة ..

ولقد أضحيتُ زجاجيًّا الآن، ورأيت ما في ذاتي، ما في داخلي.

كانت هناك أنيان. الأنا الأولى هي أناي السابقة «د-503»، الرقم «د -503»، أمّا أناي الأخرى .. في السابق كانت أناي هذه تخرج قائمتيها الكثيفتي الشعر من القشرة قليلًا. أمّا الآن فأخذتْ تخرج كلّها. القشرة تشققتْ، ما هي إلّا هنيهة حتى تتطاير كِسَرًا .. فماذا، ماذا

سيكون عندئذ؟

سألتُ وأنا أتشبّث بقواي كلّها بقشّة، بمسند الأريكة، كي أسمع ذاتي، أناي السابقة:

-أين .. أين حصلت على هذا .. على هذا السمّ؟

-أوه، هذا! أحد الأطبّاء، واحد من «جماعتي».

-من «جماعتي»؟ مَن تحديدًا؟

أناي الأخرى وثبتْ فجأة وزعقت:

-لن أسمح بهذا. لا أريد أحدًا غيري .. سأقتل كلّ مَنْ .. لأنّني، لأنّني ..

ورأيته، الآخر، كيف أمسكها بفظاظة بقائمتيه الشعراوين ومزّق حريرها الرقيق، وغرز أسنانه .. أذكر بشكل دقيق: أسنانه تحديدًا.

لا أدري كيف تملّصت. كانت تقف الآن مسندة ظهرها إلى الخزانة، عيناها أسدلت عليهما هذه الستارة الصفيقة اللعينة، وكانت تستمع إليّ.

أذكّر أنّني كنت على الأرض أطوّق قدميها، أقبّل ركبتيها وأتوسّل إليها: «الآن، حالًا، هذه الدقيقة».

الأسنان الحادّة، مثلّث الحاجبين الحادّ الساخر. انحنتْ وفكّت نوطي بصمت.

-«نعم! نعم، الغالية، الغالية». وأخذت أخلع لباسي الموحّد على عجل، لكن «م» قرّبت، وهي على صمتها السابق، الساعة التي على النوط من عينيّ مباشرة. كانت الساعة 22:30 إلّا خمس دقائق.

سرى البرد في أوصالي المبعثرة. كنتُ أعرف ما معنى ظهور أحدنا في الشارع بعد الساعة 22:30. جنوني كلّه كأنما تبخّر. عدتُ كما كنتُ أنا. وكان هناك شيء واحد واضح لي: أكرهها، أكرهها، أكرهها!

اندفعت خارج الغرفة من دون وداعها، ورحت أهبط درجات السلّم الاحتياطي، وأنا أثبّت النوط كيفما اتّفق، وثبًا إلى الشارع الخالي (كنت أخشى الالتقاء بأحدهم في المصعد).

كان كلّ شيء هنا في مكانه، بسيطًا، عاديًا، نظاميًا: البيوت الزجاجية المتلألئة بالأضواء، والسماء الزجاجية الشاحبة، والليل الساكن الضارب إلى الخضرة. إنّما كان شيء ما كثّ الشعر، أحمر، هائجًا دونما صوت يمرق تحت هذا الزجاج الهادئ المنعش. وكنت أندفع مبهور الأنفاس كي لا أتأخّر.

وشعرت فجأة: النوط المعقود على عجل ينفكّ، بل انفك ورنّ على الرصيف الزجاجي. انحنيت لالتقاطه، وفي الصمت الذي دام ثانية، سمعتُ وقع أقدام خلفي. ألتفتُ: من وراء الزاوية، كان شيء ما صغير معقوف ينعطف. أو على الأقلّ هذا ما بدا لي حينذاك.

وانطلقت ثانية بكلّ ما أوتيت من قوة، لم يكن هناك إلّا الصفير في أذني. توقّفت عند المدخل: كانت الساعة 22:30 إلّا دقيقة واحدة. أصختُ السمع: لا أحد يتبعني. واضح أنّ هذا كلّه من بنات خيال سخيف، من تأثير السمّ.

مضى الليل مُضنيًا، كان السرير تحتي يعلو ويهبط ثمّ يعلو من جديد، كان يسبح على شكل منحنٍ جيبي. وكنت أوحي لنفسي قائلًا: «في الليل يجب أن تنام الأرقام، هذا واجبها، كما العمل نهارًا. هذا ضروريٌ للعمل نهارًا. عدم النوم ليلًا جريمة». ومع هذا لم أستطع، لم أستطع.

إنّني إلى هلاك وثبور. لا أستطيعُ تأدية واجباتي نحو الدولة الواحدة

إنّني ...

*****

المذكّرة الحادية عشرة

الملخّص:

... لا، لا أستطيع، فليكن هكذا من دون ملخّص.

المساء. ضبابٌ خفيفٌ، والسماءُ ملفوفةٌ بنسيج حليبي مشوبٌ بصفرة الذهب، فلا يرُى ما هناك في الأبعد، في الأعلى. الأقدمون كانوا يعرفون أنّ هناك متشكّكهم الأعظم الضجران -الله. ونحن نعرف أنّه هناك، لا شيء أزرق بلّوريًا عاريًا غير لائق. أمّا الآن فلا أعرفُ، أنّي عرفت هناك أشياءَ أكثر ممّا ينبغي لي. المعرفة الواثقة ثقة مطلقة بعصمتها إيمان. ولقد كان عندي إيمانٌ راسخٌ بنفسي، كنت أؤمن بأنّي أعرف كلّ شيء في نفسي. وها أنا ذا –

ها أنا ذا أمام المرآة. للمرّة الأولى في حياتي، نعم هكذا تحديدًا:

للمرّة الأولى في حياتي أرى نفسي بوضوح، بجلاء، بوعي، أرى بدهشةٍ نفسي كأنّها شخص آخر، كأنّها هو آخر. وها أنا – هو: حاجبان أسودان مرسومان بخطّ مستقيم، وبينهما غضن، أفقيّ كالندبة (لا أدري إذا كانت موجودة من قبل أم لا)، وعينان فولاذيّتان رماديّتان مكحولتان بظلّ من ليلة مسهّدة؛ أمّا ما وراء هذا الفولاذ.. فقد تبيّن لي أنّي لم أعرف أبدًا ما هناك. ومن «هناك» («هناك» هي في الوقت نفسه هنا، ومكان آخر بعيد بُعدًا لا متناهيًا)، من هناك أنظر إلى نفسي، إليه، وأعرف يقينًا أنّ «هو» ذا الحاجبين المرسومين بخطّ مستقيم ذاك غريبٌ عنّي، ألتقي به أوّل مرّة في حياتي. وأنّي أنا الحقيقي، أنا لستُ هو..

لا، كفى، هذه ترّهاتٌ كلّها. وهذه الأحاسيس السخيفة هذيان كلّها كذلك، نتيجة تسمّم الأمس.. التسمّم بأيّ شيء يا تُرى: بجرعة السمّ الأخضر أم بها؟ الأمر واحد. إنّي أسجل هذا لأثبت وحسب، كيف يمكن للعقل الإنسانيّ الكبير الذي يملك هذه الدرجة العالية من الدقّة، النفاذ، أن يتيه ويضلّ على هذا الشكل العجيب، هذا العقل الذي استطاع أن يجعل اللانهاية، هذه التي كانت تُرعب الأقدمين، سهلة الهضم بواسطة..

فرقع المرقّم وظهرت عليه الأرقام «ر -130». فليكُنْ، لا بل إنّي مسرور، فلو بقيت وحدي الآن كان يمكن أن..

بعد عشرين دقيقة:

على سطح الورقة، في العالم ذي البُعدين، تظهر هذه الأسطر متجاورة، إنّما في عالم آخر.. إنّي أفقد الإحساس بالأرقام. عشرون دقيقة يمكن أن تكون 200 أو 200000. إنّه لأمرٌ وحشيّ جدًا أن أسجّل بهدوء، باتّزان، مُفكّرًا في كلّ كلمة ما الذي دار بيني وبين «ر». هذا أشبه بما لو أنّك جلست على كرسيّ قرب سريرك واضعًا رِجلًا على رِجل، وأخذت تنظر بفضول كيف تتلوّى أنت، أنت نفسُك، في سريرك.

كنت هادئًا وطبيعيًّا تمامًا حين دخل «ر -130». ورحت أحدّثه بشعور من الإعجاب الصادق عن تمكّنه من نظم الحكم شعرًا بهذا الشكل الرائع، وعن أنّ أشعاره هذه تحديدًا ساعدت أكثر من غيرها على فرم ذاك المجنون ومحقه. وأنهيت قائلًا:

- .. بل أكثر من هذا؛ لو يعرض عليّ أن أضع رسمًا هندسيًا لآلة المحسن، لوجدتُ حتمًا طريقةً لتحميل قصيدتك على هذا الرسم.

وفجأة رأيت عينيّ «ر» تربدان، وشفتيه ترمدان.

- ماذا دهاك؟

- ماذا؟ قرفتُ. ليس حولي إلّا كلام عن الحكم، الحكم! لا أرغب في سماع هذا بعد الآن، وهذا كلّ ما في الأمر. لا أرغب وحسب!

قطّب حاجبيه وحكّ قذاله -حقيبته هذه ذات المتاع الغريب غير المفهوم. وسادت فترةُ صمت. ثمّ ها هو ذا يجدُ في الحقيبة شيئًا، يُخرجه، يبسطه -لقد بسطه. عيناه طُليتا بالضحك، هبّ واقفًا:

- وأنا الآن أنظم لحساب «تكاملك» هذا .. هاته!

عاد الشخص القديم: شفتاه تخفقان، ترشّان الرذاذ، الكلمات تتدفّق منه كالنافورة.

- لاحظ معي: الأسطورة القديمة عن الفردوس .. إنّها عنّا، عن وقتنا الراهن. فكّر في الأمر مليًّا: ذلكما الاثنان في الفردوس، أمام أمرين لا ثالث لهما: السعادةُ من دون حرّية أو الحرّية من دون سعادة. ولقد اختارا -الأخرقان - الحرّية، وهذا مفهوم، ظلّا قرونًا بعد هذا يحنّان إلى الأغلال. الأغلال، هذا ما كان يحنّ إليه العالمُ كلّه، وظلّ يحنّ إليه قرونًا. والآن حتى تُنبّهَنا من جديد كيف تُستردّ السعادة..

لا، اسمعني اسمعني كذلك! الإله القديم ونحن ندّان. أجل، لقد ساعدنا الله على إلحاق هزيمة نهائية بالشيطان، فالشيطان هو الذي دفع الناس إلى خرق المحرّمات وتذوّق الحرّية المهلكة، إنّه حيّة لئيمة، ونحن انهلْنا بالجزمة على رأسه، تراخ.. تراخْ، وانتهى الأمر: الفردوس يعود إلينا من جديد. ونعود نحن من جديد بسطاء طاهرين مثل آدم وحوّاء. ليس هناك هذه البلبلة فيما يختصّ بالخير والشرّ: كلّ شيء بسيطٌ جدًا

بساطة الفردوس، بساطة الأطفال، المحسن، الآلة، المكعّب، الجرس الغازيّ، الحرّاس. هذا كلّه خير. هذا كلّه جليل، رائع، نبيل، سام، صاف كالبلّور. لأنّ هذا كلّه يصون لا حرّيتنا أي سعادتنا. الأقدمون كانوا سيتناقشون في هذا الأمر ويتماحكون ويتعبون رؤوسهم - أخلاق، لا أخلاق. -فلندعهم وشأنهم. باختصار، إنّها قصيدة فردوسية، أليس كذلك؟ وإلى هذا، فهي ذات لهجة رصينة الرصانة كلّها، مفهوم؟ ظريفة، أ؟

وكيف لي ألا أفهم؟ أذكر أنّي قلت في سرّي: «أيّ مظهر سخيف، غير متناسق مظهرُه، ومع هذا أيّ عقل مفكّر سليم عقله». ولهذا هو قريب منّي، من أناي الحقيقية هذا القرب كلّه (لا أزالُ أعتبر مع هذا أنّ ذاتي السابقة هي الحقيقية، وكلّ ما أنا عليه الآن إن هو إلا مرض طبعًا).

الراجح أن «ر» قرأ هذا على جبيني، فاحتواني من كتفيّ وقهقه:

- آه منك يا آدم! بالمناسبة، بخصوص حوّاء..

دسّ يده في جيبه وسحب مفكّرة وتصفّحها.

- بعد غد.. لا، بعد يومين لدى «ف» قسيمة وردية على اسمك.

كيف حالكما؟ كما في السابق؟ هل تريدُها أن ..

- طبعًا، هذا شيء مفروغ منه.

- هذا ما سأقوله لها. وإلّا فهي خجولة كما تعرف.. وهناك أمر آخر: بالنسبة إليّ، إنّها تأتي هكذا وحسب، بالقسيمة الوردية، أمّا بالنسبة إليك فهي.. ثمّ لا تقول إنّ هناك رابعًا تسلّل إلى مثلّثنا. مَنْ هو، اعترفْ أيّها الشقيّ، من؟

ارتفع الستار فيّ فإذا هسهسة الحرير والزجاجة الخضراء والشفتان.. وأفلت مني، أفلت عبثًا وفي غير محلّه (لو أنّي تماسكت):

- قل لي: هل اتّفق لك مرّةً أن جرّبت النيكوتين أو الكحول؟

زمّ «ر» شفتيه ونظر إليّ في عبوس. كنت أسمع أفكارَه بوضوح: (أنت صديقي.. هذا صحيح، ومع هذا..).

وجاءني جوابه:

- كيف أقول لك؟ تحديدًا، لا. لكن عرفت امرأة..

- «م»، - هتفتُ.

- كيف.. أنت، أنت كذلك معها؟ - انفجر في الضحك وشرق حتى كاد يرشّ رذاذه.

كانت المرآة في غرفتي موضوعة بحيث لم يكن يتسنّى لي رؤية نفسي إلّا من خلال الطاولة، ومن هنا من الأريكة لم أرَ سوى جبيني وحاجبي.

وها أنا ذا، أنا الحقيقي، أرى في المرآة خطّ الحاجبين المستقيم ينطّ ويتشوّه، وأسمع، أنا الحقيقيّ، أسمع صراخًا وحشيًّا كريهًا:

- ما «كذلك» هذه؟ لا، ما معنى «كذلك»؟ لا، إنّي أطلب تفسيرًا.

شفتان زنجيّتان مفغورتان، وعينان محملقتان.. أمسكتُ، أنا الحقيقيّ بقوّة بتلابيب ذاتي الأخرى تلك، المتوحّشة الكثّة الشعر المختنقة الأنفاس. قلت، أنا الحقيقي، لـــ «ر»:

- سامحني بحقّ المحسن، أنا مريضٌ تمامًا، لا أعرف النوم. لا أعرف ما دهاني..

افترّت الشفتان الغليظتان عن ابتسامة خفيفة ساخرة خاطفة:

- إي. إي! فاهم، فاهم! هذا كلّه ليس غريبًا عنّي.. نظريًا بالطبع. الوداع!

استدار عند الباب ككرة سوداء، وعاد أدراجه إلى الطاولة، وألقى عليها كتابًا:

كتابي الأخير.. جلبته قصدًا، وها أنا ذا كدتُ أنساه. الوداع! وانسلّ يتدحرج.

بقيت وحدي. أو على الوجه الأصحّ؛ وحدي مع أناي هذه، الأخرى.

أنا على الأريكة أضع رِجلًا على رِجل، أنظر بفضول من مكان ما هناك إلى أنايَ، أناي أنا، تتلوّى على السرير.

لماذا، لماذا طَوال ثلاث سنوات كاملة عشنا أنا و «ف» في صداقة وودّ، وفجأة، كلمة واحدةٌ فقط الآن عن تلك، عن..

أوَحقًّا أنّ هذا الجنون كلّه- الحُبّ، الغيرة- ليس في الكتب القديمة البلهاء وحدها؟ والأهمّ أنا! معادلات وصيغ وأرقام.. ويحدث معي ما حدث!

إنّي لا أفهم شيئًا! لكن، لا بأس.. غدًا أذهب إلى «ر» وأقول له..

ليس صحيحًا، لن أذهب. لن أذهب غدًا ولا بعد غد. لن أذهب أبدًا. لا أستطيع، لا أريد أن أراه. النهاية: مثلّثنا انهار.

أنا وحدي. المساء. ضبابٌ خفيفٌ، والسماءُ ملفوفةٌ بنسيج حليبي مشوب بصفرة الذهب. لو أعرف ماذا هناك، في الأعلى؟

لو أعرف مَن أنا، أيّ مخلوق أنا؟

*****

المذكّرة الثانية عشرة

الملخّص:

تحديد اللا نهاية. الملاك. تأمّلات في الشعر.

يبدو لي مع هذا أنّي سأُشفى، أنّي أستطيعُ أن أشفى. لقد نمت نومًا رائعًا، لا شيء من تلك الأحلام أو غيرها من الظواهر المرضية. غدًا ستأتي «ف» اللطيفة إليّ. وسيكون كلّ شيء بسيطًا، صحيحًا، ومحدودًا كالدائرة، إنّي لا أخشى هذه الكلمة «المحدودية» : فعمل ما هو أسمى شيء في الإنسان، «العقل»، يتلخّصُ تمامًا في التحديد المتواصل للّانهاية، لتفتيت اللانهاية إلى جرعات مريحة تُستوعب بسهولة إلى تفاضلات. وفي هذا تحديدًا، الجمالُ الإلهيّ لملَكتي العضوية: ملَكة الرياضيات. وعلى أية حال، فهذا توارد خواطر عابر.

وهذا كلّه على الإيقاع الرتيب الموزون عروضيًّا لعجلات الطريق الممتدّ تحت الأرض. كنت أقطّع بيني وبين نفسي السجلّات والأبيات الشعرية (كتابه الذي حمله إليّ أمس)، وشعرتُ : من خلفي، من وراء كتفي، شخص ينحني بحذر، ويسترق النظر إلى الصفحة المفتوحة.

ومن دون أن ألتفت، رأيتُ بطرف عينيّ الأذنين وحسب، الجناحين الورديين المنشورين، والانحناءة المزدوجة. إنّه هو. ولم أشأ أن أعيقَه، فتظاهرتُ بأنّي لم ألاحظه. كيف ظهر هنا لا أدري، كأنّما لم يكن موجودًا حين دخلت العربة!

هذه الحادثة التافهة ذاتُها فعلت فعلها الطيّب جدًا في نفسي، بل أكاد أقول: شدّت في عضدي. فما أحلى أن تشعر بأنّ عينًا يقِظة تحفظك بحبّ من الوقوع في أدنى خطأ، من القيام بأيّة خطوة خاطئة! ولْيَبْدُ ما سأقوله عاطفيًّا، لكن يخطر في بالي دائمًا التشبيه القديم نفسُه: الملاك الحارس الذي حلم به الأقدمون. كم هناك من الأشياء التي لم تكن عندهم إلّا مجرّد حلم، فأضحت واقعًا ماديًا في حياتنا!

كنت أستمتع بالقصيدة المعنونة «السعادة» لحظةَ أحسست بالملاك الحارس. وأحسبني لن أكون مخطئًا إذا قلتُ إنّه عمل نادر في جماله وعمق فكرته. إليكم الأبيات الأربعة الأولى:

اثنان في اثنين، العاشقان أبدًا

الذائبان أبدًا في أربعة ملتهبة،

أحرّ عاشقين في العالم

هما اثنان في اثنين، اللذان لا ينفصلان ..

وما يلي ذلك كلّه عن هذا الموضوع –عن السعادة الحكيمة الخالدة لجدول الضرب.

كلّ شاعر حقيقيّ هو «كولومبس» بالضرورة. لقد وُجدت أميركا قبل «كولومبس» بقرون، لكنّ «كولومبس» وحده استطاع أن يكتشفها. وجدول الضرب وُجد قرونًا قبل «ر-13»، لكن «ر-13» وحده استطاع أن يجد في أدغال الأرقام إلدورادو[1] جديدة. وفعلاً،

---

(1) إلدورادو: بلد خرافي غني بالذهب والأحجار الكريمة اعتقد الغزاة الأسبان وجوده في أميركا اللاتينية وحاولوا عبثًا العثور عليه (المترجم).

هل يوجد في مكان ما سعادة، سعادة أحكم وأصفى ممّا في هذا العالم الرائع؟ الفولاذ يصدأ. والإله القديم صنعَ الإنسانَ القديمَ، أي الإنسان المعرّض للخطأ وعليه، هو نفسُه أخطأ. جدول الضرب حكيم ومطلق أكثر من الإله القديم، فهو لا يُخطىء أبدًا، أتفهمون؟ أبدًا! وليس هناك ما هو أسعدُ من الأرقام التي تعيش وَفق سنن جدول الضرب الأبدية المتماسكة؛ لا تردّد ولا ضلال. الحقيقة واحدة والطريق الصحيحة واحدة. وهذه الحقيقة هي اثنان في اثنين، وهذه الطريقة الصحيحة هي أربعة. أوَ لن يكون سخفًا وعبثًا فيما لو أخذ هذان الاثنان المضروبان ببعضهما بشكل سعيد، مثالي يفكّران في الحرّية، أي، وهذا واضح، في الخطأ؟ وبالنسبة لي بدهيٌّ أن «ر-13» استطاع أن يدرك أهمّ شيء و ..

وهنا شعرت من جديد على قذالي أوّلًا، ثمّ على أذني اليسرى أنفاس الملاك الحارس الدافئة الرقيقة. لقد لاحظ بجلاء أنّ الكتاب الذي على ركبتي انغلق، وأنّ أفكاري صارت في مكان بعيد. وماذا؟ أنا مستعدٌّ ولو الآن فورًا أن أنشر أمامه صفحات دماغي؛ فهذا يوفّر لي شعورًا هادئًا بهيجًا إلى حدّ كبير. أذكر أنّي التفتُّ ورفعت عينيّ إلى عينيه بإلحاح، برجاء، لكنّه لم يفهم أو لم يشأ أن يفهم، ولم يسألني شيئًا .. فلم يبق أمامي إلّا شيءٌ واحدٌ: أن أروي لكم كلّ شيء يا قرّائي المجهولين (فأنتم الآن أعزّاء عليّ وقريبون منّي وبعيدون كما كان هو في تلك اللحظة).

طريقي كان من الجزء إلى الكلّ، الجزء هو / -13، والكلّ العظيم هو معهدنا -معهد الدولة للشعراء والكتّاب. قلت في نفسي: كيف أمكن ألا يفقأ عيون الأقدمين كلّ سخف أدبهم وشعرهم. إنّ قوّة الكلمة الأدبية الهائلة العظيمة كانت تُهدر عبثًا. والشيء المضحك أنّ كلّ واحد منهم كان يكتب عمّا يعنّ له. والشيء الآخر الذي لا يقلّ منه إضحاكًا وسخفًا أنّ البحر عند الأقدمين كان يرتطم بالشاطئ ببلادة أربعًا وعشرين ساعة في الأربع والعشرين ساعة، وكانت ملايين

الكيلوغرامات من الطاقة التي تحتويها الأمواج تُهدر وحسب على إذكاء مشاعر العشّاق وإلهامها. أمّا نحن، فمن همس الأمواج الولهان حصلنا على الكهرباء، ومن الوحش المرغي بالزبد المسعور، صنعنا حيوانًا أليفًا. وهكذا تمامًا كبحنا مَلَكة الشِعر الوحشية آنذاك وروّضناها. فالشِعر الآن ليس زقزقة شحرور وقحّة، بل الشِعر الآن خدمة للدولة، الشِعر نفع.

«القصائد الرياضية» المشهورة، هل كان يسعُنا من دونها في المدرسة أن نحبّ قواعد الحساب الأربع بهذا الصدق وتلك الرقّة؟ و«الأشواك»؟ إنّها نموذج كلاسيكي. الحرّاس هم الأشواك فوق الوردة، تصون زهرة الدولة الغضّة من اللمسات الفظّة .. وأيّ قلب من حجر يبقى لا مباليًا لدى رؤيته ثغور الأطفال البريئة تُتمتم كصلاة: «فتى شرّير حاول قطف الوردة، لكنّ الشوكة الفولاذية وخزته بإبرتها، صرخ الشقي: أويْ، أويْ وأسرع إلى البيت ..»، وهكذا دواليك؟ و«القصائد اليومية في تمجيد المحسن»؟ من يسعه بعد أن يقرأها إلّا أن ينحنيَ بخشوع أمام العمل المتفاني لهذا الرقم بين الأرقام؟ و «أزهار الأحكام القضائية» الحمر المريعة؟ والمأساة الخالدة «المتخلّف عن العمل»؟. والكتاب. المرجع لكلّ واحد منّا «أشعار في الصحّة الجنسية»؟

الحياة كلّها، في تعقيدها وجمالها كلّه، سُكّتْ إلى الأبد في ذهب الكلمات.

لم يعد شعراؤنا يهيمون في عالم الاختبار. لقد نزلوا إلى الأرض، إنهم يسيرون معًا على أنغام المارش الميكانيكيّ الصارم للمصنع الموسيقيّ، قيثارتُهم الحفيفُ الصباحيّ لفراشي الأسنان الكهربائية، والزغردة المرعبة للشرارات في آلة المحسن، والرنين الحميم للآلية الليلية المتلألئة كالبلّور، والهسهسة المثيرة للستائر المنسدلة، والأصوات المرحة لكتاب

فنّ الطبخ، والهمس الذي يكاد لا يسمع لطبلات الشارع.

آلهتنا هنا، إنّها معنا في المكتب، في المطبخ. في الشغل، في المرحاض؛ الآلهة صارت مثلنا وتاليًا، صرنا نحن كالآلهة. وإليكم، أنتم يا قرّائي المجهولين في الكواكب الأخرى، سنأتي لنجعل حياتكم دقيقة ومعقولة بشكلٍ إلهيّ كحياتنا ..

*****

المذكّرة الثالثة عشرة

الملخّص:

ضباب. أنت. حادثة سفيهة تمامًا.

استيقظتُ مع الفجر. طالعتني قبّة سماء وردية صلبة. كلّ شيء جيّد، دائريّ. مساءً ستأتي «ف». لقد عوفيت بلا شكّ في ذلك. ابتسمت، وغفوت.

جرسُ الصباح. نهضت فإذا أنا شيءٌ آخر تمامًا، الضباب ينفذ عبر زجاج السقف والجدران، ويلفّ كلّ مكان وكلّ شيء. وسحب مجنونة تتكاثف وتخفّ وتقترب، فليس هناك حدود بين الأرض والسماء. كلّ شيء يتطاير، يذوب، لا شيء يمكن التشبّث به. لم يعد للبيوت وجود: الجدران الزجاجية انحلّت كما بلّورات الملح في الماء. وإذا ما نظرت من الرصيف، فإنّ هيئات الناس الداكنة في البيوت تتدنّى إلى أسفل ،كما الجزيئات العالقة في محلول حليبيّ، هذيانيّ، تتدلّى في الطوابق كلّها، حتى في العاشر منها. كان كلّ شيء ينفث دخانًا، ربّما شبّ حريقٌ من دون صوت.

في الساعة 11:45 تمامًا، ألقيتُ نظرةً على الساعة قصدًا كيما أتشبّث بالأرقام، كيما تنقذني لوحة الأرقام.

في الساعة 11:45، قبل أن أذهبَ إلى دروس العمل اليدويّ المألوفة وَفق ما هو مقرّر في لوح الساعة، عرّجت على غرفتي. فجأة رنينُ هاتفٍ

وصوتٌ، وانغرزت إبرة طويلة بطيئة في القلب:

-أ، أنتَ في البيت؟ مسرورة جدًا لذلك. انتظرني عند الناصية. سنذهب معًا .. هناك ستعرف إلى أين.

-تعرفين حقّ المعرفة أنّي ذاهب الآن إلى عملي.

-وأنت تعرف حقّ المعرفة أنّك ستفعل ما أقولُه لك. إلى اللقاء، بعد دقيقتين ..

بعد دقيقتين، كنت أقف عند الناصية. كان ضرورةً أن أثبت لها أنّ الدولة الواحدة هي التي تسيّرني لا هي. «ستفعل ما أقوله لك ..». واثقة من نفسِها، هذا واضحٌ من صوتها، حسنًا، سيكون لي معها الآن كلامٌ جادٌّ ..

الألبسة الرمادية الموحّدة المنسوجة من ضباب رطب، كانت تلوح إلى جانبي مدّة ثانية، ثمّ تذوب بشكل مباغت في الضباب. لم أكن أنفصل عن الساعة: كنت عقربَ ثوان حادًّا مرتعشًا. ثماني دقائق، عشر دقائق .. الثانية عشْرة إلّا ثلاث دقائق، إلّا دقيقتين ..

طبعًا، كنت قد تأخّرت عن عملي. كم أكرهها! لكن كان عليّ أن أثبت لها ..

عند الناصية في الضباب الأبيض دمٌ -قَطْعٌ بسكّين حادّة -شفتان.

-يبدو أنّي أعقتك. على أيّة حال لقد تأخّرت الآن.

هذه المرأة كم .. وعلى أيّة حال، صحيح: الوقت تأخّر.

كنت أنظر بصمت إلى الشفتين. النساء كلّهنّ شفاه، لا شيء إلّا

الشفاه، بعضها وردي، مدوّر بلدانة: طوفٌ، سياج لطيف يحميك من العالم كلّه. أمّا هاتان الشفتان، فمن ثانية لم يكن لهما وجود، وها هما الآن مشقوقتان بسكّين، ومنهما إلى هذا يقطر دم لذيذ.

دنت «م» منّي واستندت بكتفها إلى كتفي فإذا نحن شيءٌ واحد، وشيء ما ينتقل من داخلها وينسكب في داخلي. وأعرف: هذا ما يجب أن يكون. أعرفه بكلّ عصَب من أعصابي وكلّ شعرة فيّ، وكلّ ضربة لذيذة حتى الألم من ضربات قلبي. يا لها من سعادة أن تستسلم لـ «يجب» هذه. الراجحُ أنّ قطعة الحديد تشعر بمثل هذه الغبطة وهي تستسلم للقانون الدقيق الحتميّ، وتلتصق بالمغناطيس، ويشعر بمثلها الحجر المقذوف إلى الأعلى وهو يتردّد ثانيةً ثم يهوي سريعًا إلى الأسفل، إلى الأرض، والإنسان وهو يشهق للمرّة الأخيرة بعد الاحتضار ويموت.

أذكر أنّي ابتسمت بارتباك، وقلت في غير سبب:

-ضباب .. ضباب كثير.

-هل تحبّ الضباب؟

لأوّل مرّة تخاطبني بصيغة المفرد الحقيقي القديمة المنسية، بصيغة «أنت» التي يخاطب بها السيّد العبد. وقد مضت «أنتَ» هذه إلى داخلي حادّة بطيئة. نعم أنا عبد، وهذا كذلك «يجب أن يكون»، هذا كذلك جيد.

-نعم، جيّد، خاطبتُ نفسي بصوت مسموع، ثم توجّهت إليها قائلاً: آه، أنا أكره الضباب. أنا أخاف الضباب.

-هذا يعني أنّك تحبّه. الإنسان يخاف شيئًا لأنّ هذا الشيء أقوى منه، ويكرهه لأنّه يخافه، ويحبّه لأنّه لا يستطيع أن يُخضعَه له. فالإنسان

لا يمكن أن يحبّ إلا ما يتأبّى عليه.

نعم هو ذاك، ولهذا تحديدًا، لهذا تحديدًا أنا ..

كنّا نسير اثنين، بل واحدًا. وفي مكان ما بعيد من خلال الضباب، كانت الشمس تُغنّي غناءً لا يكادُ يسمع؛ كان كلّ شيء مغمورًا باللدِن واللؤلؤيّ والذهبيّ والورديّ والأحمر. كان العالم كلّه امرأة واحدة لا تُحدّ، ونحن في رحِمِها لـمّا نولد بعد، بل ننضج بفرح. كان واضحًا لي، واضحًا بشكل أكيد أنّ كلّ شيء من أجلي، السماء والضباب والورديّ والذهبيّ كلّه من أجلي أنا ..

لم أسألها إلى أين نحن ماضيان، المهمّ وحسب أن نسير، نسير، ننضج، نُغمر بِلدانةٍ أكبر ..

-ها قد وصلنا ..، قالت «م»، وتوقّفت عند مدخل.

- اليوم يناوب هنا شخص. لقد حدّثتك عنه حينذاك في البيت القديم.

قرأتُ من بعد. بعينيّ وحدهما - وأنا أتعهّد هذا الذي ينضج فيّ وأرعاه - إعلانًا: (المكتب الطبّيّ)، أدركتُ كلّ شيء.

غرفة زجاجية ممتلئة بضباب ذهبيّ. وسقوف زجاجية بزجاجات ومحاجم ملوّنة، وأسلاك، وشرارات مائلة إلى الزرقة في أنابيب.

وشخص صغير من أدقّ ما وُجد، كأنه كلّه مقصوص من ورق، وكيفما استدار لم يكن يبدو منه إلا جانبُ وجهه المشحوذ بحدّة: نصلٌ لامع الأنفُ، والشفتان مقصّ.

لم أسمع ما قالت له «م»: كنت أرمقُها كيف تتكلّم معه، وأشعر أنّي

أبتسم ابتسامة لا يمكن كبتها، بغبطة. لمعت الشفتان، المقصّ كالنصل، وقال الطبيب: -هكذا، هكذا، فاهم. أخطر مرض.

لا أعرف مرضًا أخطر منه .. قال وهو يضحك، وخطَّ بيده الورقية الدقيقة جدًا شيئًا ما بسرعة، ثمّ ناول «م» الورقة، ثم خطَّ شيئًا ما آخرَ وأعطانيه.

كان هذا تقريرًا بأنّنا مريضان، وأنّنا لا نستطيع المجيء إلى العمل. كنت أسرق عملي من الدولة الواحدة، أنا لصّ، أنا تحت آلة المحسن. لكنّي أشعرُ باللامبالاة، وبأنّ هذا بعيد عنّي كما لو أنّه في كتاب. أخذت الورقة من دون أيّ تردّد. كنتُ أعرف -عيناي، شفتاي، يداي -كنت بكلّيتي أعرف أنّ هذا ما يجبُ أن يكون.

في المرآب شبه الخالي عند الناصية، أخذنا منطادًا. جلست «م» إلى المقود كما في السابق، أدارت جهاز الانطلاق «إلى الأمام»، انسلخنا عن الأرض وسبحنا، وسبح في إثرنا كلّ شيء: الضباب الذهبيّ الضارب إلى اللون الوردي، والشمس، الجانب النصلي الرقيق لوجه الطبيب وقد أصبح بغتة قريبًا جدًا ومحبًّا. سابقًا كان كلّ شيء يسبحُ حول الشمس، أمّا الآن فأعرف: كلّ شيء يسبحُ حولي، يدور ببطء، بغبطة، بعينين مغمضتين.

العجوز عند باب البيت القديم. الفم اللطيف المطبق ذو الأشعّة، الغضون، يبدو أنّه كان مطبقًا طَوال هذه الأيّام، والآن وحسب، انفتح وابتسم:

-آه منك يا شقيّة. لست على رأس عملك كالآخرين، لكنْ حسنًا! إذا طرأ طارئ أسرعُ وأخبركم ..

الباب الثقيل الصفيق ذو الصرير انغلق، وحالًا انفتح القلب واسعًا فأوسع بألم، على مصراعيه. شفتاها شفتاي. كنت أنهل منهما، أنهل ثمّ أسلخ نفسي عنها قليلًا فأرنو بصمت إلى عينيها الشُرّعتين عليّ، وأروح من جديد ..

نصف العتمة في الغرف، الأزرق، الأصفر الزعفرانيّ، السختيان الأخضر القاتم، ابتسامة بوذا الذهبية، بريق المرايا، وحلمي القديم الذي رأيته وقد أصبح الآن جدُّ مفهوم: إذ كلّ شيء مُشرب بعصير ورديّ ذهبيّ، وسيفيض الآن ويتدفّق ..

لقد نضج ذلك الشيء، وبقوّة الحتمية كما الحديد والمغناطيس في خضوعهما اللذيذ للقانون الحتميّ الدقيق انسكبتُ فيها. لم يعد هناك قسيمة وردية، ولم يعد هناك حساب، ولم تعد هناك الدولة الواحدة. ولم يعد لي أنا وجود. كانت هناك أسنان حادّة لطيفة مطبقة وحسب، وكانت هناك عينان ذهبيّتان مشرّعتان باتّساعهما عليّ، كنت أتوغّل عبرهما شيئًا فشيئًا إلى الداخل أعمق فأعمق، كان الصمت مطبقًا إلّا هناك في الزاوية، على بعد آلاف الأميال، كان الماء ينسكب في المغسلة قطرة قطرة، وكنت أنا المسكونة، وبين القطرة والقطرة كانت عهود وعصور ..

وضعتُ لباسي الموحّد على كتفي وانحنيت فوق «م» أرشفها بعينيّ مرّة أخيرة.

-كنت أعرف هذا .. كنت أعرفك ..، قالت «م» بصوت جِدّ خفيض، ثم هبّت ناهضة بسرعة وارتدت لباسها الموحّد، ووضعت ابتسامتها اللسعة الحادّة الدائمة.

-إيه أيّها الملاك الساقط. لقد هلكت الآن. ألست خائفًا الآن؟ إلى

اللقاء! ستعود بمفردك. آ؟

فتحتْ باب الخزانة الذي ثبتت فيه المرآة، ورنت إليّ عبر كتفها تنتظر. خرجت طائعًا. لكن ما إن اجتزت العتبة حتى أحسست فجأةً بالحاجة إلى أن تلتصق بي بكتفِها، تلتصق لثانيةٍ فقط بكتفها، لا شيء أكثر.

نكصتُ على عقبيّ بسرعة إلى الوراء، إلى تلك الغرفة. حيث كانت لا تزال (على الراجح) تعقد أزرار لباسها أمام المرآة. دخلت وتوقّفت. ها أنا ذا أرى بوضوح، أرى حلقة المفتاح القديمة تهتزّ في باب الخزانة، أمّا «م» فلا وجود لها. لم يكن بوسعها أن تغادر، فليس للباب إلّا مخرجٌ واحد. مع هذا فلا وجود لها. فتّشت في كلّ شيء، بل إنّي فتحت باب الخزانة وتحسّست يداي أثوابًا قديمة مختلفة الألوان، لكن لم يكن هناك أحد..

أشعر بشيء من الحرج، يا قرّائي من الكواكب الأخرى، في التحدّث إليكم على هذه الحادثة غير المعقولة إطلاقًا. لكن، ما العمل إذا كان هذا كلّه حدث وَفْقَ هذا النحو تمامًا؟ أوَلم يكن نهاري كلّه من صباحه مليئًا بهذه الأشياء غير المعقولة، أوليس هذا كلّه شبيهًا بمرض الأحلام القديم إيّاه؟ وإذا كان الأمر كذلك، أليس سواءً أن تزيد الأشياء غير المعقولة واحدًا أم تنقص واحدًا؟ وإلى ذلك فأنا واثق: أطال الوقت أم قصر، سأتمكّن من إدراج أيّ شيء غير معقول في قياسٍ منطقي. هذا يريحني وآمل أن يريحكم كذلك.

.. ما أشدّ امتلائي! لو تدرون، ما أشدّ امتلائي!

*****

المذكّرة الرابعة عشرة

الملخّص:

«لي». مستحيل. الأرض الباردة.

كذلك، عن نهارِ أمس، كانت الساعةُ الشخصية مشغولةً قبل النوم، فلم أستطع تسجيل شيء. لكنّ هذا كلّه محفور في داخلي، ولهذا السبب خاصّةً، لديّ شعورٌ بهذه الأرض الباردة برودةً لا تُطاق، شعورٌ قد يُلازمني أبدًا ..

البارحة مساءً، كان يجبُ مجيء «ف» إليّ، لا سيّما أنّه يوم مجيئها. نزلتُ إلى المناوب لأستأذن في إسدال الستائر.

-ما بك؟ سألني المناوب. ثمّ أردفَ قائلًا: أنتَ اليوم لستَ على ما يُرام.

-أنا ..، أنا مريض.

في واقع الأمر، ما قلتُه كان الحقيقة: حالتي أنّني مريض. هذا كلّه مرضٌ في مرض. تذكّرتُ حالًا: التقرير. بحثتُ في جيبي، ها هو ذا يُخشخش. إذنْ هذا كلّه كائنٌ، كائنٌ حقيقةً وفعلًا.

مددتُ يدي بالورقة إلى المناوب. شعرت أنّ وجنتيّ تتوقّدان. ومن دون أن أنظر إليه، أحسستُ أن المناوب ينظر إليّ بدهشة واستغراب.

الساعة 21:30 .. في الغرفة عن شِمالي، كانت الستائر مسدلة. في الغرفة عن يميني أرى جاري مُكِبًّا على كتاب، صلعته غير مستوية، كلّها نتوءات، وجبينه قطع مكافئ أصفر هائل. وأنا أذرع الغرفة جَيئةً وذهابًا يعتصرني الألم والعذاب: كيف لي - بعد هذا كلّه - أن أكون معها، مع «ف»؟ وإلى اليمين، أشعر بوضوح بعينين مصوّبتين إليّ، وأرى بجلاء الغضون على الجبين كأنّها صفّ من السطور الصفر غير المقروءة: ولا أدري لماذا يبدو لي أنّ هذه السطور تقصدُني!

في الساعة 22 إلّا ربعًا، اندفع إلى غرفتي تيّار ورديٌّ بهيج، فإذا حول عنقي طوقٌ قويٌّ من يدين ورديّتين. وها أنا ذا أشعر: الطوق يرتخي، يرتخي أكثر فأكثر، ثمّ ها هو ذا ينفكّ، واليدان تنزلان.

-لم تعد كما كنتَ، لم تعد الشخص القديم، لم تعد «لي»!

-ما هذه العبارة المتوحّشة «لي»، فأنا لم أكن أبدًا .. وتلعثمتُ، فقد راودتني فكرة، لم أكن قبلُ، هذا صحيح، أمّا الآن .. الآن لا أعيش في عالمنا العاقل، بل في العالم القديم، عالم الهذيان، عالم الجذور من ناقص واحد.

أخذَت الستائر تُسدل. وهناك، وراء الجدار يمينًا، رأيت الكتاب يسقط من على الطاولة أمام جاري أرضًا، كما رأيت في الشقّ الأخير الذي دام لحظةً بين الستارة والأرض، يدَه الصفراء مُمسكة بالكتاب. وشعرتُ في داخلي برغبةٍ في إمساك هذه اليد بقواي كلّها.

-فكّرتُ، أردتُ أن ألقاك اليوم في النزهة. لديّ كثيرٌ ممّا .. لديّ كثيرٌ كثيرٌ ممّا يجب أن ..

الغالية المسكينة «ف»! الفم الوردي هلالٌ ذو قرنين إلى أسفل.

لكنّني لا أستطيع أن أروي لها كلّ ما كان -السبب؛ أنّ هذا سيجعلها مشاركة لي في جرائمي: فأنا أعرف أنّ القوّةَ ستعوزها لتذهبَ إلى مكتب الحرّاس. وتاليًا ..

كانت «ف» مستلقيةً، وكنتُ أقبّلها مُستأنيًا. قبّلت هذه الثنية المنتفخة الساذجة على معصمها، عيناها الزرقاوان كانتا مغمضتين، وكان الهلال الورديّ ينوّر شيئًا فشيئًا ويزهر، وكنت أزرعها قُبَلًا.

فجأةَ، شعرت بجلاء إلى أيّ مدًى، أقفر كلّ شيء في داخلي ونفد. لا أستطيع، مستحيل. يجب، لكنْ مستحيل .. بردت شفتاي من الفور.

ارتعشَ الهلال الوردي، خبا، انكمش. ألْقتْ «ف» عليها الغطاء، تلفّعت به ودسّت وجهها في الوسادة.

كنت أجلس على الأرض قرب السرير، يا لبرودة الأرض التي كنت أجلس فوقها! كنت أجلس صامتًا، وكان البرد المعذّب يتصاعد من الأسفل عاليًا فأعلى. لا بدّ من أنّ هناك في الآماد الزرق البكم بين الكواكب مثل هذا البرد الصامت.

-افهميني، لم أرِدْ هذا ..

غمغمتُ .. حاولتُ بقواي كلّها.

هذا صحيح، فأنا، أنا الحقيقي، لم أرد ذلك. ومع هذا بأية كلمات أقول لها هذا! كيف أشرح لها أنّ الحديد كذلك لم يكن يريد، لكنّه القانون: حتميٌ، دقيقٌ..

رفعتْ «ف» وجهها من تحت الوسادة، وقالت من دون أن تفتح عينيها:

-«أُخرج من هنا»، - لكن بسبب دموعها رنّتِ الكلمة: «أُخرج»؛ وهذا ما جعل هذا التفصيل السخيف ينحفر هو الآخرُ في ذاكرتي.

خرجت إلى الممرّ، وقد سرى البرد في جسمي ونفذ إلى عظامي. هناك وراء الزجاج غلالة رقيقة تكاد لا تُلحظ من الضباب. لكن، مع اقتراب الليل لا بدّ من أن تهبط وتجثم بثقلها كلّه. ما الذي سيأتي به الليل يا تُرى؟

انسلّت «ف» حذوي بصمت مندفعة إلى المصعد، وخبط الباب.

صرختُ وقد انتابني الرعب:

-دقيقةً واحدة.

لكنّ المصعد كان يئزّ هابطًا إلى أسفل، أسفل، أسفل.

لقد انتزعتْ منّي«ر».

لقد انتزعتْ منّي «ف».

ومع هذا .. ومع هذا.

*****

المذكّرة الخامسة عشرة

الملخّص:

الجرس. البحر الأملس الصقيل. كُتب عليَّ أن أنحرّق أبدًا.

ما إن دخلتُ العنبر حيث يُبنى «التكامل» حتى كان الباني الثاني في لقائي. وجهه كما هو دائمًا: مدوّر، أبيض، خزفيّ، وحين يتكلّم يقدّم إليك في الصحن شيئًا شهيًّا بشكلٍ لا يُحتمل.

-حين إصابتك بوعكة، يمكن القول إنّها حدثَت هنا في غيابك، في غياب القيادة حادثة.

-حادثة؟

-نعم، حادثة! قُرع الجرس، انتهى العمل وأخذوا يُخرجون جميعَ من في العنبر. وتخيّلْ: قبض المسؤول عن إخراجهم على شخص غير مرقّم. كيف تسلّل؟ هذا ما لم أستطع فهمه. أُخذ إلى غرفة العمليّات. وهناك يعالجونه ليعرفوا كيف ولماذا !؟ ... (الابتسامة الشهية).

في غرفة العمليّات يعمل أفضل أطبّائنا وأكثرهم كفاءة تحت القيادة المباشرة للمحسن نفسه. هناك أدوات ومعدّات مختلفة، والأهمّ من هذا كلّه هو الجرس الغازيّ المعروف. إنّها تجربة مدرسية قديمة في حقيقة الأمر: يوضع الفأر تحت جرس زجاجي وبمنفاخ يُخلخل الهواء في الجرس بشكل متزايد، وهكذا دواليك. لكنّ الجرس الغازي متطوّر

كثيرًا كما هو معروف، ذلك لاستخدامه غازات مختلفة. ثمّ إنّ الأمر هنا لا يتعلّقُ بالسخرية من حيوان صغير أعزل، بل له هدف سام، هو الحرص والسهر على سلامة الدولة الواحدة، وبتعبير آخر: الحرص والسهر على سعادة الملايين. منذ خمسةِ قرون، حين كان العمل في غرفة العمليّات في بداية تنظيمه، وُجد أغبياء شبّهوا غرفة العمليّات بمحاكم التفتيش القديمة، لكنّ هذا لا يقلّ في سخفه، عن وضع الجرّاح الذي يقوم بعملية خزع الرغام، وقاطع الطرق على قدم المساواة: كلاهما -ربّما - يحمل السكّين نفسها، كلاهما يفعل الشيء نفسَه، يجزّ رقبة إنسان حيّ. ومع هذا فأحدهما: إنسان فاضل، والآخر مجرم، الأوّل مع إشارة زائد، والثاني مع إشارة ناقص.

هذا كلّه واضح وضوحًا مُفرطًا، هذا كلّه يجري في ثانية واحدة، في دورة واحدة من دورات الآلة المنطقية، وبعدها من الفور، تلتقط مسنّنات الآلة إشارة ناقص، فإذا هناك فوق شيء آخر: حلقة المفتاح لا تزال تهتزّ في الخزانة.

الباب صفق توًّا، وهذا واضح، فإذا «م» غير موجودة؛ لقد اختفت، هذا شيءٌ لم يكن بإمكان الآلة أن تفعله. أو أن يكون حلمًا؟ لكنّني أشعر حتى الآن بالألم اللذيذ غير المفهوم في الكتف الأيمن من التصاقها بكتفي الأيمن، وهي معي في الضباب. «هل تحبّ الضباب؟». أجل، والضباب كذلك، وكلّ ما هو لدِن، جديد، مدهش - كلّه جيّد ..

-كلّه جيّد، - قلت بصوت مسموع.

-جيّد؟ حملقت العينان الخزفيّتان حملقة مستديرة، يعني، ما الجيّد في الأمر؟ إذا كان غير المرقّم هذا قد تمكّن من .. فلا بدّ من أنّهم في كلّ مكان حولنا طَوال الوقت، إنّهم هنا، حول «التكامل»، إنّهم ..

-لكن مَن هم هؤلاء؟

-وأنّى لي أن أعرف من هم! لكنّني أشعر بهم، هل تفهمني؟ أشعر بهم طَوال الوقت.

-أسمعتَ أنّهم كأنّما توصّلوا إلى نوع جديد من العمليّات، هو استئصال الخيال؟

(نعم، سمعتُ بشيءٍ من هذا قبل أيام).

-أعرف. ما علاقة هذا بالأمر؟

-علاقته أنّني لو كنت مكانك لطلبت أن يقوموا لي بهذه العملية.

ارتسم على الصحن بوضوح شيء ما ليمونيٌّ حامض. العزيز، بدا له شيئًا مُهينًا التلميح له من بعد إلى إمكانية وجود خيال فيه. وعلى أية حال، ما الغريب في هذا؟ فأنا نفسي كنت سأشعر غالبًا بالاستياء كذلك. أمّا الآن فلا، لأنّني أعرف أنّ هذا يكمنُ فيّ أنا، لأنّني مريض. كما أعرفُ أنّني لا أريد الشفاء، لا أريد وحسب. صعدنا الدرجاتِ الزجاجية إلى فوق، وكان كلّ شيء تحتنا يبدو كما لو أنّه على راحةِ كفّ.

أنتم، يا قارئي هذه المذكّرات، كونوا مَن تكونون، لكنّ الشمس فوقكم. ولو أنّكم أصبتم في وقتٍ ما بمرض مثل مرضي الآن، لعرفتم الورديّ الشفّاف الدافئ. حتى الهواء نفسه وردي قليلًا، وكلّ شيء مُشربٌ بدم الشمس اللطيف، كلّ شيء حيّ. والناسُ أحياء كذلك، يبتسمون، يبتسمون جميعًا حتى آخر واحد فيهم. قد يحدث أن يختفي كلّ شيء بعد ساعة، أن يقطر الدم الوردي بعد ساعة، لكن، الآن، لا يزالُ كلّ شيء على قيد الحياة، وإنّني أرى الآن شيئًا ما ينبض وينسكب في أنساغ «التكامل» الزجاجية، وأرى «التكامل» يفكّر في مستقبله

العظيم، المخيف، في حمله الثقيل من السعادة الحتمية الذي سيحمله إلى هناك، إلى الأعلى، إليكم أيّها المجهولون، إليكم أيّها الباحثون دائمًا وغير الواجدين أبدًا. لكنّكم ستجدون، ستكونون سعداء، أنتم ملزمون بأن تكونوا سعداء، ولن يطول انتظاركم.

هيكل «التكامل» جاهز تقريبًا. إنّه يتمثّل في مجسّم ناقص أنيق ممدود، مصنوع من زجاجنا الخالد كالذهب، المرن كالفولاذ. وشاهدتُهم من مكاني كيف يثبّتون على الهيكل الزجاجي من الداخل أضلاعًا طولية وعرضية، ويضعون في المؤخّرة قاعدة المحرّك الصاروخي العملاق. عند كلّ ثلاث ثوان، سيقذف ذيل «التكامل» الجبّار لهبًا وحِممًا وغازاتٍ في الفضاء الكوني، و»تيمورلنك» السعادة الناريّ يندفع ويندفع.

رأيتُ الناس في الأسفل كنوابض آلة ضخمة ينحنون وينتصبون ويستديرون حسب نظرية «تيلور» في اتّزان وسرعة وانسجام وإيقاع، والأنابيب تلمع في أيديهم: بالنار يقطعون، بالنار كذلك يلحُمون الجدران الزجاجية، والزوايا والأضلاع. ورأيتُ الرافعات الزجاجية الشفّافة العملاقة تتدحرج ببطء على سكك زجاجية، كانت كالناس تستدير في انصياع، تنحني، تلقي إلى الداخل، إلى جوف «التكامل» أثقالها. وهذا كان معناه واحد: إنّها مخلوقات آدمية مؤَنسنةٌ، كاملةٌ. كان هذا هو الجمال المذهل الذي لا جمال بعده، والانسجام والموسيقى. هيّا بسرعة إلى أسفل، إليهم ومعهم!

وها أنا ذا كتفًا إلى كتف مصهور معهم، مأخوذ بالإيقاع الفولاذي .. حركات رتيبة موزونة، خدود دائرية لدِنة مورّدة، جباه صقيلة لا يعكّر صفوها جنونُ الأفكار. كنت أسبح فوق بحر أملس صقيل، كنت أرتاح.

وفجأة التفتَ أحدهم نحوي، قال بلهجة هادئة:

-كيف الحال، لا بأس؟ أحسن اليوم؟

-ما الأحسن؟

-يعني، لم تحضرْ أمس. قلنا ربّما أصبت بمرضٍ عُضال. كان جبينه يلمع وابتسامته طفلية، بريئة.

تدفّق الدم إلى وجهي.لم يكن بوسعي أن أكذّب هاتين العينين. صمتُّ، كنت أغرق.

في الأعلى برز في الكُوّة وجه خزفيّ مُشرقٌ بابتسامة دائرية:

-إي، «د -503»! إلى هنا من فضلك! هنا تَشكّل معنا إطار قاس مع كنصول، واللحظات العقدية تعطي توتّرًا متسارعًا.

اندفعت إليه فوق قبل أن يكمل كلامه- كنتُ أحاول النجاة بشكل مُهين بالهرب. لم أقوَ على رفع عينيّ. كانتا تزغلان من الدرجات الزجاجية اللامعة تحت قدمي. مع كل درجة أرتقيها كان اليأس يتملّكني أكثر فأكثر: لا مكان لي، أنا المجرم المسمّم هنا. لم يعد لي أن أندغم بعد الآن في الإيقاع الآليّ الدقيق، ولا أن أسبح في البحر الصقيل الهادئ. لقد كُتب عليّ أن أتحرّق دائمًا، أن أضرب في الأرض هنا وهناك، أن أبحث عن ركن أخفي فيه عينيّ إلى الأبد، إلى أن آنس في نفسي أخيراً القوّة في المضيّ قُدُمًا.

اخترقتني شرارة جليدية: إذا كان هذا مصيري فلْيكن؛ الأمرُ عندي سِيّان، أمّا هي .. فيجبُ أن أفكّر فيها كذلك وأن ..

انسللت من الكُوّة إلى مقدّمة «التكامل» وتوقّفت: لم أعد أعرف

الآن إلى أين أمضي، ولا أتذكّر سبب مجيئي إلى هنا. نظرت إلى أعلى: كانت هناك الشمس المعذّبة بالضحى تعلو باهتة، وفي الأسفل كان «التكامل» الزجاجيّ الضارب إلى الرماد، الفاقد الحياة. الدم الورديّ سُفح كلّه. واضح بالنسبة إليّ أنّ هذا كله من بنات خيالي وحسب، وأنّ كل شيء باق على حاله، وواضح في الوقت نفسه.

-ماذا، يا «د -503»، هل أصابك الصمم؟ أناديك، أناديك .. ما بك؟

كان الباني الثاني يصرخ مباشرةً فوق أذني، لا بدّ من أنّه كان يصرخ منذ فترة طويلة.

ما بي؟ لقد أضعت المقود. المحرّك يهدر بملء قوّته، المنطاد يهتزّ ويندفع، لكنّ المقود غير موجود وأنا لا أعرف إلى أين يبلغ بي اندفاعي، أإلى أسفل فأتحطّم أرضًا، أم إلى أعلى، حيث الشمسُ والنار؟

*****

المذكّرة السادسة عشرة

الملخّص:

الأصفر. الظلّ ذو البعدين. نفس لا شفاء لها.

لم أدوّن شيئًا لبضعة أيّام لا أعرف عددها. فالأيّام كلّها واحدةٌ، كلّها بلونٍ واحد - الأصفر، كالرمل الجافّ المحترق حيث لا امتداد ظلّ، ولا قطرة ماء، بل رمل أصفر لا نهاية له. وأنا لا أستطيع من دونها، أمّا هي: فمنذ أن اختفت على ذلك النحو غير المفهوم في البيت القديم حينئذٍ..

منذ تلك الفترة، لم أرَها إلّا مرّة واحدةً في النزهة. منذ يومين أو ثلاثة أو أربعة لا أدري، فالأيّام كلّها واحدة، لاحتْ، خلال ثانية واحدة، ملأت العالم الأصفر الخاوي. كان يسير معها واليد باليد ذو الانحناءة المزدوجة، وهو لا يكاد يبلغ كتفها، والطبيب الورقيّ النحيل، وثالثٌ لا أعرفه، بل أذكر منه أصابعه وحسب؛ فقد كانت تخرج من كُمَّي لباسه الموحّد كحزمتي أشعّة نحيلتين بيضاوين طويلتين بشكل غير اعتيادي. رفعت «م» يدها ملوّحة بها، ثم مالت من فوق رأس S على ذاك، ذي الأصابع الأشعّة، وتناهتْ إليّ كلمة «تكامل». التفت الأربعة كلّهم نحوي، وما لبثوا أن ضاعوا في السماء الزرقاء الضاربة إلى اللون الرمادي، ومن جديد لم يعد أمامي إلا طريقٌ أصفر جافّ.

كانت معها بطاقة وردية على اسمي لمساء يومئذٍ. وقفتُ أمام المرقّم أتوسّل إليه برقّة وبحقد أن يفرقع، أن يظهر في القطع الأبيض فورًا

رقم «م –330». كان الباب يُصفق، ويخرج من المصعد أناس شاحبون طويلون، ورديّون، سمر، وتنزل الستائر من حولي، ولم تكن هي فيهم، لم تأت.

قد تكون في هذه الدقيقة ذاتِها، في الساعة 22 تمامًا في أثناء كتابتي ما أكتب، تستند إلى كتف شخص آخر مغمضة العينين، وتسائله كذلك: «هل تحبّ»؟ لمن تقول هذا يا ترى؟ من هو؟ أيكون ذاك، ذا الأصابع الأشعّة، أم «ر» ذا الشفتين الغليظتين الذي يرشّ الرذاذ، أم «S»؟

«S» .. لماذا أسمع خلفي طَوال الأيام الماضية خطواته المفلطحة الخافقة كما في مخاضة؟ لماذا تراه طَوال الأيام الماضية يقتفي أثري مثل ظلّي؟ مِن أمام، مِن خلف، إلى جانبي ظلٌّ أزرقُ ضاربٌ إلى اللون الرماديّ ذو بعدين: يعبرون فوقه، يدوسونه لكنّه دائمًا هنا، إلى جانبي، مربوط بحبل سرّي غير مرئي. لعلّ هذا الحبل السري هو «م»؟ لا أدري. أو ربّما هم الحرّاس، قد عرفوا أنّني ..

لو يُقال لكم: إنّ ظلّكم يراكم، يراكم طَوال الوقت، هل تفهمون؟ وفجأة ينتابكم إحساسٌ غريبٌ: أيديكم غريبة عنكم، تعيقكم، فأنتبه إلى أنّني أطوّح بيديّ بسخف، بحركة غير موقّعة مع خطاي. أوَتشعر فجأة أنّه ينبغي لك أن تلتفت؟ لكنّ الالتفات غير ممكن، غير ممكن بأيّ شكل كان، فرقبتك مسمّرة، وأروح أركض، أركض أسرع فأسرع، وأشعر في ظهري أنّ الظلّ يسرع هو الآخر في إثري، وليس لي منه مفرّ، ليس لي منه مفرّ.

وها أنا ذا وحدي أخيرًا في غرفتي. لكن هنا شيء آخر –الهاتف. ومرّة أخرى رفعت السمّاعة:

– نعم، «م –330» من فضلك .. ومن جديد في السمّاعة ضوضاء

خفيفة. خطواتُ شخص ما في الممرّ حذوَ أبواب غرفتها وصمتٌ .. رميت السمّاعة ولم أعد أحتمل أكثر، لم أعد أحتمل أكثر. إلى هنا، إليها!

حدث هذا البارحة. هرعت إلى هناك وبقيت ساعة كاملة، من 16 إلى 17، وأنا أهيم قرب البيت الذي تسكنه. إلى جانبي الأرقامُ صفوف. آلاف الأرجل كانت تنثال في إيقاع واحد، تنّين بحريّ بمليون رجل كان يسبح إلى جانبي متمايلًا. وأنا وحدي مَن ألقت به العاصفة في جزيرة غير مأهولة، وأروح أبحث بعينيّ في الأمواج الزرق الضاربة إلى اللون الرمادي.

لعلّها تطالعني الآن من مكانٍ ما، أيًّا كان، الزاوية الحادّة الساخرة للحاجبين المشدودين إلى الصدغين ونافذتا العينين العاتمتين، ويستعر هناك في الداخل موقد، وتتحرّك أطياف. وأندفع أنا إلى هنا، إلى الداخل، وأقول لها: «أنتِ»، سأقول لها: «أنتِ» بصيغة المفرد بالضرورة: «أنتِ تعرفين أنّني لا أستطيع من دونك، فلماذا إذن، لماذا؟»‌.

لكنّها تلتزم الصمت. وفجأة أسمع الصمت، فجأة أسمع المصنع الموسيقيّ وأدرك: الساعة تجاوزت السابعة عشْرة. غادروا جميعًا منذ فترة طويلة، وأنا هنا وحدي، تأخّرت. حولي صحراء زجاجية مغمورة بشمس صفراء. ورأيت الجدران اللامعة تنعكس على السطح الزجاجيّ كما على صفحة الماء مقلوبة، ورأيتني أنا كذلك مُعلّقًا من رجلي بشكل مقلوب مضحك.

عليّ أن أمضي بسرعة، في هذه الثانية، إلى المكتب الطبّيّ للحصول على تقرير يفيدُ بأنّني مريض وإلّا أخذوني، و .. وربّما هذا أفضل: البقاء هنا والانتظار بهدوء إلى أن يروني وينقلوني إلى غرفة العمليات فأنهي هذا كلّه دفعة واحدة، أكفّر عن هذا كلّه دفعة واحدة.

حفيف حفيف، وإذا بظلّي المزدوج الانحناءة أمامي. شعرت، من دون أن أنظر، كيف انغرز في داخلي بسرعة مثقّبان فولاذيّان رماديّان. ابتسمت مستجمعًا قواي كلّها، وقلت، إذ لا مناصَ من قول شيء، أيّ شيء:

-يجب .. يجب أن أذهب إلى المكتب الطبّي.

-ما الأمر؟ لماذا تقفُ هنا؟

أنا المقلوب بسخافة، المعلّق من رجليه، لزمت الصمت، وأنا أحمرّ من الخجل.

-اتبعني .. قال «S» بصوت صارم.

تبعته صاغرًا، وأنا ألوّح بيدين زائدتين غريبتين. كان يتعذّر عليّ رفع نظري، فقد كنت أطير طوال الوقت في عالم متوحّش مقلوب على رأسه. ها هي ذي الآلات قواعدها في الأعلى، والناس ملصقو الأرجل بالسقف، ومن تحت، السماءُ مكبّلة بزجاج الطريق السميك. وأذكر: الأسوأ من هذا كلّه أنّني رأيت هذا كلّه للمرّة الأخيرة هكذا، مقلوبًا، ليس على حقيقته. لكن كان يتعذّر عليّ أن أرفع عيني.

توقّفنا. كانت أمامي درجات. إن هي إلّا خطوة، وأرى أشخاصًا في ثياب الأطبّاء البيض والجرس الهائل الأخرس ..

وبجَهدٍ، بمفكّ براغ فككْتَ عينيّ عن الزجاج تحت قدميّ، وفجأة طفرت إلى وجهي مباشرَة أحرف ذهبية «المكتب الطبّي»، لماذا جيءَ بي إلى هنا وليس إلى غرفة العمليّات، لماذا أشفق عليّ ورحمني؟ وقتها لم أفكّر في هذا إطلاقًا. قفزةٌ واحدة عبر الدرجات، وصفقت الباب بقوّة خلفي وتنهّدت. كأنّني منذ الصباح لم أتنفّس ولم يخفق قلبي، حان الوقتُ الآن

لأتنهّد للمرّة الأولى، الآن فقط انبجست في الصدر عين ماء.

كانا اثنين: أحدهما قصيرٌ جدًا ذو رجلين كالمجدال، يرشق المرضى بنظرات عجلى، والآخر نحيف جدًّا ذو عينين لامعتين كالمقصّ، وأنف نصل، إنّه هو نفسه، ذاك.

اندفعت إليه مباشرة كما إلى شخص قريب؛ أشكو له الأرق والأحلام والظلّ والعالم الأصفر. وكانت الشفتان المقصّ تلمعان، تبتسمان.

-حالتك سيئة. يبدو أنّه تشكّلت لديك نفْس.

نفْس؟ هذه الكلمة الغريبة، القديمة، المنسية منذ زمن طويل. كنّا نقول: قتل نفسًا، مطمئنّ النفس، نفس بريئة، أمّا «نفْس» هكذا، ببساطة ..

-وهل هذا أمرٌ خطيرٌ جدًا ؟ – همستُ.

-لا شفاء منه .. قال: المقصّ بشكل قاطع.

-لكن، تحديدًا -ما هي حقيقة الموضوع؟ إنّني .. لا أتصوّرُ ما هذا.

-كيف أقول لك هذا؟ .. ألستَ رياضيًا؟

-بلى.

-انظر إذن. لنأخذ مستوِيًا ما، سطحًا ما، هذه المرآة مثلًا. أنا وأنت على سطحها، ها نحن نزرّ عيوننا من الشمس. وهاك شرارة كهربائية زرقاء في الأنبوب. لقد لاح ظلٌّ منطاد على السطح لثانية واحدة وحسب. لكن، تصوّر أنّ هذا السطح الكتيم لان فجأة ولم يعدْ ينزلق

عليه شيءٌ بفعل نار ما ، بل صار كلّ شيء يخترقه إلى الداخل، إلى عالم المرآة حيث كنا نلقي النظر بفضول ونحن أطفال، والأطفال ليسوا على هذه الدرجة من الغباء، أؤكّد لك. السطح المستوي صار حجمًا، جسمًا، عالـمًا، وتاليًا، الشمس والتيّار المتشكّل من لولب المنطاد، وشفتاك المرتعشتان، وشفاه أخرى كذلك، هذا كلّه يصير في داخل المرآة، في داخلنا. إنّك تفهمني: المرآة الباردة تعكس، تنبذ، أما هذه فتمتصّ، وكلّ شيء يترك أثره فيها إلى الأبد. قد ترى مرّة غضنًا يكاد لا يرى على وجه شخص ما، فإذا بهذا الغضن يستقرّ فيك إلى الأبد، أو تسمع مرّة قطرة ماء تسقط في الصمت، فإذا بك تسمعها الآن ..

-أجل، أجل، ذلك هو، قلتُ وأنا أمسكه من يده. -سمعتُ توًّا قطرات ماء تسقط ببطء في الصمت من صنبور المغسلة، وكنت أعرف أنّ هذا إلى الأبد. لكنْ، لماذا فجأة تتواجدُ «النفس» مع هذا؟ لم تكن موجودة، لم تكن موجودة وفجأة، .. لماذا ليس لأحد نفسٌ ولي ..

تشبّثت بقوّة أكبر باليد النحيلة جدًا: شعرتُ بالخوف من فقد طوق النجاة.

-لماذا؟ لماذا ليس لنا ريش، وليس لنا جناحان، بل اكتفينا بعظمات لوح وحسب، أي قاعدة الجناحين؟ ذلك لأنّه لم تعد هناك حاجة إلى الجناحين، لأنّ هناك المنطاد، وليس من شأن الجناحين سوى الإعاقة. الجناحان للطيران، أمّا نحن، فلم يعد لنا هناك مكان نطير إليه: لقد طرنا ووصلنا، ووجدنا. أليس كذلك؟

أومأت برأسي في ارتباك. تطلّع إليّ وانفجر في ضحكة حادّة مبضعية. ذلك، الآخر، سمع، دبّ من مكتبه على قدمين كقائمتي منضدة، رشق طبيبي النحيل جدًا بنظرة من عينيه ورشقني أنا كذلك.

-فيم الأمر؟ نفْس إذن؟ تقول: نفس؟ الشيطان يعرفُ ما هذا! على هذا المنوال سينتهي بنا الأمر قريبًا إلى الكوليرا ! كم قلت لك (وهنا رشق الطبيب النحيل جدًا بنظرة) كم قلت لك: هذا الخيال .. يجب أن نستأصله منّا جميعًا، وهنا لا تنفع إلّا الجراحة، الجراحة وحدها وحسب!

وضع نظّارته الرينتجينية الضخمة ودار طويلًا حولي، مُدقّقًا النظر عبر عظمات الجمجمة في دماغي ويسجّل في مفكّرة.

-شيء مثير للفضول، مثير جدًّا. اسمع: أتوافقُ على وضعه في الكحول لحفظه؟ سيكون هذا للدولة الواحدة شيئًا خطيرًا .. سيساعدنا على اتّقاء وباء، هذا فيما لو لم تكن لديك أسبابٌ خاصة تحُول بين تمام الأمر وبينك.

-كما ترى، الرقم «د-503» هو باني «التكامل». وأنا واثق بأنّ هذا قد يخلّ ..

-أ، أ- غمغم الطبيب الثاني، ودبّ عائدًا إلى مكتبه.

بقينا وحدنا. لمست اليد الورقية يدي بخفّة، بحنان، وانحنى جانبُ وجهه نحوي، وهمس:

-سأفشي لك سرًّا. هذا ليس عندك وحدك. زميلي لا يتحدّث عن الوباء عبثًا. تذكّر: ألم تلاحظ عند أحد شيئًا ما شبيهًا بهذا، مماثلًا له، قريبًا منه جدًا؟

كان يتكلم وهو يحدّق فيّ. إلام يلمّح، إلى من؟ أو يكون ..

-اسمع، قلتُ وقد وثبت ناهضًا من كرسيّ. لكنّه كان قد أخذ يتكلّم بصوت عال عن شيء آخر:

-... وكعلاج للأرق ولأحلامك هذه أستطيع أن أنصحك بشيءٍ واحد لا غير: الإكثار من المشي، وابدأ منذ صباح الغد. تمشّى حتى ولو إلى البيت القديم.

ومرّة أخرى وخزني بعينيه، وابتسم ابتسامة لم أر أرقّ منها. بدا لي أنّني رأيت بوضوح كامل كلمةً، حرفًا، اسمًا -اسمًا وحيدًا -ملفوفًا بالغشاء الرقيق لهذه الابتسامة.. أم أنّ هذا من صنع الخيال مرّة أخرى؟ انتظرتُ بفارغ الصبر حتى كتب لي إجازة مرضية لهذا اليوم والذي بعده. مرّة أخرى شددت على يده بقوّة، وهرعت عدْوًا نحو الخارج.

القلب خفيف، سريع كالمنطاد يحملني منطلقًا إلى فوق. كنت أعرف: غداً تنتظرني فرحة، لكن أيّة فرحة هذه يا ترى؟

*****

المذكّرة السابعة عشرة

الملخّص:

عبر الزجاج. مثُّ. الممرّات.

أنا في حَيرةٍ وانشغالِ بالٍ تامَّين. البارحة، في لحظة اعتقدتُ أنّ المجاهيلَ كلّها قد استوفت حلولَها، لكنْ ظهرت في معادلتي مجاهيلُ جديدة.

البيت القديم هو بداية الإحداثيّات في هذه القصّة كلّها طبعًا، ومنه تنطلقُ محاور المجاهيل المختلفة التي بُني عليها عالمي كلّه منذ أمدٍ غير بعيد. كنت أسير على قدميّ عند محور الشارع التاسع والخمسين مُتوجّهًا إلى بداية الإحداثيّات. ما حدث لي أمس، كان يصطخب في داخلي تيّارًا مختلطًا: البيوت، والناس المقلوبة، الأيدي الغريبة بشكل مؤلم، المقصّات اللامعة، القطرات المنسكبة بحدّة من المغسلة. هذا ما كان ذات مرّة، وهذا كلّه ممزقًا اللحم يدومّ هناك تحت السطح الـمُذاب بالنار، هناك حيث «النفس».

ولكي أنفّذ تعليمات الدكتور اخترتُ مُتعمّدًا طريقي حسب الضلعين في مثلّث قائم الزاوية وليس حسب الوتر. وها هو ذا الضلع الثاني، طريق دائري عند قاعدة السور الأخضر. من البحر الأخضر الواسع الواقع وراء السور، كانت تكرّ عليّ موجة وحشية من الجذور والأزهار والأغصان والأوراق، ثمّ إذا بها تشبّ وتكاد تلطمني. فأتحوّل

من إنسان هو أدقّ الآلات وأرقّها إلى ..

لكنْ، لحسن الحظّ، بيني وبين البحر الأخضر الوحشيّ زجاج السور. فيا لحكمة الأسوار والحواجز العظيمة المقيمةِ للحدّ بشكل إلهي! قد تكونُ هذه أعظم المبتكرات كلّها. فالإنسان لم يكفّ عن كونه حيوانًا متوحّشًا إلّا حين بنينا السور الأخضر، فضربَ هذا السور بين عالمنا الآليّ الكامل وعالمَ الأشجار والطيور والحيوانات القبيح، الذي لا يحكمُه المنطق.

عبر الزجاج، تراءى لي بشكل ضبابي باهت بوزُ حيوان بليد، وعينان صفراوان تُبدئان وتعيدان فكرة واحدةً، لا أعرفُ لها معنى. حدّق أحدُنا بعنادٍ في عينيّ الآخر طويلًا، في هذين المنجمين: عالم على السطح، وآخر تحته. وأَجَّ شيءٌ ما في داخلي: «أيكونُ أصفر العينين هذا القابع في كومة أوراقه السخيفة القذرة، في حياته غير المحسوبة، فجأةً أسعد منّا؟»

لوّحتُ بيدي، غمزَت العينان الصفراوان، تراجعتا واختفتا بين الأوراق. يا له من كائن تعس! أيّ عبث هذا: هو أسعد منّا! قد يكون أسعد منّي حتى، نعم هذا أمرٌ وارد، فحالتي حالةٌ شاذّة، أنا مريض.

ثمّ إنّني ..، لكنْ ها أنا ذا، أرى جدران البيت القديم الحمر الداكنة، وفم العجوز اللطيف المطبق. واندفعت إلى العجوز بقواي كلّها:

-أهي هنا؟

انفتح الفم المطبق ببطء:

-ومن هي هذه؟

-مَنْ، مَنْ؟ «م» طبعًا .. أتيتُ معها آنذاك، بالمنطاد ..

-نعم، نعم، نعم ..

الغضون الأشعّة عند الشفتين، وأشعّة ماكرة من العينين الصفراوين، تتوغّل في داخلي أعمق فأعمق .. وأخيرًا:

-حسنًا .. هنا، مرّت من هنا منذ هُنيهة.

هنا. ورأيت عند قدمَي العجوز شُجيرةً من نبات الشيح الفضّيّ المرّ، فناء البيت القديم هو نفسه المتحف إيّاه، وقد حوفظ عليه بعناية في شكله ما قبل التاريخيّ، وقد مدّ الشيح أملودًا على يد العجوز، والعجوز تمسح بيدها على الأملود، وعلى ركبتها شريطٌ أصفر من شعاع الشمس. وللحظة واحدة صرتُ أنا، والشمس، والعجوز، ونبتة الشيح، والعينان الصفراوان، كلًّا واحدًا تربط بيننا ربطًا وثيقًا عروقٌ خفية، وفي العروق دم واحد مشترك فائر، مجيد ..

أشعر بالخجل الآن من الكتابة في هذا الأمر، لكنّني عاهدتُ نفسي أن أكون صريحًا غاية الصراحة في هذه المذكّرات، وعليه أقول: انحنيت وقبّلت الفم الطحلبيّ الرخو المطبق. مسحت العجوز وجهها، وضحكت ..

ولا أدري لماذا اندفعتُ أركض عبر الغرف الأليفة، نصف الضيّقة، المدوّية إلى هناك، إلى غرفة النوم مباشرة! خطر لي فجأة عند الباب وقد أمسكت بمقبضه: «وماذا إن لم تكن هنا؟»

سكنت وألقيت السمع، لكنّني لم أسمع سوى شيء واحد، قلبي كان يخفقُ في مكان ما إلى جانبي، ليس في داخلي، بل في مكان ما حولي.

دخلتُ. سرير عريض مرتّب لم يمسّه أحد، ومرآة، ثم أخرى في باب الخزانة، وفي ثقب الباب المفتاح ذو الحلقة القديمة. ولا أحد هناك.

ناديتُ بصوت خفيض:

-«م» ... أأنتِ هنا!

-ثمّ بصوت أخفض وعينين مُغمضتين حابسًا أنفاسي، وكأنّني جاثٍ على ركبتيّ أمامَها: «م» .. أيّتها الغالية!

الصمت مطبِق لا يخترقه إلّا صوت قطرات الماء تنسكب متواليةً من الصنبور في حوض المغسلة. لا أستطيعُ تفسير السبب الآن، إلّا أنّني شعرت بالانزعاج. حينذاك، سددتُ الصنبورَ وخرجتُ. واضحٌ أنّها ليست هنا، هي في «شقّة» أخرى إذن.

هبطت الدرجات العريضة العاتمة بسرعة، دفعتُ بابًا بادئ الأمر، فثانيًا فثالثًا، الأبوابُ مقفلةٌ كلّها إلّا ذلك الباب، باب شقّتنا التي ليس فيها أحد.

ومع ذلك، عدتُ مرّةً أخرى إلى هناك من دون أن أستبينَ السبب. كنت أسير ببطء وصعوبة، فقد أحسستُ أنّ نَعْلَيّ صارتا فجأةً من حديد. وأذكر تمامًا أنّ فكرةً راودتني: «غير صحيح أنّ قوّة الثقل ثابتة، وعليه، فصيغي كلّها ..»

وهنا حدث انقطاع: ففي الأسفل تمامًا صُفقَ باب، ودبّ شخص ما بسرعة فوق البلاط. اندفعتُ وقد عدتُ من جديد خفيفًا، خفيفًا جدًا، إلى الدرابزين لأنحني فوقه وأقول في كلمة واحدة وفي صرخة واحدة: «أنتِ» كلّ شيء ..

وتجمّدتُ، كان رأس «S» المرتسم في المربّع العاتم لظلّ إطار النافذة يندفع نحو الأسفل، وهو يخفق بأذنيه الجناحين الورديّتين.

وكالبرقِ سرعةً، لمعَ استنتاجٌ وحيدٌ عارٍ، من دون مقدّمات، (إلى الآن لا أعرف المقدّمات) : «لا ينبغي له، مهما كلّف الأمرُ، أن يراني».

انسللت على أصابع قدميّ مُلتصقًا بالجدار إلى أعلى، إلى تلك الشقّة غير المقفلة: تمهّلتُ عند الباب لحظة. كان ذاك يدبّ دبيبًا ثقيلًا إلى أعلى، إلى هنا. لو أنّ الباب فقط ... !

كنتُ أتوسّل إلى الباب، لكنّه من خشب، فصرَّ وأزّ. الأخضر، الأحمر، بوذا الأصفر، كتيّار مندفع مرّت إلى جانبي، فإذا أنا أمام مرآة باب الخزانة: وجه شاحبٌ وعينان متربّصتان، وشفتان .. وأسمعُ من خلال غليان دمي الباب يصرُّ مرّة أخرى .. إنّه هو، هو.

أمسكتُ بمفتاح باب الخزانة فإذا بالحلقة تهتزّ. وذكّرني هذا بشيء ما، باستنتاج فوري، عارٍ، من دون مقدّمات في هذه المرّة كذلك، بل قل بشظية: في تلك المرّة كذلك، فتحت الباب سريعًا، فإذا أنا داخل الخزانة في الظلام. أغلقت الباب بإحكام. وتناهى إليّ وقع خطوة أخرى، فتحرّكَ شيءٌ ما تحت قدمي، وسبحتُ ببطء، برفق إلى مكان في الأسفل وغامت عيناي. لقد مُتُّ!

*****

عندما كان عليّ تدوينُ هذه الأحداث الغريبة كلّها فيما بعد، نقّبت في ذاكرتي وفي الكتب، وفهمتُ أنّها كانت حالة وفاة مؤقّتة معروفة تمامًا لدى الأقدمين، مجهولة عندنا تمامًا حسْبَ ما بلغه علمي.

لا أدري كم بقيتُ ميتًا، أغلبُ الظنّ أنّني بقيتُ كذلك خمس ثوان

إلى عشر، لكنّني، بعد برهةٍ، بُعِثتُ من جديد. فتحت عينيّ: ظلامٌ، وشعورٌ يهوي بي إلى أسفل، إلى أسفل. مددتُ يدي، أمسكت بشيءٍ ما، خدشني جدار الباب الـمُفلتُ الخشن، لاح دم على إصبعي. واضح أنّ هذا كلّه ليس من تأثير خيالي المريض. لكنْ ما تُراه يكون؟

كنت أسمع صوت نَفَسي المرتعش المتقطّع. (أخجل من الاعتراف بهذا؛ لكنّه كان أمرًا غير متوقّع وغير مفهوم إطلاقًا). دقيقة، اثنتان، ثلاث، وكلّ شيء يهوي بي، أخيرًا رجّة ناعمة: ما كان يهوي صار ثابتًا الآن. تحسّست في الظلام شيئًا كأنّه مقبض، دفعتُه، فُتح بابٌ، فلاحَ ضوءٌ خافت. ورأيتُ اندفاع عربة سطح مربّعة صغيرة من خلفي. وانطلقتُ في إثرها، لكنّ الميعاد فاتني: بقيت مقطوعًا هنا. لكن أين «هنا» هذه؟ لا أدري.

ممرّ، صمتٌ ثقيل ثقيل، ومصابيح صغيرة، خطٌّ لا نهاية له من نقط راعشة ذات بصيص خافت على قباب دائرية. كان هذا أشبه شيء «بأنابيب» أنفاقنا، لكنّه كان أضيق منها كثيرًا، وليس مصنوعًا من زجاجنا بل من مادّة أخرى قديمة جدًّا. وخطرتْ لي فكرة عن الأنفاق: يُزعم أن الناس كانت تلتجئ إليها في أثناء حرب المئتي عام ..

على أيّة حال، يجبُ عليّ أن أتابع المسير، وتابعته، كما أفترض، نحو عشرين دقيقة. انعطفت يمينًا فإذا الممرّ يصبحُ أفسح، كذلك المصابيح صارت أشدّ لمعانًا، ولغَط مبهم، ربّما آلات أو أصوات، لا أدري، لكنّني وجدتُ نفسي قرب باب ثقيل صفيق، كان اللغط مَبعثُه من هناك.

طرقت الباب طرقة ثم أتبعتها بأخرى أقوى من الأولى. سكتّ، كل شيء وراء الباب، ثم اصطكّ شيءٌ ما، وانشقّ الباب ببطءٍ وتثاقل.

لا أدري أيُّنا بُهت أكثر، فقد كان طبيبي النحيل جدًّا ذو الأنف

النصليّ، أمامي.

-أأنتَ؟ هنا؟ - واصطكّ مقصّه بعنف.

أمّا أنا، أمّا أنا فكأنّني لم أعرف في حياتي كلمة إنسانية واحدة: انعقد لساني وأنا أحملق فيه من دون أن أفقه شيئًا ممّا يقول. لا بدّ أنه كان عليّ أن أخرج من هنا، ذلك لأنّه دفعني بعد ذلك ببطنه الورقيّ المسطّح سريعًا إلى آخر القسم المضاء أكثر من غيره من أقسام الممرّ، ثم دفعني من ظهري.

-عفوًا، كنتُ أريد .. ظننتُ أنّها هي، «م -330». لكنْ تبيّنَ ورائي أنّه كان ..

-قفْ مكانك، قال الدكتور بلهجةٍ قاطعة واختفى.

وأخيرًا، أخيرًا. ها هي ذي إلى جانبي هنا، أوليس سواءً أين «هنا» هذه؟ الحرير الأصفر الزعفرانيّ الأليف، والابتسامة اللسعة، والعينان المسدلتا الستارة .. شفتاي ترتعشان، يداي ترتعشان، ركبتاي ترتعشان، وفي رأسي تدور فكرة هي أغبى ما يكون:

«الاهتزاز صوت. الرعشة يجب أن تُحدث صوتًا. فلماذا لا أسمع شيئًا؟»

انفتحت لي عيناها على اتّساعهما ودخلتُ فيهما ..

-لم أطق صبرًا أكثر من هذا! أين كنت؟ ولماذا؟

كنت أتكلّم كمن يهذي؛ في سرعة وغير ترابط، ومن دون أن أرفع عنها عينيّ ثانيةً واحدة، أو ربّما كنتُ أفكّر وحسب، لا أدري: الظل كان يتبعني .. متُّ .. من الخزانة. لأنّ صاحبك هذا قال بشكل قاطع:

لي نفْس .. نفْس لا شفاء لها.

-نفْس لا شفاء لها! يا مسكيني الصغير!

قهقهت «م» ورشّتني برذاذٍ من ضحِكِها: هذياني كلّه انتهى، ومن حولي أخذت ضحكاتها تضيء، ترنّ في مسمعي. ما أروعَ هذا كلّه وما أحلاه!

انسلَّ الدكتورُ مرّة أخرى من الركن، رائعًا جليلًا نحيلًا جدًّا.

-ماذا؟ - قال وقد وقف إلى جانبها.

-لا شيء، لا شيء. سأخبرك فيما بعد. إنّها مصادفة. قل لهم إنّني سأعود بعد .. خمس عشرة دقيقة تقريبًا.

لاحَ طيف الدكتور من وراء الزاوية وكانت تنتظر. صفق الباب صفقة مكتومة، وعندها التصقت «م» بكتفها، بذراعها بكِيانها كلّه بي، غارزةً في قلبي إبرةً حادّةً شهية على مهل، على مهل شديد، على مهل أعمق فأعمق. ورحنا معًا، أنا وهي، اثنان حللنا واحدًا.

لا أدري أين انعطفنا إلى مكان مظلم، وأخذنا نرقى في الظلمة بصمت، درجات تصعد إلى أعلى بلا نهاية. لم أكن أرى، لكنّني كنت أعرف أنّها كانت تمضي مثلي بعينين مغمضتين، عمياء، رافعة رأسها، عاضّة شفتيها، وهي تستمتع إلى موسيقى، إلى ارتعاشاتي التي لا تكاد تسمعها:

عدتُ إلى وعيي عند ركن من أركان فناء البيت القديم التي لا عدّ لها: سورٌ، ومن الأرض تبرز أضلاع حجرية عارية، وأسنان صفراء لجدران منهارة. فتحت عينيها وقالت: «بعد غد في الساعة ١٦»،

ومضت وحيدة.

هل حدثَ هذا كلّه حقيقةً؟ لا أدري، سأعرف بعد غد. الأثرُ الفعلي الباقي الوحيد هو انسلاخ الجلد في اليد اليمنى على أطراف الأنامل. لكنّني اليوم ونحن في «التكامل»؛ زعم لي الباني الثاني أنّه رأى بنفسه كيف مسَسْت بأصابعي هذه، الطَوق المشحوذ عرَضًا، وهذا كلّ ما في الأمر. وماذا؟ يُمكن، يُمكن أنّ هذا ما حدث. لا أدري، لا أدري شيئًا.

*****

المذكّرة الثامنة عشرة

الملخّص:

المتاهات المنطقية. جراح ومرهم. أبدًا بعد اليوم.

استلقيتُ أمس، حالًا غصت في قاع النوم كسفينة انقلبت بحملها الثقيل. صفحة ماء أخضر أصمّ متماوج. وها أنا ذا أطفو شيئًا فشيئًا من القاع إلى السطح. وفي مكان ما في منتصف العمق أفتح عينيّ. ها هي ذي غرفتي، وها هو ذا الصباح المتجمّد الذي لا يزال ضاربًا إلى الخضرة. على مرآة باب الخزانة شظية شمس تسقط مباشرةً على عينيّ، وهذا يعيق تنفيذ ساعات النوم المقرّرة من قبل اللوح تنفيذًا كاملًا. الأفضل أن أفتح الخزانة، لكنّني أنا كلّي كما في شبكة عنكبوت، والعنكبوت في عينيّ، ولستُ أقدرُ على النهوض.

مع هذا نهضت، فتحت عينيّ، فجأةً خلف الباب ذي المرآة كانت «م» وردية، وهي تضعُ ثوبها. لقد صرت الآن معتادًا على أكثر الأشياء لا معقولية. على ما أذكره، لم أدهش أبدًا، حتى إنّني ما استفسرتُ عن الأمر، بل اندفعت نحو الخزانة، وخبطت ورائي بابها ذا المرآة، واتّحدتُ وأنا ألهث في سرعة ونهم وعلى العمياء بـ «م». ورأيت في الظلام - خلال شقّ الباب، كأنّني أراه الآن - شعاعَ شمس حادٌّ ينكسر برقًا على الأرض على جانب الخزانة، ثمّ يعلو ويعلو، وها هو ذا النصل القاسي اللامع يسقط على جِيد «م» العاري الملقى خلفًا. كان في هذا شيء روّعني إذ لم أحتمل؛ فصرخت، وفتحت عينيّ مرّة أخرى.

غرفتي. صباح متجمّد لا يزال أخضر. على باب الخزانة شظية شمس. وأنا في سريري، أحلم. لكنّ القلب لا يزال ينبض بعنف، ينتفض وينضح، وفي أطراف الأصابع والرقبتين خدر. لقد حدث هذا، أفي ذلك شكّ؟ وأنا الآن لا أعرف تمييز اليقظة من الحلم. القيم اللامعقولة تنمو من خلال كلّ ما هو ثابت، مألوف، ثلاثيّ الأبعاد، وبدلاً من السطوح الصلبة الصقيلة لا ترى حولك إلّا كلّ ما هو ملتوٍ، أشعث.

لا يزال الوقت طويلًا حتى يقرع الجرس. كنتُ مستلقيًا في فراشي وأنا أفكّر، وكانت سلسلة منطقية غريبة الغرابة كلّها، تتفكّك.

كلّ معادلة، كلّ صيغة في عالم السطوح يقابلها خطٌّ مُنحنٍ أو جسم. لكنّنا لا نعرف للصيغ المستحيلة، لمعادلتي $\sqrt{-1}$ أجسامًا مناسبة ولم نرها أبدًا، لكن الـمُفزعَ في هذا أنّ هذه الأجسام غير المرئية موجودة. يجب ضرورة أن تكون موجودة، لأنّه في الرياضيات كما على شاشة تمرّ من أمامنا ظلالها الغريبة الشائكة التي هي الصيغ اللامعقولة. فالرياضيات والموت لا يُخطئان بتاتًا. وإذا كنّا لا نرى هذه الأجسام في عالمنا، على السطح، فإنّ لها - ضرورةً يجبُ أن يكون لها - هناك تحت السطح عالم ضخم كامل.

وثَبتُ من سريري من دون انتظار قرع الجرس، وأخذت أروح وأجيء سريعًا في الغرفة. رياضيّاتي، التي هي الجزيرة الوحيدة الثابتة والراسخة في حياتي التائهة كلّها، انسلخت هي الأخرى، عامتْ، دخلت في دوّامة. معنى هذا أنّ «النفس» السخيفة هذه حقيقة كلباسي، كجزمتي مع أنّني لا أراهما الآن، فهما خلف باب الخزانة ذي المرآة، وإذا لم تكن الجزمة مرضًا، فلمَ تكون «النفس» مرضًا؟

بحثت، بحثتُ من دون العثور على مخرج من المتاهة المنطقية الوحشية. كانت هذه متاهة مجهولة وفظيعة كتلك التي وراء السور الأخضر، وكانت كتلك: كائنات غير مألوفة وغير مفهومة تُفصح من دون كلمات. وخُيّل إليّ أنّني أرى -من خلال زجاج سميك- شيئًا لا مُتناهيًا في كِبَره، وفي الوقت ذاته لا متناهيًا في صغره، شبيهًا بعقرب ذات إبرة، إشارة ناقصٍ مخفية دائمًا، إنّما مشعور بها، وهذا الشيء هو المعادلة $\sqrt{-1}$. أوَيكونُ هذا ليس سوى «نفسي»؟ كما تلك العقرب الأسطورية عند الأقدمين الذين كانوا يلدغون طوعًا أنفسهم بكلّ ما ..

الجرس، إنّه النهار. وهذا كلّه من دون أن أموت أو أضمحلّ، إنّما كلّه مغطّى قليلًا بضوء النهار، كالأشياء المرئية تحجبُها عتمة الليل مساءً من دون أن تموت. في رأسي ضباب خفيف لزج، من خلال الضباب طاولات زجاجية، طويلة، ورؤوس كالكرات تمضغ ببطء، بصمت، بإيقاع واحد. ومن بعيد، من خلال الضباب تدقّ مؤقّتةٌ موسيقية. وعلى أنغام هذه الموسيقى المألوفة المدغدغة أَعدّ آليًا، مع آخرين حتى الخمسين، التي هي عدد حركات المضغ المقرّرة قانونًا لكلّ قطعة. ثمّ أهبط آليًا، موقّعًا خطواتي، إلى أسفل، وأسجّل اسمي في سجلّ الخارجين -مثل جميعهم تمامًا. لكنّني أشعر أنّني بمعزل عنهم، أعيش وحدي مفصولًا بجدار ناعم يمتصّ الأصوات، وخلف هذا الجدار عالَم آخر.

لكنْ، إذا كان هذا العالم هو عالمي وحدي، فلماذا يكونُ حاضرًا في هذه المذكّرات؟ علام هذه «الأحلام» السخيفة والخُزُن والممرّات التي لا نهاية لها هنا؟ إنّني لأرى بأسَى أنّه بدل أن تخرج من بين يديّ قصيدة جزلة، رياضية خالصة لشرف الدولة الواحدة، تخرج رواية مغامرات خيالية. وحبّذا لو كانت حقيقةً روايةً وحسب، وليست حياتي الحاضرة تلك، المملوءة بالمجاهيل، والمعادلات من نوع: ١▯، وبالسقوطات.

وعلى أيّة حال قد يكون هذا للأفضل، فالراجحُ أنكم - يا قرّائي المجهولين - أطفالٌ بالنسبة إلينا (فنحن قد أنشأتنا الدولة الواحدة وتعهّدتنا برعايتها، ولذلك بلغنا أعلى ذُرى يمكن لإنسانٍ ما بلوغَها). وبوصفكم أطفالًا يمكنكم أن تبلغوا من دون صراخ هذه الأشياء المريرة كلّها التي أقدّمها إليكم حين يغلَّف هذا كلّه بعناية، بغلاف سميك من شراب المغامرات ..

مساءً:

هل تعرفون هذا الشعور حين تنطلق بالمنطاد إلى الجوّ في خط حلزونيّ أزرق، والنافذة مفتوحة، والتيّار يصفر في وجهك؟ حين لا يعود للأرض وجود، حين تنسى الأرض، فالأرضُ بعيدة عنك بُعْدَ عطارد والمرّيخ والزهرة؟ هكذا أعيش الآن. التيّار يصفع وجهي، نسيتُ الأرض، نسيت «ف» العزيزة، الوردية، لكنّ الأرض موجودة مع هذا، وطال الوقت أم قصُر يجب أن تحطّ عليها، وأنا لا أفعل سوى إغماض عينيّ عن ذلك اليوم المسجّل فيه اسمها، اسم «ف -90»، على لوحتي الجنسية.

اليوم مساءً، ذكّرتني الأرض البعيدة بنفسها.

تنفيذًا لتعليمات الدكتور (فأنا أريد صادقًا، صادقًا الصدق كلّه ، أن أشفى) تسكّعت ساعتين كاملتين في صحاري الشوارع الزجاجية، المستقيمة. كان جميعُهم حسب تعليمات اللوح في قاعاتهم، وأنا وحدي. كان هذا، في حقيقة الأمر، منظرًا مخالفًا للطبيعة: تصوّروا إصبعًا إنسانيًا مقطوعًا عن كلّ، عن اليد. إصبعًا إنسانيًا مفصولًا منحنيًا يسرع قفزًا على الرصيف الزجاجيّ. هذا الإصبع هو أنا، وأغرب ما في الأمر وأكثره مخالفة للطبيعة، أنّ الإصبع لا يرغب في أن يلتحمَ مع الآخرين:

إمّا أن أكون هكذا، وحدي أو مع .. أجل، ليس لي ما أخفيه أكثر من ذلك: أو معها، مع تلك، ساكبًا فيها كما في المرّة السابقة ذاتي كلّها من خلال الكتف، من خلال أصابع اليدين المشبوكة ..

عدتُ إلى البيت عندما كانت الشمس تميلُ نحو المغيب. رمادٌ مسائيّ ورديّ على زجاج الجدران، على ذهب قبّة برج المكثّفات، على أصوات من تلقاه من الأرقام وابتساماتهم: أليس غريبًا أن تسقط أشعّة الشمس المنطفئة في الزاوية نفسِها التي سقطت فيها أشعّتها المتوهّجة صباحًا؟ مع هذا، كلّ شيء مختلف تمامًا، ومختلف هذا اللون الورديّ الهادئ جدًّا الآن، المائل قليلًا إلى المرارة والذي سيكون في الصباح مرنانًا، لاذعًا من جديد.

أسفل، في البهو ها هي ذي المراقبة تسحب من تحت كَومة من المغلّفات المغطّاة برماد ورديّ رسالة، وتُناولني إيّاها. أكرّر: «خ» امرأة محترمة جدًّا، وأنا متأكّد أنها تُكنّ لي أفضل المشاعر.

مع هذا، ففي كلّ مرّة أرى فيها هذين الخدّين المتدلّيين الشبيهين بالغلصمين، أشعر لسببٍ ما بعدم الارتياح.

تنهّدت «خ»، وهي تمدّ لي يدها الجافّة العقداء برسالة. لكنّ هذه التنهيدة لم تفعل سوى أن حرّكت قليلًا الستارة التي كانت تفصلني عن العالم: كنت كلّي مُبَرْمجًا على المغلّف المرتعش بين يديّ حيث كانت لي فيه، ولم أشكّ في هذا قطّ، رسالة من «م».

هنا نّدت تنهيدة ثانية مشدّدٌ عليها بوضوح عظيم، وانسلختُ من المغلّف ورأيت: بين الغلصمين، وعبر فتحتي العينين المسدلتين الخجولتين ابتسامة رقيقة، غامرة، باهرة. ثمّ:

-مسكين أنت، مسكين. -قالت وقد أرسلت تنهيدة أبعد أثرًا من التنهيدة الثانية، مع إيماءة إلى الرسالة تكاد لا تُلحظ (كانت تعرف أكيدًا مضمون الرسالة، فهذا من واجبها).

-لا، حقًّا أنا .. لماذا؟

-لا، لا يا عزيزي، أنا أَعرفُ بك من نفسك. منذ فترة وأنا أراقبك، أرى أنّه في هذه الحياة، يجب أن يضع يده في يدك شخصٌ عركَ الحياة سنين طويلةً وخبِرها.

شعرت بأنّ ابتسامتها غمرتني، إنّها المرهم لتلك الجراح التي ستُثخنني بها هذه الرسالة المرتعشة بين يديّ. وأخيرًا، قالت عبر الفتحتين الخجولتين بصوت خافت:

-سأفكّر يا عزيزي، سأفكّر. اطمئنّ: إذا شعرتُ بأنّني على قدْرٍ كافٍ من القوّة. لكنْ لا، لا، يجب أن أفكّر أولًا.

أيّها المحسن العظيم! أوَيكون كُتِب عليّ .. أو تريدُ حقًّا أن تقول لي إنّ ..

في عينيّ زيغٌ واضطراب، آلاف المنحنيات الجيبية، الرسالة تتواثبُ بين يديّ. اقتربت أكثر من الضوء، من الجدار. كانت الشمسُ تنطفئُ هناك، وكان يُذَرُّ عليّ، على الأرض، على يديّ، على الرسالة، وبكثافة متزايدة: رمادٌ ورديٌّ قاتمٌ حزين.

مزّقت الغلاف، أوّل ما لمحتُ التوقيع. وانفتح جرحٌ: لم تكن «م» بل «ف». ثم انفتح جرحٌ آخر: أسفل الورقة وفي زاويتها اليمنى انداحت نقطة حبر. سقطت وانداحت .. أنا لا أحتمل النقط أيًّا كانت: سواءً نقط الحبر أم أيّ شيء آخر. وأعرف يقينًا أنّني فيما مضى، ما كنت

لأستلطف هذه النقطة المزعجة، وما كانت عيناي لترتاحا إليها. لكن، لماذا هذه البقعة الصغيرة الرمادية الآن مثل غمامة؟ وبسبب هذه الغمامة يزداد كلُّ شيء قتامة وثقلًا؟ أم أنّ هذه هي «النفس» مرّة أخرى؟

الرسالة:

«عرفتَ أم لم تعرف، فإنّني لا أستطيع أن أكتب كما ينبغي لي، والأمر سِيّان: فأنت تعرف الآن أنّه لن يكون لي من دونك نهار ولا صباح ولا ربيع. لأن «ر» بالنسبة إليّ ليس سوى .. لكنّ هذا أمر لا أهمّية له عندك. وعلى أيّة حال، فأنا ممتنّة له، فلولاه - وأنا وحدي طَوال هذه الأيّام - ما كنت أعرف؛ فهذه الأيّام التي مرّت عليّ عشتها كأنّها عشر سنوات، أو ربّما عشرون. كأنّ غرفتي ليست ذات أربع زوايا، بل دائرية، تدور، تدور بلا نهاية. وكلّ شيء مكرّر رتيب، وليس هناك أية أبواب.

لا أستطيع الحياة من دونك لأنّني أحبّك. لأنّني أرى وأدرك أنّه لا أحد، لا أحد، على وجه البسيطة بحاجة أنتَ إليه الآن إلّا تلك، الأخرى، وإنّك لتفهمني: إذا كنتُ أحبّك، فلهذا تحديدًا من واجبي ..

لا يزال يلزمني يومان أو ثلاثة كي أستطيع أن ألصق من مزق ذاتي، وكيفما اتّفق شيءٌ يشبه ولو من قريب «ف -90» السابقة، ثمّ أمضي وأقدّم شخصيًا طلبَ إلغاء تسجيلي على اسمك. ولا بدّ من أنّه سيكون ذلك أفضل لك، سيشعرك بالراحة والطمأنينة. لن أعود إلى هذا بعد اليوم أبدًا. اعذرني. «ف».)

أبدًا بعد اليوم. هكذا أفضل طبعًا، إنّها على حقّ. لكن، ماذا؟ .. لماذا؟ ..

*****

المذكّرة التاسعة عشرة

الملخّص:

اللا متناهي الأصغر من الدرجة الثالثة. المتجهّم. عبر السور.

هناك، في الممرّ الغريب، بخطّه المنقّط الراعش من المصابيح الصغيرة الباهتة .. أو لا، لا. ليس هناك، بل في وقت لاحق، حين كنت معها في ركن ضائع من أركان البيت القديم، قالت: «بعد غد»، «وبعد غد».

هذا هو اليوم، كلّ شيء اليوم بجناحين: النهار يطير، و»تكاملنا» صار بجناحين، فقد فرغنا اليوم من تركيب المحرّك النفّاث وجرّبناه تجربة خُلّبية. أية طلقات رائعة جبّارة طلقاته؟ وكلّ طلقة منها - بالنسبة إليّ - هي تحيةٌ على شرف تلك، الوحيدة، على شرف هذا اليوم.

لدى أوّل حركة (= طلقة)، كان تحت فُوّهة المحرّك نحو عشرة من الأرقام الساهين ممّن يعملون في عنبرنا، فلم يبق منهم شيءٌ سوى قطع صغيرة وبعض السخام. وأسجّل هنا باعتزاز، أنّ وتيرة عملنا لم تتعثر ثانية واحدة بسبب هذا، ولم يذعر أحد، بل تابعنا نحن وآلاتنا حركتنا المستقيمة والدائرية بالدقّة نفسِها، كأنّ شيئًا لم يكن. عشرة أرقام تكاد لا تعادل واحدًا من مئة مليون من كتلة الدولة الواحدة، وهي، في الحساب العملي، لا متناهٍ أصغر من الدرجة الثالثة. الشفقة الأُمّية حسابيًّا عرفها الأقدمون وحدهم، أمّا نحن فنراها مضحكة.

وممّا يُضحكني كذلك، أنّني استطعت البارحة أن أُعمل فكري، بل حتى أن أسجّل في هذه الصفحات أشياء عن بقعة حبر رمادية؛ عن نقطة حبر. إنْ هذا إلّا «تليّن» السطح، السطح الذي يجب أن يكون بصلابة الألماس مثل جدراننا.

الساعة السادسة عشرة. لم أخرج إلى النزهة الإضافية: من يدري لعلّه يعنّ لها الآن تحديدًا، حيث كلّ شيء يرنّ من الشمس ..

أكاد أكون وحدي في البيت. من خلال الجدران التي نخترقها الشمس أرى حتى البعيد، يمينًا وشمالًا وإلى أسفل، الغرف المعلّقة في الهواء، الخاوية، تكرّر الواحدة الأخرى كما أنّها في مرآة. فقط على الدرج الضارب إلى الزرقة والمسودّ قليلًا من الحبر الصينيّ الشمسيّ، يتسلّل ببطء إلى فوق ظلٌّ رماديٌّ نحيفٌ. ها قد باتت خطواته مسموعة، وأرى من خلال الباب، أشعر: الابتسامة المرهم غمرتني، ثمّ جازت إلى درج آخر متوجّهة ناحية الأسفل.

فرقع المرقّم. اندسَسْتُ كلّي في الشقّ الأبيض الضيّق. وإذا بي برقم مذكّر لا أعرفه. هدر المصعد واصطفق بابه. كان أمامي جبينٌ مائل دونما اكتراث، وعينان .. كان لديّ انطباع شديد الغرابة: بدا لي كأنّه كان يتكلّم من تحت حاجبيه، حيث العينان.

-لك رسالة منها .. (كان كلامه يخرج من تحت الحاجبين، من تحت الظُلّة). طلبتُ أن تفعل حتمًا كما هو مكتوب هناك.

مِن تحت الحاجبين، من تحت الظُلّة، ألقى نظرة على ما حوله. لا أحد، لا أحد هنا، هيّا! هات الرسالة! تلفّتَ حوله مرّة أخرى ودسّ لي المغلّف ومضى. بقيت وحيدًا.

لا، لم أعد وحيدًا. فمن المغلّف بانت قسيمةٌ وردية، وفاحت رائحتها الخفيفة؛ إنّها هي، هي التي ستأتي، ستأتي إليّ. وأسرعت إلى الرسالة كي أقرأ هذا بعيني، إيمانًا به حتى النهاية.

ماذا؟ غير ممكن! أعدتُ القراءة مرّة أخرى. عيناي تقفزان عبر السطور: «القسيمة .. أسدل الستائر حتمًا وكأنّني عندك بالفعل .. هذا ضروريٌ بالنسبة إليّ كي يظنّوا أنّني .. آسفة جدًا، جدًا ..»

الرسالة صارت مِزقًا. ولثانيةٍ واحدة، حاجباي في المرآة مشوّهان، منكسران. أمسكت القسيمة لأفعل بها ما فعلت بالرسالة.

- «طلبتْ أن تفعل حتمًا كما هو مكتوب هناك».

وهَنتْ يداي، انفكّت قبضتهما. سقطت القسيمة منهما على الطاولة. إنّها أقوى منّي، وسأفعل، على ما يبدو، كما تريد. وعلى أية حال، على أيّة حال سنرى، الوقت لا يزال طويلًا حتى المساء. وبقيت القسيمة على الطاولة.

في المرآة يُطالعني حاجباي المشوّهان المنسكران. لماذا ليس عندي إجازة مرضية لهذا اليوم كذلك: لرحت عندئذٍ أسير على قدمي، أسير وأسير من دون نهاية، أدور حول السور الأخضر كلّه ثمّ أرتمي في سريري وأغرق تُجاه القاع، بينما عليّ الآن أن أحضر إلى القاعة ١٣، عليّ أن أشدَّ كِياني كلّه وأثبته لأظلّ ساعتين كاملتين دونما حراك، في حين يجب أن أصرخ وأخبط الأرض بقدميّ.

المحاضرة. من الغريب جدًّا أنّه ما صدر من الجهاز اللامع صوت معدنيّ كالعادة، بل صوت ناعم، وبرٌ، طحلبي. كان صوتًا نسائيًّا. ولاحت لي صاحبة الصوت شبيهة بعجوز، صنّارة كتلك التي عند

البيت القديم في صغرها.

البيت القديم. واندفع كلّ شيء من الأسفل كنافورة. كان عليّ أن أتمالك نفسي بما أوتيت من قوّة كي لا أُغرق القاعة كلّها بصراخي. كانت الكلمات الناعمة الوبرة تعبرني، ولم يبقَ منها إلّا شيء واحد: شيءٌ ما عن الأطفال، عن إنجاب الأطفال. وكنت أسجّل في داخلي كأسطوانة فوتوغرافية، بدقّة محايدة غريبة وسخيفة: منجل ذهبي، انعكاس ضوء على مكبّر الصوت، تحت المكبّر طفل، التوضيح الحيّ (الطفل) يلتصق بالقلب، طرف لباس موحّدٍ مجهريّ مدسوسٌ في فمه، قبضة مكوّرة بقوّة، الإصبع الكبير (الصغير جدًا على وجه أصحّ) معقوف إلى الداخل -ظلّ -ثنية رفيعة ومنتفخة على المعصم. وكنت ألتقط وأسجّل كأسطوانة فوتوغرافية: ها هي الرجل العارية الآن، المروحة الوردية للأصابع خرجت إلى الهواء، ها هو، ها هو يوشك أن يسقط أرضًا.

وإذا بصريخ نسائي، وبلباسٍ موحّد يرفّ بجناحين شفّافين على خشبة المنصّة، ويلتقط الطفل بشفتيه في الثنية المنتفخة على المعصم ويعيده إلى منتصف الطاولة، ثم ينزل من المنصّة. وانطبع في ذهني: أنّه هلال الفم الورديّ ذو القرنين نحو الأسفل، وأنّهما العينان القصعتان الزرقاوان الغائصتان، أنّها «ف». وشعرت فجأةً، كما أشعر عند قراءة صيغة متناسقة ومتماسكة، بضرورة هذه الحادثة التافهة وحتميّتها وسننيّتها.

جلست خلفي قليلًا إلى اليسار. التفتّ، حوّلت عينيها بإذعان عن الطاولة التي عليها الطفل نحوي واخترقتني بهما، صارتا فيّ، مرّة أخرى هي وأنا والطاولة التي على الخشبة، ثلاثة وحسب، وعبر هذه النقط ارتسمت خطوط، إسقاطات، أحداث حتمية لكنّها غير ظاهرة حتى

الآن.

ومضيت إلى البيت في شارع أخضر عاتم أخذَت تتلألأ فيه الأضواء. وسمعت: كنت أتكتك كالساعة، والعقربان في داخلي يوشكان أن يتجاوزا رقمًا ما، بعدَه سأفعل أمرًا لا يمكن التراجع عنه. إنّها بحاجة إلى أن يظنّ أحدهم أنّها عندي. أنا بحاجة إليها هي، وما لي وحاجتها هي. لا أريد أن أكون ستارًا لغريب، لا أريد وحسب.

خلفي المشية المألوفة الخافقة كما في مخاضة. لم أعد ألتفت فأنا أعرف إنّه «S». سيتبعني حتى الباب، ثم سيقف على الأرجح تحت على الرصيف ويحوّل مثقبيه إلى أعلى، إلى غرفتي حتى سقوط الستائر، مُخفيةً جريمة ما.

هو، ملاكي الحارس، أنهى الموضوع، وأنا قرّرت أن لا، لقد قرّرت.

حين صعدت إلى الغرفة وأدرت الزرّ لم أصدّق عينيّ: كانت «ف» تقفُ جانب طاولتي أو بالأحرى كانت تتدلّى: هكذا يتدلّى الثوب المخلوع، الفارغ، كأنّما لم يبقَ نابض واحد تحت ثوبها، واليدان والرجلان كانتا من دون نابض، والصوت كان من دون نابض، متدلّيًا كذلك.

-جئت لشأن رسالتي. هل استلمتها؟ نعم؟ يجب أن أعرف الجواب، أن أعرفه اليوم حتمًا.

هززت كتفي، نظرت بمتعة إلى عينيها الزرقاوين الطافحتين، كأنّها المذنبة في كلّ شيء، وتباطأتُ في الجواب. ثم قلت لها بتلذّذ وأنا أغرز فيها كلماتي كلمةً كلمةً:

-جواب؟ حسنًا. أنت على حقّ، حقّ مطلق في كلّ شيء.

-هكذا إذن. (رعشةٌ طفيفة غُطّيتْ بابتسامة، لكنّني أراها). إي، جيّد جدًا! أنا خارجة الآن، حالًا، حالًا ..

لكنّها ظلّت متدلّية فوق الطاولة -مخفضة العينين، مُسبلة اليدين والرجلين. كانت قسيمة تلك الورقة المدعوكة لا تزال على الطاولة. فتحت سريعًا مخطوطي هذا «نحن»، وغطّيت بصفحاته القسيمة (قد أكون أخفيتها عن نفسي أكثرَ ممّا عن «ف»).

-كما ترين، لا زلت أكتب. صار عندي مئة وسبعون صفحة إلى الآن .. تحدّث معي في هذا المخطوط أشياء غير متوقّعة.

صوتُها ظلُّ صوت.

-أوَتذكر؟ في الصفحة السابعة، إذّاك .. لقد سفحت نقطة حبر وأنتَ ..

القصعتان الزرقاوان فاضتا قطراتٍ صامتة سراعًا على الخدّين، وانطلقت الكلمات سراعًا كذلك أكثر ممّا ينبغي لها:

-لا أستطيع، سأخرج حالًا .. لن أعود أبدًا. ولْيكن ما يكون. إنّما أريد وحسب أن يكون لي منك طفل، يجب أن يكون لي منك طفل. اترك لي طفلًا، وأخرج حالًا.

رأيتُ: كانت كلّها ترتعش تحت اللباس الموحّد، وكنت أشعر أنّني أنا كذلك سوف .. لكنّني وضعت يدي وراء ظهري وابتسمت:

-ماذا، هل بكِ رغبة في آلة المحسن؟

وانهالت كلماتها عليّ كأنّما هي جداول منطلقة عبر سدّ:

-فليكن. لكنّني سأشعر به، سأشعر به في داخلي. سأراه ولو بضعة أيّام. أرى لمرّة واحدة الثنية ها هنا، كما على الطاولة هناك. ولو ليوم واحد!

ثلاث نقط: أنا، وهي، والقبضة ذات الثنية المنتفخة هناك على الطاولة ..

أذكر أنّهم أخذونا في طفولتنا إلى برج المكثّفات ذات مرّة. على أعلى باع جسر انحنيت فوق الحاجز الزجاجيّ، في الأسفل بشرٌ كأنّها نقط، وخفق القلب خفقةً عذبة: «وماذا لو؟»، لكنّني لم أزد حينئذ إلّا تشبّثًا بالدرابزين. أمّا الآن فقد قفزت إلى تحت.

-تريدين إذنْ؟ مع علمك بها ..

العينان مغمضتان كما لو أنّهما بمواجهة الشمس مباشرة، والابتسامة مبلّلة، متلألئة:

-نعم، نعم. أريد!

خطفتُ من تحت المخطوط القسيمة الوردية، قسيمة تلك وهرعتُ إلى المناوبة في الأسفل. حاولت «ف» إمساكي من يدي وصرخت، لكن، ماذا قالت؟ هذا ما لم أدركه إلّا حين عودتي.

كانت تجلس على حافّة السرير، ويداها مضمومتان بشدّة بين ركبتيها.

-هذه، هذه قسيمتها؟

-أليس الأمر سِيّان، بلى قسيمتها.

خشخش شيءٌ ما. الراجحُ أن «ف» تنحنحت وحسب.كانت تجلس ويداها بين ركبتيها، صامتةً.

-وماذا؟ هيّا بسرعة، قلتُ.

وضغطتُ يدَها بفظاظة، فإذا بقع حمر (غدًا ستكونُ على شكل كدمات زرق) هناك حيث الثنية الطفلية المتنفخة.

وكان هذا آخر شيء. ثم أدرت الزرّ. انطفأت الأفكار، وساد الظلام، والتمع الشرر، وأنا من فوق الحاجز أهوي إلى أسفل.

*****

المذكّرة العشرون

الملخّص:

التفريغ. مادّة الأفكار. الصخرة الصفرية.

التفريغُ هو التعريفُ الـمُلائم. فها أنا ذا أرى جليًّا الآن أنّ هذا كان كالتفريغ الكهربائيّ تمامًا. نبض أيّامي الأخيرة أكثر جفافًا وتواترًا وتوتّرًا، والقطبان أكثر تقاربًا. إنْ هي إلّا فرقعة، إن هو إلّا ملّيمتر فيكون الانفجار ثمّ السكون.

في داخلي الآن سكون وخواء تامّان، كما في بيتٍ غادره جميع سكّانه، وأنت ترقد فيه وحدك مريضًا، وتسمع بجلاء دقّ أفكارك المعدنيّ الواضح.

ربّما أبرأَني هذا «التفريغ» من نفسي التي تُعذّبني، فعدتُ من جديد كما نحن جميعًا. أقلّه أنّني أرى الآن بالفكر من دون أيّ ألم. «ف» على درجات المكعّب داخل الجرس الغازيّ. وإذا ما ذكرتْ هناك - في غرفة العمليّات - اسمي فليكن؛ ففي اللحظة الأخيرة سألثم بخشوع وعرفان يدَ المحسن المؤدِّبة. فأنا لي على الدولة الواحدة هذا الحقّ، التعرّض للعقاب، وهذا حقّ لن أتنازل عنه. إذ من واجب كلّ واحد منّا نحن الأرقام ألّا يتنازل، وألّا يجرؤ على التنازل عن حقّه الوحيد هذا، والأغلى لأنّه الوحيد.

.. الأفكار تدقّ بهدوء دقّات معدنية واضحة؛ منطاد مجهول يحملني

إلى جوزاء تركيباتي المجرّدة الزرقاء. وأرى كيف تنفجر هنا في الهواء المخلخل النظيف محاكماتي عن «الحقّ الفعّال»، محدثة فرقعة خفيفة كإطار مجلّة مضغوط. أرى جليًا أنّ هذا ليس سوى واحد من مخلّفات أوهام الأقدمين: فكرتهم عن الحقّ.

هناك أفكار طينية، وهناك أفكارٌ مصنوعة إلى أبد الآبدين من الذهب، أو من زجاجنا الثمين. ولتحديد مادّة الفكرة يلزمنا سكب حامض فعّال عليها وحسب. أحد تلك الأحماض عرفه الأقدمون: إنّه: REDUCTIOADFINEM. يخال إليّ أنّ هذه هي التسمية التي أطلقوها للتفريق عليه، لكنّهم كانوا يخشون هذا السمّ، وكانوا يؤثرون أن يروا سماء ولو كانت طينية، ولو كانت بحجم اللعبة، على أن يروا عدَمًا أزرق. أمّا نحن، والحمد للمحسن، فبالغون، ولم نعد بحاجة إلى دُمى.

فماذا لو سكبنا بضع قطرات على فكرة الحقّ. حتى عند الأقدمين، وأكثرهم نضوجًا، كان يُعرف ذلك، مصدر الحقّ هو القوّة، الحقّ تابعٌ القوّة. إليكم في كفّتي ميزان: في الأولى: غرام، وفي الثانية: طنّ. في الأولى «أنا»، وفي الثانية «نحن»، الدولة الواحدة. أليس بيّنًا القول في أنّ الأنا من الممكن أن تكون لها حقوق على الدولة؟ والقول في أنّ الغرام يمكن أن يساوي الطنّ، هما قولٌ واحدٌ تمامًا؟ ومن هنا هذا التقسيم: الحقوق للطنّ، وعلى الغرام الواجبات. والطريق البدَهيّ من الصغر إلى الكبر هو نسيانكَ أنّك غرام، وتشعر بأنّك واحدٌ: جزءٌ من مليونٍ من الطنّ.

إنّني لأسمع دمدمتكم يا أهل الزُهرة في سكوني الأزرق، يا ذوي الأجسام الفارعة، والخدود المورّدة، وأنتم يا أهل عطارد المسودّين كالحدّادين؛ لكن افهموني: كلّ ما هو عظيم بسيط. افهموني: قواعدُ الحساب الأربعُ هي وحدها الثابتة، الأبدية، ولن تكون عظيمة وثابتة وأبدية إلّا الأخلاق القائمة على تلك القواعد الأربع. إنّها الحكمة

الأخيرة النهائية، إنّها رأس ذلك الهرم الذي ظلّ الناس قرونًا وقرونًا يتسلّقونه محمرّي الوجوه من العرق، يجشرون ويترافسون. ومن علياء هذه القمّة، حيث لا يزال يُرى من هناك في القاع شيء ما من وحشيّة الأجداد، سلم فينا ولا يزال يتململ كأنّه دود تافه. من علياء هذه القمّة تتساوى الأمّ الخارقة للقانون «ف»، والقاتل، وذلك المجنون الذي تجرّأ وتعرّض للدولة الواحدة بشِعره. والحكم عليهم واحد: الموت المبكّر. هذه هي تلك العدالة الإلهية التي حلم بها أناس العصر الحجريّ، الذين كان صباح التاريخ يغمرهم بأشعّته الوردية الساذجة. فقد كان «إلههم» يعاقب التعرّض (للكنيسة المقدّسة) عقابه على القتل.

أنتم يا أهل عُطارد القساة والسود كقدامى الإسبان الذين كانوا يعرفون كيف يرفعون الناس على المحارق بحكمة، أراكم تلزمون الصمت. يبدو أنّكم معي، تُؤيّدون رأيي. لكنّني أسمع بين أهل الزُهرة الموَرّدي الخدود دمدمة عن تعذيب، وأحكام بالموت، وعن عودة إلى العصور البربرية. إنّني أرثي لكم يا أعزائي، فأنتم غير قادرين على التفكير الفلسفيّ الرياضيّ.

التاريخ الإنسانيّ يمضي كما المنطاد صعودًا في دوائر. الدوائر مختلفة: ذهبية، دموية، لكنّها كلّها مقسّمة بشكل واحد إلى 360 درجة. ننطلق من الصفر صعودًا إلى 10 –20، 200، 360 درجة ثمّ العودة إلى الصفر. أجل، عدنا إلى الصفر، عدنا، أَجَلْ، لكنْ يبدو لعقلي المفكّر أنّ هذا الصفر شيء آخر تمامًا، شيء جديد. انطلقنا من الصفر يمينًا وعدنا إليه شِمالًا، ولهذا بدلًا من زائد صفر، عندنا ناقص صفر. هل تفهمون؟

هذا الصفر، يتبيّنُ لي صخرةً صامتةً هائلةً ضيّقةً حادّة كما السكّين. في العتمة الشرسة الشعثاء، أقلعنا حابسين أنفاسنا من الجانب الليلي الأسود للصخرة الصفرية. أبحرنا نحن أشباه «كولومبس» قرونًا

وقرونًا، طُفنا الأرض وصِحنا أخيرًا: مرحى! وانطلقت مدافعُنا بالتحية، وصعد جميعُنا الصواري: كان أمامنا الجانبُ الآخر للصخرة الصفرية، المجهولُ حتى الآن، المضاءُ بالبريق القطبيّ للدولة الواحدة، كتلةٌ زرقاء، شراراتُ قوس قزح، شموس، مئات الشموس، مليارات أقواس قزح.

وماذا في الأمر إذا كان لا يفصلنا عن الجانب الآخر للصخرة الصفرية إلّا قدْرُ حدّ سكّين. السكّين هي أرسخ وأخلد وأنبغ ما أوجده الإنسان. السكّين كانت مقصلة، السكّين هي الوسيلة الكلّية لفكّ العقد كلّها، على حدّها تمرّ طريق المفارقات؛ الطريق الوحيدة الجديرة بعقل غير هيّاب ..

*****

المذكّرة الحادية والعشرون

الملخّص:

واجب المؤلّف. الجليد ينتفخ. الحبّ الأصعب.

البارحةَ كان يومُ مجيئِها. ومرّةً أخرى لم تأتِ، مرّةً أخرى قُصاصةٌ منها غيرُ مفهومةٍ لا تفسّرُ شيئًا. لكنّني مطمئنٌّ البال، مطمئنٌّ البال تمامًا، وإذا كنتُ أتصرّفُ، مع هذا، كما يُملي عليّ في القُصاصة، وإذا كنتُ أعيدُ، مع هذا، قسيمتَها إلى المناوبة، ثمّ أجلسُ في الغرفةِ وحدي بعد أن أرخيَ الستائرَ، فليس هذا، بطبيعة الحال، لعجزي عن مقاومةِ رغبتِها. أمرٌ مضحكٌ! ليس لهذا السبب طبعًا. إنّما، ببساطة، لأنّني أستطيعُ، وأنا معزولٌ بالستائرِ عن ابتساماتٍ كلِّها شافيةٍ كالمرهم، كتابةَ هذه الأسطرِ بهدوءٍ، هذا أوّلًا. وثانيًا: أخشى أن أفقدَ فيها، في «مَ» المفتاح، ربّما المفتاح الوحيد لكشفِ المجاهيلِ كلّها (قصّة الخزانة، موتي المؤقّت، إلخ). وإنّني لأشعرُ الآن أنّني صرتُ مُلزَمًا بكشف هذه المجاهيل، أقلّه، بوصفي صاحب هذه المذكّرات، ناهيك عن أنّ المجهول عامّةً مُعادٍ عضويًّا للإنسانِ، والـ HOMO SAPITNS [1] لا يكونُ إنسانًا بالمعنى الحقيقيِّ للكلمةِ إلّا حين تنتفي من صرفه ونحوه إشاراتُ الاستفهام، فلا يبقى فيهما إلّا إشاراتُ التعجّبِ والفواصلُ والنقطُ.

وها أنا ذا اليوم، مسترشدًا كما يبدو لي بواجبِ المؤلّف ذاته. أخذتُ

---

(١) الإنسان العاقل.

المنطاد في الساعة 16 وتوجّهتُ صوبَ البيت القديم مرّةً أخرى. قابلتني ريحٌ قويةٌ معاكسةٌ، شقّ المنطادُ طريقَه بصعوبةٍ عبر الأدغال الهوائية. كانت الأغصانُ الشفّافةُ تصفرّ وتسوط. المدينة أسفلَ منّي كأنّها كلّها قطعٌ زرقٌ من جليد. فجأة، سحابةٌ، طيف مائل سريع، الجليد يصير بلون الرصاص، ينتفخ، مثلما في الربيع حين تقف على حافّة نهر وتترقّب: عمّا قليلٍ سيتشقق كلُّ شيء، يطفر، يدوّم ويندفع، لكنّ الدقيقة تمرُّ تلو الأخرى، والجليد لا يزال متماسكًا، في حين تأخذ أنت نفسك بالانتفاخ، ونبضات قلبك تزداد اضطرابًا وتسارعًا (لكن، بالمناسبة، عَلامَ أكتبُ عن هذا؟ ومن أين أَلـمّتْ بي هذه الأحاسيسُ الغريبة؟ ذلك أنّه ليس هناك كاسحةُ جليد، أيّةُ كاسحةِ جليدٍ بوسعها أن تكسرَ بلّورَ حياتِنا الأشفَّ والأمتنَ هذا ..).

لا أحدَ عند مدخلِ البيتِ القديم. طفتُ حوله، ورأيتُ البوّابةَ العجوزَ عند السورِ الأخضرِ: كانت تضعُ يدَها فوق جبينِها على شكلِ حافّةِ قبّعةٍ، وتُحدِّقُ إلى فوقَ. وكانت هناك فوق السورِ مثلّثاتٌ سودٌ حادّةٌ من طيورٍ تنقضُّ -في نعيبٍ- بصدرِها على الحاجزِ المتينِ من الأمواجِ الكهربائيةِ، ثمّ تنكفئُ، وتعودُ تحلّقُ فوقَ السورِ من جديدٍ.

ورأيتُ: سَرَتْ في الوجهِ الكالحِ المغمورِ بالتجاعيدِ ظلالٌ سريعةٌ مائلة، وصُوّبتْ نظرةٌ سريعةٌ إليّ.

-لا أحدَ هنا، لا أحد، لا أحد! بلى، لا أحد ولا معنى لمجيئك! ثمّ ..

ما معنى هذا القول، ما هذه الطريقةُ الغريبةُ في اعتباري ظلًّا لشخصٍ آخر. ربّما تكونون أنتم أنفسكم ظلالي جميعًا. أو لم أغمرْ بكم هذه الصفحات التي كانت إلى وقتٍ يسيرٍ صحارى بيض ذات أربعة

زوايا. فلولاي، أكان يراكم كلّ من سأقوده ورائي على دروب السطور الضيّقة؟

لم أقلْ لها هذا كلّه، لم أقلْه لها طبعًا. فأنا أعرفُ من تجربتي الشخصية أنّ آلمَ شيءٍ هو أن تزرعَ في الإنسانِ الشكَّ في كونِه حقيقةً، حقيقة ثلاثية الأبعاد، وليس أيّة حقيقة أخرى. اكتفيت وحسب بأن نبّهتها بصوت جافٍ إلى أنّ عملها هو فتح الباب، وأدخلتني إلى الفناء.

خواءٌ، سكونٌ. الريحُ هناك فيما وراء الجدران بعيدةٌ بُعْدَ ذلك اليوم الذي صعدنا فيه من تحت، من الممرّات، الكتف إلى الكتف، اثنان في واحد. هذا إذا كان ذلك هو ما حدثَ فعلًا. كنت أسيرُ تحت الأقواسِ الحجريةِ حيث كانت خطواتي، وهي تضرب على القباب الرطبة، تسقطَ خلفي، كأنّه كان هناك من يتعقّبني طَوال الوقت. وكانت الجدران ذات البثور القرميدية الحمر ترصّدُني من خلال النظّارات المربّعة السود للنوافذ، ترصدُني كيف أفتح أبوابَ العنابرِ الصادحة، وكيف ألقي النظر على الزوايا والمنعرجات والأركان المظلمة. بابُ سياجٍ، وأرضُ خلاءٍ مهجورة، نصبٌ تذكاريٌ من حرب المئتي عام العظمى: من الأرض تبرز أضلاعٌ حجريةٌ عارية، أشداقُ جدرانٍ صفرٌ مكشّرةٌ، موقدٌ قديمٌ مع خطّ رأسيّ لمدخنةٍ، يلوح كمركب تحجّر إلى الأبد وسط رشاش قرميديّ أصفر وأحمر حجريّ.

تراءى لي أنّ هذه الأسنان الصفر ذاتها رأيتُها ذات مرّة، رأيتها رؤيةً غائمةً كما في القاع من خلال كثافة الماء. ورحت أبحث. سقطتُ في الحفر، عثرتُ بالحجارة، أمسكت بي من لباسي الموحّد قوائم صدئة، زحفت على جبيني إلى أسفل، إلى عينيّ، قطراتُ عرقٍ شديدة الملوحة.

لا شيء! ذلك المخرج من الممرّات في الأسفل لم أستطع أن أجدَه،

لم يكن له وجودٌ. وعلى أيّة حال، لعلّ هذا أفضل، فهناك احتمال أكبر أن يكون هذا كلّه أحدَ «أحلامي» السخيفة.

كنت وقد نال منّي التعبُ قسطًا، وغطّاني العنكبوت، وعلاني الغبار، قد فتحتُ بابَ السياج لأعودَ إلى الفناء الرئيس. إذا بحفيفٍ فجأة، إذا بخطواتٍ خافقةٍ خلفي، وأمامي أذنا «S» الجناحان الورديّان، وابتسامته ذات الانحناءة المزدوجة.

زرّ عينيه غارزًا فيّ مثقبيه، وسألني:

-أتتنزّه؟

لزمتُ الصمت. كانت يداي تُعيقانني.

-لا بأس، وهل تشعرُ بتحسّن الآن؟

-نعم، أشكرك.

أعتقني إذ رفع عينيه فوق، واشرأبّ برأسه، ولأوّل مرّة لاحظت جوزة عنقه.

فوقنا قليلًا على ارتفاع نحو خمسين مترًا، كانت مناطيد تئزّ. عرفتُ فيها مناطيد الحرّاس من طيرانها البطيء المنخفض، ومن خراطيم المناظير السود الموجّهة إلى أسفل. لكنّها لم تكن اثنين أو ثلاثة كما هي عادةً، بل من ١٠ إلى ١٢ منطادًا (أنا مضطرٌ آسفًا إلى الاكتفاءِ بالرقمِ التقريبيّ).

-لماذا المناطيدُ كثيرةٌ اليوم؟ -أخذتُ على عاتقي جرأة التساؤل.

-لماذا؟ هِمْ .. الطبيب الحقيقيّ يبدأ اليوم بعلاجِ الإنسانِ السليمِ

الذي لن يمرضَ إلّا غدًا أو بعده أو بعد أسبوع. الوقاية، نعم!

أومأ برأسِه، وأخذ يُطبطبُ على بلاطاتِ الفناءِ الحجرية. ثمّ استدارَ قائلًا من خلال كتفه:

-كن حذرًا!

بقيت وحدي. سكون، خواء. بعيدًا فوق السور الأخضر تمرق الطيورُ، وتهبّ الرياحُ. إلام يرمي قولُه هذا؟

منطادٌ ينسابُ سريعًا مع التيّار. السحبُ تلقي ظلالًا خفيفةً ثقيلةً، وفي الأسفلِ، قبابٌ زرقٌ، مكعّباتٌ من جليدٍ زجاجيٍ تصيرُ بلون الرصاص، تَنتفخ.

مساءً:

فتحت مخطوطي لأسجّل في هذه الصفحات بعضَ أفكارٍ تبدو لي مفيدةً (لكم يا قرّائي) عن يومِ الإجماعِ العظيمِ الذي بات قريبًا. وتبيّن لي أنّني لا أستطيع الكتابة الآن. فأنا ألقي السمعَ طَوال الوقت إلى الريح، تلطمُ بجناحيها السوداوين زجاجَ الجدران، وأتلفّت طَوال الوقت مُتوقّعًا شيئًا ما. ماذا؟ لا أعرف. وعندما ظهر في غرفتي الغلصمان الورديّان الأليفان الضاربان إلى البياض، سررتُ كثيرًا، وأقول هذا صادقًا.

جلستْ، سوّت بحشمةٍ وخفرٍ ثنيةَ ثوبِها الساقطة بين ركبتيها، وبسرعةٍ لصَّقت أناي كلّها بالابتسامات -قطعة لكلّ شرخٍ من شروخي، فشعرت أنّني عدتُ مترابطًا، مُتماسكًا تماسكًا قويًا لطيفًا.

-هل رأيت، .اليوم أتيت إلى الصفّ (إنّها تعمل في مصنع تربية

الأطفال) فإذا برسم كاريكتوري على الحائط. نعم، نعم أؤكّد لك. رسموني على شكلِ سَمكة. أأكونُ فعلًا.. ؟

بادرتُ قائلًا:

-لا، لا، ماذا تقولين؟ (كان واضحًا فعلًا، وهي عن قرب، أنّ ليس فيها ما يشبهُ الغلاصم، وما قلته أنا عن الغلاصم لم يكن في محلّه إطلاقًا).

-وهذا، في نهاية الأمر، ليس هامًّا. لكن افهمني: التصرّف ذاته. لقد استدعيت الحرّاس بطبيعة الحال. إنّني أحبّ الأطفال حُبًّا جمًّا، وأرى أنّ أصعبَ أنواعِ الحبِّ وأسماه هو القسوة، هل تفهمُني؟

وكيف لا أفهمها؟ لشدّة ما كان هذا يتجاوبُ مع أفكاري. ولم أطق صبرًا، فقرأت لها مقطعًا من مذكّرتي العشرين مبتدئًا من «الأفكار تدقّ بهدوءٍ دقّاتٍ معدنيةً واضحةً ..».

ولمحت، من دون أن أنظر، كيف ارتعش خدّاها الورديّان الضاربان إلى اللون البنّي، وأخذا يدنوان منّي أكثر فأكثر، ثمّ كيف صارت أصابعها الجافّة القاسية، بل حتى الواخزة وخزًا خفيفًا بين يديّ.

-أعطنيه! سأسجّله صوتيًا وأجعل الأطفالَ يحفظونه عن ظهر قلب. جماعتك من أهل الزُهرة لا يحتاجونَه مثلَ حاجتنا نحن إليه اليوم، وغدًا، وبعد غدٍ.

ثمّ تلفّتت حولها، وقالت بصوتٍ جِدّ خفيض.

-هل سمعت، يقال إنّه في عيدِ الإجماع.

-ماذا، ماذا يقال؟ وثَبَتُّ واقفًا. ماذا في يوم الإجماع؟

لم تعد هناك جدرانٌ مريحةٌ. أحسست حينئذٍ بنفسي مقذوفًا إلى هناك، إلى الخارج، حيث الريحُ الهائلةُ تندفعُ فوق الأسطح، والسحب القاتمة المائلة تهوي، تهوي ..

أمسكتني «خ» من كتفيّ بحزم، بقوّة (مع أنّني لاحظتُ أنّ سُلامَيات أصابعِها كانت ترتعشُ كذلك، مُرجّعة اضطرابي).

-اجلسْ، يا عزيزي، لا تقلقْ. أقليلٌ ما يُقال؟ .. ثمّ إذا كنتَ في حاجة.. سأكونُ إلى جانبك في هذا اليوم. سأعهدُ بأطفالِ صفّي إلى شخصٍ آخر وأكونُ معك، لأنّك أنت يا عزيزي طفلٌ كذلك، وبحاجة إليّ ..

-لا، لا .. أشحت بيديّ، ومهما يكن من أمر! وإلّا استيقنت فعلًا أنّني طفل، وأنّني غيرُ قادرٍ بمفردي .. أبدًا، ومهما يكن من أمر! (أعترفُ أنّه كانت لديّ مخطّطاتٌ أخرى لهذا اليوم).

ابتسمتْ. النصّ غير المكتوب لهذه الابتسامة كان الراجحُ هكذا: «يا لكَ من طفل عنيد!»، ثمّ جلست. العينان مغضوضتان، اليدان تسويّان بخفر مرّة أخرى ثنية اللباس الموحّد الساقطة بين الركبتين، ثم انتقلتْ إلى موضوعٍ آخر:

-أعتقدُ أنّه يجبُ عليّ الآن حزمَ أمري .. من أجلِك، لا، أرجوك لا تستحثّني، يجب أن أفكّرَ في الأمر كذلك ..

لم أكن أستحثّها مع أنّني كنتُ أدرك أنه ينبغي لي أن أكون سعيدًا، وأنّه ليس من شرف أرفع من أن تتوّجَ بنفسِك ذاتها سنوات شخص ما في مساء حياته.

.. طَوال الليل أجنحةٌ أجنحةٌ، وأنا أروحُ وأجيءُ وأغطّي رأسي

بيديّ من الأجنحة، ثمّ طاولة، لكنّ الطاولة ليست طاولتنا، طاولتنا الراهنة، بل طاولة من طراز قديم، من خشبٍ. أفحصُ الأرض بقوائمي كالحصانِ (القائمة الأمامية اليمنى فالقائمة الخلفية اليسرى، الأمامية اليسرى فالخلفية اليمنى)، الطاولة تندفعُ نحو سريري تتسلّقه وأنا أحبّ الطاولةَ الخشبيةَ: شيءٌ مزعجٌ، مؤلمٌ.

عجبًا، هل استحالَ علينا حقًّا إيجادُ وسيلةٍ لشفاءِ مرضِ الأحلام هذا، أو جعله شيئًا معقولًا، أو ربّما شيئًا نافعًا ؟!

*****

المذكّرة الثانية والعشرون

الملخّص:

الأمواج المتجمّدة. كلّ شيء يسير إلى الكمال. أنا جرثومة.

تصوّروا وقوفكم على شاطئ: الأمواجُ تعلو متّسقةً، بعد ارتفاعِها، تبقى فجأةً كما هي، تتكبَّلُ، تتجمَّدُ. شيءٌ مماثلٌ لهذا، في فظاعته وخروجه عن الطبيعة، ألمَّ بنا حين تشوّشت نزهتُنا المقرّرةُ من قِبَل اللوحِ بغتةً، واختلطت وتوقّفت. آخرُ مرّةٍ حدثَ فيها شيءٌ مثلُ هذا، كما جاءَ في حوليّاتنا، كان منذ نحو 119 عامًا، حين هوى من السماءِ نيزكٌ ينبعثُ منه صفيرٌ ودخانٌ، ونحن في أوْج نزهتِنا.

كنّا نسيرُ كعادتِنا دائمًا، أي كما يُصوَّر المحاربون الأشوريّون: ألفُ رأسٍ ويدان متكاملتان مندغمتان ملوّحتان، ورجلان متكاملتان مندغمتان. في نهايةِ الشارع، حيثُ برجُ المكثّفات يهدرُ بغضبٍ ووعيدٍ. كان يسيرُ تُجاهنا مربّع: على الجانبين ومن خلف ومن أمام حُرَّاس، وفي الوسط ثلاثةٌ نُزعت عنهم ملابسُهم الموحّدة، ولا أثرَ لأرقامهم الذهبية. كلُّ شيء كانَ واضحًا حدَّ الفظاعة.

الميناءُ الضخمُ على رأس البرج كان وجهًا قد انحنى من السحب، وراح يبصق الثواني إلى أسفل، وهو ينتظرُ دونما اكتراث. وفي الساعةِ الثالثة عشرة وستّ دقائق تحديدًا حدثَ اضطرابٌ في المربّع. كان هذا على مقربةٍ كبيرةٍ منّي، بحيث رأيتُ دُقّى التفاصيل، انحفرت في ذاكرتي

بوضوحٍ شديدٍ رقبةٌ طويلةٌ رفيعة، وعلى الصدغ غشاءٌ متشابكٌ لأوردةٍ زرق، مَثل أنهار على خارطةٍ جغرافيةٍ لعالمٍ صغيرٍ مجهول. كان هذا العالمُ الصغيرُ فيما يبدو، فتًى شابًا لمحَ أشخُصًا غيرَ مألوفةٍ في صفوفِنا، فشبَّ على رؤوسِ أصابِعه واشرأبَّ بعنقِه وتوقّف. فرقعَ فيه أحدُ الحرّاس شرارةً مائلةً إلى الزرقة من سوط كهربائي، فندّ عنه صُواءٌ رفيعٌ كصواء الجرو، تلتها فرقعةٌ ثانية واضحة، ثمّ توالت في كلّ ثانية تقريبًا فرقعةٌ فصُواء، فرقعة فصُواء.

كنّا نسير كما سابقًا؛ باتّساق وَفْقَ الطريقة الأشورية، وكنتُ أفكّر في داخلي، وأنا أرى تعرّجات الشرر الأنيقة: «كلّ شيء في المجتمع الإنساني يسعى إلى الكمال من دون حدود، ويجب أن يسعى إلى الكمال. أيّة أداةٍ قبيحةٍ كان السوطُ القديم؟ وما أشدّ جمال ..!».

لكنْ، هنا انسلختْ من بين صفوفنا، مثل برغيّ أَفلت في أوْج دورانه، قامةٌ نسائية لدِنةٌ ممشوقةٌ وهي تصرخ: «كفى! إيّاكم!»، واندفعت مباشرةً إلى هناك، إلى المربّع. كان هذا يشابهُ ما حدث قبل 119 عامًا حين سقوط النيزك: تجمّدت النزهةُ كلّها، وصارت صفوفُنا متونًا رماديةً لأمواجٍ كبّلها صقيعٌ مفاجئ.

نظرت إليها لثانيةٍ نظرةً محايدة كالآخرين جميعًا : فهي لم تعد رقمًا من الأرقام، بل باتت إنسانًا وحسب، أضحت توجد بوصفها الجوهر الميتافيزيكي للإهانة الموجّهة إلى الدولة الواحدة وحسب. حركةٌ واحدة منها (ثنتْ، وهي تستدير، وركيها إلى اليسار) ووضح لي فجأة أنّي أعرف، أعرف هذا الجسم المرن اللدِن كالسوط، عيناي، شفتاي، يداي تعرفُه، (في تلك اللحظة كنت واثقًا في هذا الثقة كلّها).

عَدَا نحوَها اثنانِ من الحرسِ يقطعانِ عليها الطريق. هنيهةً،

وتتقاطعُ مساراتُهم في النقطة التي لا تزال واضحةً شفّافة من قارعة الطريق، ويقبضان عليها ..

انقبضَ قلبي، توقّف، وانقضضتُ، من دون أن أفكّرَ فيما إذا كان هذا ممكنًا أم لا، سخيفًا أو معقولًا، إلى تلك النقطة.

شعرتُ بآلاف العيون المدوّرة من الرعب تصوّب إليّ، لكن هذا لم يزد ذلك المتوحّشَ ذا اليدِ الشعراءِ الذي انفلتَ منّي إلّا قوّة مرحة يائسة، فراح يعدو بسرعة أكبر. لم يبق إليها إلّا خطوتان، والتفتتْ.

كان أمامي وجهٌ مرتجفٌ مرشوشٌ بالنمش، وحاجبان أصهبان .. ليست هي! ليست «م»!

غمرتني فرحةٌ مسعورةٌ دافقةٌ. أردتُ أن أصرخَ بشيءٍ ما من قبيل (تستحقّ! أمسكوها!). لكنّني لم أسمعْ سوى همسي. أحسستُ بيدٍ ثقيلةٍ على كتفي. إنّهم يقبضون عليّ، يقتادونني وأنا أحاول أن أشرحَ لهم.

-اسمعوا، عليكم أن تفهموا أنّني ظننت أنّ ..

لكنْ، أنّى لي تِبيانُ ذاتي كلّها، مرضي المسجّل كلّه في هذه الصفحات. وها أنا ذا أخبو، أسيرُ صاغرًا مستسلمًا .. الورقة المقطوعة من الشجرة بعصفة ريح مباغتة تسقطُ صاغرةً نحو أسفل، لكنّها في طريقِها تدور، تتشبّث بكلِّ غصن أليف، بكلّ شعب، بكل أملود: وهكذا أنا، كنت أتشبّث بكلّ رأس من رؤوس الكرات الصامتة، بجليدِ الجدرانِ الشفّاف، بإبرةِ برجِ المكثّفاتِ الزرقاءِ المنغرزةِ في السحاب.

وفي اللحظة التي كانت فيها الستارةُ الصفيقةُ توشكُ أن تعزلَ هذا العالمِ الرائع كلّه عنّي، رأيتُ غير بعيدٍ عنّي رأسًا أليفًا مائلًا ينزلقُ فوقَ مرآةِ الطريق، مُلوّحًا بيديه الجناحين الورديتين، وتناهى إليّ صوتٌ

مفلطحٌ أليفٌ:

-أفترضُ من واجبي أن أشهدَ أنّ الرقم «د -٣٠٥» مريض، وليس بوسعه ضبطَ مشاعره، وأنا متأكّدٌ أنّه أُخذ بعاطفةِ استنكارٍ طبيعية ..

-بلى، بلى .. تلقّفت فكرته وزدتُ: بل إنّني صرخت «أمسكوها!».

من ورائي، خلف كتفي:

-أنت لم تصرخ ولم تقلْ شيئًا.

-صحيح، لكنّني كنتُ أريد الصراخ. أقسمُ بالمحسن،كنتُ أريد الصراخ ..

ولثانية، ثُقبتُ بمثقبيّ العينين الرماديّتين الباردتين. لا أدري إنْ كان رأى فيّ أنّ هذه هي الحقيقة (تقريبًا)، أم كان يضمر غايةً خفيّةً من وراء الرحمة بي مرّة أخرى لبعض الوقت، لكنّه اكتفى بكتابة قُصاصة، وناولها أحدَ الممسكين بي، فعدتُ طليقًا من جديد، أي، هذا هو الأصحّ، لقد احتوتني الصفوفُ الأشوريةُ المتماسكةُ اللامتناهية من جديد.

اختفى المربّع، وفيه الوجه النمش، والصدغ بمصوّره الجغرافي للعروق الزرق خلف الناصية، وإلى الأبد. وها نحن أولاء نسير جسمًا واحدًا بملايين الرؤوس، وفي كلٍّ منّا ذلك الفرح الوادع المسالم الذي تعيش به الذرّات والجزيئات والفاغوتسيتات غالبًا. هذا ما أدركه في العالم القديم؛ المسيحيّون أسلافنا الأوحدون (وإن كانوا بعيدين جدًّا عن الكمال): الطاعةُ فضيلة والكبرياء رذيلة، و»نحن» من الله، أمّا «أنا» فمن الشيطان.

ها أنا ذا، أسيرُ جنبًا إلى جنبٍ معهم جميعًا، لكنّني منفصلٌ عنهم.

لا أزالُ مرتعشًا بين فَينةٍ وأخرى من الاضطرابات التي عانيتُها، كأنّني جسرٌ هَدر فوقه قطارٌ حديديٌ قديمٌ توًّا. إنّني أشعرُ بذاتي، لكن لا يشعر بذاته، لا يعي فرديّته إلّا العين التي فيها قذى، والإصبع المتقيّح، والسنّ المريضة. أمّا العين السليمة والإصبع السليم والسنّ السليمة فكأنّه لا وجودَ لها. أليس واضحًا بعد هذا أنّ الوعيَ الشخصيَ ما هو إلّا مرض؟

ما عدتُ بلغمةً تلتهمُ بروحٍ هادئةٍ، وعمليّة الجراثيم (ذوات الصدغ الأزرق والنمشة). قد أكونُ الآن جرثومةً، ربّما الجراثيم التي لا تزال مثلي تتظاهرُ بأنّها بلاغم تعدّ الآن ألفًا.

ماذا لو أنّ حدثَ اليوم التافه كان حقيقةً؟ ماذا لو أنّ هذا كلّه ليس إلّا البداية، ليس سوى أوّل نيزكٍ في سلسلةٍ طويلةٍ من الحجارةِ المشتعلةِ الهادرة، التي تنهالُ بها اللانهايةُ على فِردوسِنا الزجاجي؟

*****

المذكّرة الثالثة والعشرون

الملخّص:

الأزهار. ذوبان البلّور. إذا ما.

يُقال، هناك أزهارٌ لا تتفتّحُ إلّا مرّةً في كلّ مئةِ عام. لكنْ، لماذا لا تكونُ هناك أزهارٌ أخرى لا تتفتّحُ إلّا مرّةً في كلِّ ألفِ عام، في كلّ عشرةِ آلافِ عام. ربّما لم نعرف هذا حتى الآن، غيرَ أنَّ «مرّةً في كلّ ألفِ عام» هذه، حدثت في هذا اليومِ تمامًا.

كنتُ أهبطُ الدرجَ إلى أسفلِ، إلى حيثُ المناوبةُ، مغتبطًا سكرانًا، أمام ناظري، ومن حولي، وفي كلِّ مكان، تتشقّق بسرعة وبصوت غير مسموع، براعمُ ألفيّة. وتُزهر الأرائك، والأخفاف البيتية، والأنواط الذهبية، والمصابيح الكهربائية، وعيون سودٌ وشعر، وأعمدة الدرابزين المضلّعة، ومنديلٌ سقطَ على الدرجاتِ وطاولةِ المناوبة، وفوقَ طاولة المناوبة خدّا «خ» البنّيّان الناعمان الأرقطان. كلُّ شيءٍ خارقٌ، جديدٌ، لطيفٌ، ورديٌّ، نديٌّ.

أخذت «خ» القسيمةَ الورديةَ منّي، فوق رأسها كان يتدلّى عبر زجاج الجدران من غصنٍ غير مرئيٍ قمرٌ أزرقُ فوّاح. أومأت بإصبعي بشعور من الظفّر قائلًا:

-القمر، أتفهمين؟

ألقت «خ» عليّ نظرةً، ثم أردفتها على القسيمة، ورأيتُ حركتها

الأليفة المحتشمة الساحرة إلى أبعدِ الحدود: سوّت ثنايا ثوبها بين زاويتي الركبتين.

-مظهرُكَ غير طبيعي، يا عزيزي، مريض، لأنّ الشذوذ والمرض شيءٌ واحد. أنت تُهلك نفسَك، وهذا لن يقوله لك أحد، لن يقوله أحد.

هذا «اللا أحد» يساوي طبعًا الرقم في القسيمة «م -330». يا لـ «خ» اللطيفة الرائعة! أنت على حقّ طبعًا. أنا عديم الفطنة والرشاد، أنا مريض، مريض «بالنفس»، أنا جرثومة. لكن، أليس الإزهارُ مرضًا؟ ألا يتوجّع البرعمُ حين ينشقّ؟ أوَلا تعتقدين أنّ «السبير ماتوزوييد» هو أفظع الجراثيم؟

أنا في غرفتي فوق. في كمّ الأريكة المفتوح على اتّساعه «م». وأنا على الأرض أضمّ قدميها، أضع رأسي على ركبتيها، كِلانا صامت. سكونٌ ونبضٌ .. وهكذا أنا بلّور، انحلّ فيها، في «م». أشعر بوضوح تامّ كيف تذوب، تذوب الأضلاع المصقولة التي تحدّني في المكان، أغيب، انحلّ في ركبتيها، فيها. أصغُر وأصغُر، وفي الوقت نفسِه كلّ شيء يتّسع، يكبر، يصبحُ لا محدودًا. ولثانيةٍ واحدة، أنا وهذه الأريكة - جوار السرير - المخترقة بالسعادة، صرنا شيئًا واحدًا: والعجوز ذات الابتسامة الرائعة عند أبواب البيت القديم، والمتاهات المتوحّشة خارج السور الأخضر، والأنقاضُ الفضّية ذات الخلفية السوداء الغافيةُ كالعجوز، والباب المصفوق الآن في مكان ما ناءٍ بشكلٍ لا معقول؛ هذا كلّه فيّ، معي يستمع إلى ضربات النبض، وينطلق عبر ثانيةٍ هانئةٍ من الزمن.

أحاول بكلمات سخيفة مرتبكة غارقة أن أقولَ لها: إنّي بلّور، ولهذا ففيّ باب، ولهذا أشعر مدى سعادة الأريكة، لكن ما أقوله يخرج كلامًا لا معنًى، لذا توقّفتُ عن الكلام فقد أحسستُ بالخجل: أنا، وبغتةً هذا

-اعذريني أيّتها الغالية «م». لم أعدْ أفهمُ شيئًا، أتفوّهُ بأشياءَ غبيّة.

-لماذا تظنّ أنّ الغباء شيءٌ غير جيّد؟ لو أنّ البشريةَ تعهّدت الغباءَ ورعتْهُ قرونًا كما فعلت بالعقل، فلربّما كان منه شيءٌ ذو قيمةٍ خارقةٍ.

-صحيح. (يبدو لي أنّها على حقّ، وكيف يمكنُ ألّا تكونَ على حقّ الآن؟).

-وبسبب غبائك وحده، بسبب ما فعلته البارحة في النزهة يزدادُ حبّي لك.

-لكن لماذا عذّبتِني؟ لماذا لم تأتي؟ لماذا أرسلت قسائمك؟ لماذا جعلتِني ..؟

-ألا يجوزُ أنّي أردتُ اختبارك؟ ألا يجوز أنّي كنت بحاجةٍ إلى أن أعرفَ أنّك ستفعلُ كلّ ما أريد، أنّك صرتَ لي وحدي وحسب؟

-نعم، لكِ وحدكِ أنتِ!

أخذَت وجهي، ذاتي كلّها، بين راحتيها، ورفعتْ رأسي:

-والآن ماذا صار بشأن كلامك عن «واجبات كلّ رقم شريف .. ؟ أ ؟».

أسنانٌ بيضٌ حادّةٌ شهيّةٌ، وابتسامة. إنّها في كمّ الأريكة المفتوح كالنحلة، فيها اللسع والشَهد.

أجل الواجبات .. قلّبت في ذهني مذكّراتي الأخيرة. فعلًا ليس فيها حتى مجرّد تلميح إلى أنّه كان من واجبي حقًّا أن ..

لذتُ بالصمت. ابتسمت ابتسامة انبهار (الراجحُ ابتسامة غباء) ورحت أنظر إلى حدقتيها، أنقّل نظري بينهما، وفي كلّ منهما أرى نفسي: أنا الصغير الصغير الذي لا يتجاوزُ الملّيمتر، سجينُ هاتين الزنزانتين الصغيرتين القوس قُزحيّتين. ومن جديد النحل -الشفاه وألم الإزهارِ اللذيذ..

في كلّ واحد منّا، نحن الأرقام، مقياسُ وقت غير مرئي يُتكتك بصوت غير مسموع، ونستطيعُ من دون النظر إلى الساعة تحديدَ الوقت بفارقٍ لا يتعدّى خمس دقائق. لكنّ مقياس الوقت الذي في داخلي توقّف إذّاك، فلم أعرف مدّة الوقت التي مرّت، وفي ذعر، خطفتُ النَوط ذا الساعة من تحت الوسادة.

الحمد للمحسن! لا يزال أمامي عشرون دقيقة. لكنّ الدقائق القليلة البتراء هذه تركض، وأنا لديّ كثيرٌ كثيرٌ ممّا يجب أن أقوله لها، يجب أن أقول لها كلّ شيء، ذاتي كلّها: عن رسالة «ف»، وعن المساء المريع الذي منحتُها فيه طفلًا، ولسبب لا أعرفُه عن أيّام طفولتي، وعن الرياضيّ «بليابا»، وعن $\sqrt{-1}$، وكيف حضرتُ عيد الإجماع أوّل مرّة، وكيف بكيتُ إذّاك لأنّه تبيّن أنّ على لباسي الموحّد نقطة حبر.

رفعت «م» رأسها وارتفقت. في زاويتي الشفتين خطّان طويلان حادّان، والزاوية القائمة للحاجبين المرفوعين على شكل صليب.

-ربّما في هذا اليوم .. -وتوقّفتْ وازداد حاجباها دكنة. أمسكت بيدي، وضغطتْ عليها بشدّة.

-قل لي، هل ستنساني، هل ستذكرُني دائمًا؟

-لماذا تقولين هذا؟ ماذا تقصدين يا «م»؟ أيّتُها الغالية!

لاذت «م» بالصمت. عيناها صارتا بمحاذاتي، عَبَرَتاني، ثمّ بانتا بعيدتين. وفجأةً، سمعتُ الريح تلطمُ الزجاج بأجنحة هائلة (كانت تلطمه طَوال الوقت طبعًا، لكنّني لم أسمعها إلّا الآن)، ولسبب ما، تذكّرت الطيور ذات الأصوات الثاقبة الحادّة فوق السور الأخضر.

نفضت «م» رأسَها، نضّتْ عنها شيئًا ما. ومرّةً أخرى، لمستني كلُّها لثانيةٍ واحدة .. هكذا المنطاد يلمس الأرض لمسةً مرنةً مدّةَ ثانيةٍ قبل أن يحطّ.

-هيّا، هاتِ جَوربيّ! بسرعة!

الجوربان ملقيان على طاولتي، على الصفحة 193 المفتوحة من مذكّراتي. اصطدَمَتْ يدي في عجلتها بالمخطوط، فتناثرت صفحاته، وبات يستحيل عليّ جمعها وترتيبها. الأهمّ أنه حتى لو جمعتها، لن يكون هناك ترتيبٌ صحيح، بل ستظلّ هناك رغم هذا عتبات وحفر ومجاهيل.

قلتُ:

-أنا لا أقوى على هذا: ها أنتِ ذي إلى جانبي هنا، ورغم ذلك، كأنّكِ خلف جدار قديم غير شفّاف: أسمع عبر الجدار هسهساتٍ وأصواتًا، فلا أستطيع تبيّن الكلمات، لا أعرف ماذا هناك. نعم، لا أقوى على هذا. فأنتِ طَوال الوقت لا تُفصحين عمّا تريدين، لم تقولي أبدًا حتى الآن في أيّ مكانٍ وجدتُ نفسي بغتةً آنذاك في البيت القديم، وأيّة ممرّات كانت تلك الممرّات! ولماذا الدكتور، أم لعلّ شيئًا من هذا كلّه لم يحدث؟

وضعت «م» يدَيها على كتفي ودخلت عميقًا ببطءٍ في عينيّ.

-تريد أن تعرف كلّ شيء؟

-نعم، أريد، يجب عليّ.

-ولا تخشَ أن تتبعني حيثما أذهب، وحتى النهاية، وإلى أيّ مكان آخذك إليه؟

-أجل إلى أيّ مكان تشائين.

-حسن، أعدّك: حين ينتهي العيد وإذا ما .. -آه نسيت أن أسألك: كيف حال «التكامل»؟ عمّا قريب؟

-لا، ما معنى «إذا ما» هذه؟ عدنا من جديد؟ ما معنى «إذا ما» هذه؟

أجابتْ وقد صارت عند الباب:

-سترى بنفسِك.

وحدي، وكلّ ما بقي منها رائحةٌ، لا تكاد تشعر بها، تُشبه الغبار اللذيذ الجافّ الأصفر لأزهارٍ من خارج السور. زد على ذلك أسئلةً صنانير استقرّت في داخلي، كتلك الصنانير التي كان الأقدمون يستخدمونها لصيد السمك (متحفُ عصورِ ما قبل التاريخ).

.. لماذا تطرّقت فجأةً إلى موضوع «التكامل»؟

*****

المذكّرة الرابعة والعشرون

الملخّص:

حدّ التابع. الفصح. يجب شطب كلّ شيء.

أنا آلةٌ شُغِّلتْ على عددٍ أكبر ممّا ينبغي لها من الدورات؛ المحاملِ (الرولمانات) ارتفعتٍ حرارتُها وحميتْ، ما هي إلّا دقيقةٌ حتى يسيلَ المعدنُ المصهورُ، فكلُّ شيء إلى العدم. فإليّ بالماء البارد بسرعة، إليّ بالمنطق. وأروحُ أصبّ الماء سطولًا، لكنّ المنطق يئزّ على المحمل الحامي، وينصهر في الهواء بخارًا أبيضَ لا يكاد يبين.

واضحٌ طبعًا، أنّه لتحديد القيمة الحقيقية للتابع، يجب أن نأخذَ حدّه. وواضحٌ أنّ «ذوبان» الأمس السخيف «في الكون» مأخوذٌ في حدّه الأقصى، هو: الموت. لأنّ الموت هو تمامًا الانحلال الأكمل لأناي في الكون. وهكذا، إذا ما رمزنا إلى الحبّ بـ (ح) وإلى الموت بـ (م)، فإنّ ح = تا (م)، أي: الحبّ والموت.

نعم، هو ذا تمامًا! هو ذا تمامًا! لذا أنا أخاف «م». أخافُ أن أكونَ معها، لِذا لا أريدها. لكن لماذا تسكن «لا أريدها» هذه «وأريدها» معًا في داخلي؟ هنا يكمنُ ذلك الشيءُ المروّع، وهو أنّي أرغبُ من جديد في موت الأمس النهائيّ. هنا يكمنُ ذلك الشيء المروّعُ وهو أنّني حتى الآن، حين دخل التابع المنطقي في معادلة «التكامل»، وتبيّن بدهيًّا أنّه يتضمّن في ذاته الموت بشكل غير ظاهر، لا أزالُ أريدها رغم هذا كلّه، أريدها بشفتيّ، بيديّ، بصدري، بكلّ ملّيمترٍ من ..

غدًا عيدُ الإجماع. ستكونُ معي هناك، وسأراها، لكن من بعيد. من بعيد، سيكون هذا مؤلـمًا، خاصّةً أنّه ينبغي لي أن أكون إلى جانبها، لأنّني أشعر بميل ورغبة لا تقاومان في أن أكون إلى جانبها، لأن تكونَ يداها وكتفها وشعرها .. إنّي لمريد حتى هذا العذاب، ولْيكن ما يكون.

أيّها المحسنُ العظيم! أيّ عبث هذا في أن يريدَ أحدُنا الألم والعذاب؟ من لا يُدرك أنّ المكوّنات المرضية حدود سلبية؟ وأنّ حاصلها يقلّل من تلك القيمة التي نسمّيها (السعادة) .. وتاليًا.. لكنْ، لا مجال لأيّ «تاليًا»، كلّ شيءٍ واضحٌ لا يحتاجُ إلى برهان.

مساءً:

عبر جدران البيت الزجاجية مغيبٌ عاصفٌ، ورديٌ محموم، مقلق. أدير الأريكةَ حيث لا يلوّح أمامي هذا الوردي، وأتصفّح مدوّناتي، وأراني من جديد ناسيًا أنّي لا أكتبُ لنفسي بل لكم، أنتم المجهولون الذين أحبّهم وأرثي حالهم، لكم أنتم الذين لا تزالون تدبّون في العصور البعيدة، أسفل.

إليكم شيئًا عن عيد الإجماع، عن هذا اليوم العظيم. لقد أحببتُ هذا العيد دائمًا. منذ سنيّ طفولتي، يتهيّأ لي أنّ هذا اليوم بالنسبة إلينا شيء من قبيل «الفصح» بالنسبة إلى الأقدمين. أذكر أنّنا ليلةَ العيد كنّا نصطنع لأنفسنا تقويمًا صغيرًا بالساعات، وكنّا نشطب بظَفَرٍ كلّ ساعةٍ تمضي: كلّما اقترب موعدُ العيد ساعةً قلّ انتظارُنا ساعةً .. وأقسمُ، لو أنّني واثقٌ أنّ أحدًا لن يراني، لحملت الآن معي مثل ذلك التقويم الساعاتي أنّى ذهبت، وتابعت عليه ما يتبقّى من الوقت إلى غدٍ، حين أرى ولو من بعيد ..

(هنا أعاقوني، فقد أتوا لي بلباس موحّد جديد، خرج توًّا من

المشغل. حسْب التقليد المتّبع، نُعطى جميعًا عشيّة العيد لباسًا موحّدًا جديدًا. في الممرّ خطوات، صيحات فرح، جلبة).

والآن أتابع. سأرى غدًا منظرًا يحدثُ مرّةً واحدةً في كلّ عام، لكنّه في كلّ مرّةٍ يُثيرُ انفعالاتٍ جديدةً: سأرى كأسَ الإجماع الهائلة، والأيادي المرتفعة بخشوع. غدًا، يوم انتخابات المحسن السنوية. غدًا، نسلّم المحسن، من جديد، مفاتيحَ صخرةِ سعادتنا التي لا تتزعزع.

بدهيٌ أنّ هذا لا يشابهُ انتخابات الأقدمين الفوضوية غير المنظّمة، حين لم تكن نتيجة الانتخابات معروفة سابقًا (ومن المضحك أن نقول هذا)، فأيّ أمر أسخف من أن تُبنى دولةٌ على مصادفاتٍ غير محسوبةِ إطلاقًا، هكذا خبط عشواء! مع هذا، لزمتنا قرونٌ من الزمن لندركَ هذا الأمر.

وهل أحتاج إلى أن أقول: إنّه لا مجال عندنا للمصادفات هنا؟ كما في كلّ شيء، وإنّه لا مجال لحدوث أيّة مفاجآت. فالانتخابات ذاتها لها معنى رمزي قبل أيّ معنى آخر، وهو التذكير بأنّنا جسمٌ واحدٌ جبّارٌ بمليون خليّة، بأنّنا، إذا ما استعرنا كلمات (إنجيل) الأقدمين كنيسة واحدة. لأنّ تاريخ الدولة الواحدة لم يعرف حادثة واحدة، تجاسر فيها صوتٌ واحدٌ في هذا اليوم المهيب على الخروج عن اللحن الواحد الجليل.

يقال: إنّ الأقدمين كانوا ينتجون الانتخابات بنوع ما من السرّيّة، متخفّين كاللصوص، حتى إنّ بعض مؤرّخينا يؤكّد أنّهم كانوا يحضرون الاحتفالات الانتخابيّة مقنّعين بإحكام، أتخيّل هذا المنظرَ الليليَّ الكئيبَ بشكل خياليّ: الليل، الساحة، هيئات نسائيّة في مشمّعات سود، تتسلّل محاذاة الجدران، لهب المشاعل القرمزي الخابي بفعل الريح .. علام كانوا بحاجةٍ إلى هذه السرّيّة كلّها؟ هذا أمر لم يتّضح نهائيًا إلى الآن.

الراجحُ أنّ الانتخابات كانت مرتبطة بطقوس صوفية، خرافية أو حتى إجرامية آثمة. أمّا نحن، فليس لدينا ما نخفيه أو نخجل منه: إنّنا نحتفل بالانتخابات عِيانًا بشرف، جهارًا نهارًا. أنا أرى كيف يصوّت جميعُهم للمحسن، جميعهم يرون كيف أصوّت أنا للمحسن كذلك. وهل يمكن أن يكونَ غير هذا؟ ما دام «جميعهم» و «أنا» هو « نحن» الواحدة. فما أنبل ما نقوم به وأصدقه وأرفعه حين يُقارن «بالسرّية» اللصوصية الجبانة عند الأقدمين! وإلى ذلك فما أنفعه وأجداه! حتى لو افترضنا المستحيل، أي نشازًا في اللحن الواحد المألوف، فإنّ الحرّاس اللامرئيّين هنا في صفوفنا بإمكانهم تحديد الأرقام الضالّة فورًا، وتجنيبها خطواتٍ خاطئةً أخرى قد تقوم بها، وإنقاذ الدولة الواحدة وحمايتها منها. وأخيرًا هناك شيءٌ آخر ..

عبر الجدار يسارًا، هناك أمام مرآة الخزانة امرأةٌ، تفكّ على عجل أزرار لباسها. لاحت أمامي مدّة ثانيةٍ واحدة وبشكل غامض عينان، شفتان، حلمتان ورديّتان حادّتان. وأُنزل الستار فعاودني، في لحظةٍ، الأمسُ كلُّه، فما عدت أعرف ما هو «أخيرًا هذا الشيء الآخر» وما عدت أريد أن أعرف منه شيئًا، ما عدت أريد، فما أريده الآن شيء واحد: «م». أريد أن تكون معي، معي لا غير، في كلّ دقيقة وفي أيٍّ وقت، دائمًا، وكلّ ما كتبته الآن عن الإجماع، هذا كلّه لا حاجةَ لي به، ليس ما أبتغيه وأرغب فيه، بل وددتُ لو أشطب كلّ شيء، أمزّقه، أرميه. لأنّني أعرف (وليكن هذا تجديفًا، لكن هذا هو الواقع)، لأنّني أعرف: العيد لا يكونُ إلّا معها، لا يكون إلّا حين تكون جانبي كتفًا إلى كتف، ومن دونها ستكون شمسُ الغد مجرّد دائرة صغيرة من الصفيح، والسماء ستكونُ صفيحًا ملوّنًا بالأزرق، وأنا نفسي سأكون صفيحًا.

وأتناولُ سمّاعة الهاتف: «م»، هذه أنتِ؟

-نعم، أنا. لشدّة ما تأخّرتُ.

-ربّما لم يفت الوقت بعد، أريد أن أطلب منك، أريد أن تكوني معي غدًا، أيّتها الغالية ..

خرجت «الغالية» خافتة تمامًا. ولسببٍ ما، مرّ في خاطري ما حدثَ اليوم في العنبر: وضعوا على سبيل المزاحَ ساعةً تحت مطرقةٍ تزِنُ مئة طنّ، أتبعَت ذلك تلويحةٌ أثارت ريحًا في وجوه الحاضرين، ثمّ لمسةٌ خافتة ناعمة تزن مئة طنّ للساعة الهشّة.

تراءى لي في فترة التوقّف التي أعقبت كلماتي أنّني أسمع هناك، في غرفة «م» همسًا. ثم أتاني صوتُها:

-لا، .. لا أستطيع. أنت تعرف: أنا بنفسي كنت .. لكن لا، .. لا أستطيع. لماذا؟ غدًا ترى، إنّ غدًا لناظره قريب.

الليل.

*****

المذكّرة الخامسة والعشرون

الملخّص:

النزول من السماء. أعظم كارثة في التاريخ. المعلوم انتهى.

حين نهضنا واقفين جميعًا قبل بداية الاحتفال، واهتزّ النشيدُ فوق الرؤوس، تُردّده مئاتُ أبواق المصنع الموسيقي وملايين الحناجر البشريّة، وامتدّ حجابًا بطيئًا مهيبًا، نسيت في ثانيةٍ كلّ شيء: نسيتُ ذلك الشيء المقلق الذي قالته «م» في عيد اليوم، حتى هي، أُنسيتُها كما بدا لي. كنتُ في هذه اللحظة ذلك الذي أبكته، في مثل هذا اليوم، اللطخة الصغيرةُ الصغيرةُ على لباسه، والتي لم يلحظها أحدٌ سواه. وإذا لم يكن أحدٌ ممّن حولي يرى فيّ أيّة لطخات سود لا تُمحى، أنا غارقٌ الآن، فإنّي أنا نفسي أعرف أنّه لا مكان لي، أنا الآثم بين هذه الوجوه الصريحة المفتوحة. آهٍ لو أنهض من فوري وأصرخ، وأنا أغصّ، مُفضيًا بكلّ شيء عن ذاتي، ولتكن نهايتي بعد هذا، لتكن على أن أشعر لثانية واحدة أنّي نقيٌّ وسخيفٌ، كهذه السماء الطفليّة الزرقاء.

العيونُ كلّها كانت مرفوعةً إلى هناك، إلى الأعلى. وفي الزرقة الصباحية البِكر التي لم تجفّ دموعُ الليلِ فيها بعد، بقعةٌ لا تكاد تُرى، تبدو سوداء حينًا، متسربلةً بالأشعّة حينًا آخر. إنّه هو، «يهوا» الجديد، يهبطُ إلينا من السموات بمنطاد، يهبطُ حكيمًا ومُحبًّا بقسوة كـَ «يهوا» الأقدمين. مع كلّ دقيقة تمرّ، كان يزداد منّا قربًا، كانت ملايين القلوب

تزداد للقائه ارتفاعًا، ها هو ذا صار يرانا. وأخذتُ أنا أجول معه بالفكر نظري من علٍ: ها هي ذي دوائر المنصّات ذات المركز الواحد المحدّدة بنقطٍ زرقٍ رقيقة كأنّها دوائرُ نسيج العنكبوت المذرورة بشموس (.. إنّه لمعان الأنواط). في مركز هذه الدوائر، سيحطّ بعد قليل العنكبوت الأبيض، المحسن الحليم في ثيابه البيض، المحسن الذي يكبّلنا بحكمة من أيدينا وأرجلنا بشباك السعادة الخيّرة.

ها هو ذا قد انتهى من نزوله المهيب. صمتَ نحاسُ النشيد، جلسنا جميعًا، وأدركت من فوري: كلّ شيء انتهى فعلًا، خيوط العنكبوت الدقيقة جدًّا شُدّتْ، إنّها تهتزّ وستتمزّق بين هنيهة وأخرى، ثمّ يحدثُ شيءٌ ما غير معقول ..

نهضتُ قليلًا من مقعدي، راشقًا بنظري فيما حولي، فالتقت نظرتي بعيون قلقة بحبّ، تنتقل سراعًا من وجه إلى آخر. ها هو ذا أحدهم، رفع يده وأخذ يشيرُ إلى آخر، مُحرّكًا أصابعه حركةً لا تكاد تُلحظ. وها هي إشارة جوابيّة بالإصبع. وها هو كذلك .. فهمتُ حينئذٍ: إنّهم الحرّاس. عرفتُ كذلك أنّ شيئًا ما يؤرّقهم، خيوط العنكبوت مشدودة، تهتزّ. وشعرت في داخلي، كما في الراديو المولّف على الموجة نفسِها باهتزاز جُواني.

على المنبر، شاعرٌ يلقي قصيدةً تمجيديةً بمناسبة الانتخابات، لكنّني لم أسمع كلمة واحدة منها: لم أسمع غير الاهتزازات الرتيبة للرقّاص السداسي، مع كلّ نوسة من نوساته تقتربُ الساعة المضروبة. كنتُ أُقلّبُ الوجوه بين الصفوف بشكلٍ محموم وجهًا بعد وجه كما صفحات كتاب، لكنّني لـمّا أجد ذلك الوجه بعد، الوجه الوحيد الذي أبحثُ عنه، والذي عليّ إيجاده بسرعة، لأنّ الرقّاص سيُتكتكُ تكتكةً أخرى، وبعدها ..

ها هو ذا، إنّه هو طبعًا. في الأسفل، حذو المنبر تنسلّ أذنان جناحان فوق الزجاج اللامع، وينعكس الجسم الراكض على شكل عقدة حرف «س» سوداء منحنية مرّتين، كان مندفعًا في الممرّات الضائعة بين المنصّات إلى مكانٍ ما. «س» ، «م» وخيطٌ ما (بالنسبة إليّ كان بينهما طَوال الوقت خيطٌ ما،لم تتبيّن لي بعد حقيقة هذا الخيط، لكنّني سأفكّ لغزه ذات يوم). تشبّثت به عيناي، وكان لا يزالُ يغذّ في السير كالكبّة ووراءها خيط. ها هو ذا قد توقّف، ها هو ذا..

اخترقتني شيء ما مثل تفريغ خاطف عالي التوتّر، ولفّتني عقدةً. في صفّنا، على مسافة عشرين درجة منّي، توقّف S «وانحنى. رأيت «م» وإلى جانبها «ر-13» ذو الشفتين الزنجيتين بشكل مقرف، يبتسم ابتسامة رضى.»

أوّل ما جال في خاطري هو أن أنقضّ إلى هناك وأصرخُ في وجهها: «لماذا أنتِ اليوم معه؟ لماذا لم تريدي أن تكوني معي؟». لكنّ خيوط عنكبوت غير مرئيّة، خيّرة كبّلت بقوّة يديّ ورجليّ، فبقيت متماسكًا في مكاني، صارًّا أسناني، لكن من دون أن أرفع عنهما عينيّ. لا أزال أذكر ذاك الألم الحادّ، الفيزيائيّ، في القلب وكأنّه الآن، وأذكر أنّي قلت في نفسي آنذاك: «إذا كان يمكنُ أن ينتج عن أسباب غير فيزيائيّة ألمٌ فيزيائيّ، فمن الواضح أنّ ..».

لكنّي لم أمض بالمحاكمة إلى غايتها مع الأسف. أذكر أنّه مرّ بخاطري شيء ما عن «النفس»، ومرّ في ذهني المثل القديم العديم المعنى: «طارت نفسُه شعاعًا». وتجمّدتُ: الرقّاص صمتَ. الآن يبدأ شيءٌ ما ..، لكن ما هو؟

حان الآن وقتُ فسحةِ الدقائق الخمس التي تسبق الانتخابات،

فسحة الصمت التي أقرّها العرف والتقليد. لكنّ هذا الصمت لم يكن ذلك الصمتُ الابتهاليُ الخاشع كما كان دائمًا، بل كان كما عند الأقدمين حين لم يكونوا قد عرفوا أبراج مكثّفاتنا، حين كانت السماء غير المروّضة تثورُ «بالعواصف» بين حينٍ وآخر. كان الهدوء الآن عندنا كما كان عند الأقدمين؛ هدوءٌ يسبقُ العاصفة.

الهواء من جديد شفّاف. يودّ أحدنا لو يتنفّس فاغرًا فاه. والسمع المتوتّر حتى الألم يسجّل: في مكان ما خلفَنا، همسٌ مقلق قارضٌ كالفأر. وأنا أرى طَوال الوقت بعينيّ المغضوضتين ذينكما الاثنين «م» و «ر» جنبًا إلى جنب، الكتف حذو الكتف، وعلى ركبتيّ تختلج يدان شعراوان غريبتان، هما يداي الكريهتان.

الأنواط ذات الساعات في أيدي الجميع. دقيقة. اثنتان. ثلاث .. خمس دقائق، ومن المنبر صوتٌ حديديٌّ بطيءٌ:

-الموافقون، برفع الأيدي!

لو كان يوسعني أن أرفع إليه عينيّ باستقامةٍ وولاءٍ كما من قبل: «ها أنا ذا كلّي، كلّي. خذني!»، لكنّي لم أجرؤ الآن. رفعت يدي بجُهد، وكأنّ مفاصلي قد صدئت كلّها.

حفيف ملايين الأيدي. و «آه» مخنوقة ندّت عن شخص ما. شعرتُ أنّ شيئًا ما قد بدأ وأخذ يهوي بسرعة، لكنّي لم أعرف ما هو، لم تكن لديّ القوة، فلم أكن أجرؤ على النظر ..

-من المعارض؟

كانت هذه دائمًا أجلّ لحظة في العيد، فقد كنّا جميعًا نبرحُ جالسين مِن دون حراك، حانين رؤوسَنا بابتهاج للنيّر الخيّر، لرقم الأرقام. لكنّي

سمعتُ الآن من جديد، وقد تملّكني الرعبُ، حفيفًا. كان الحفيفُ رقيقًا جدًّا كتنهيدة، لكنّه كان مسموعًا أكثر من أبواق النشيد النحاسيّة قبل حين. هكذا يرسل الإنسانُ آخر مرّةٍ في حياته تنهيدةً لا تكادُ تُسمع، فإذا بوجوه كلّ من حوله تشحب، وإذا بالقطراتِ الباردةِ تعلو جبينهم.

رفعت عينيّ و..

كان هذا في جزءٍ بالمئة من الثانية، ورأيت آلافَ الأيدي انطلقت إلى فوق: «معارض» ثمّ هوت. ورأيت وجه «م» الشاحب المشطوب على شكل صليب ويدها المرفوعة، وغامت الدنيا في عينيّ.

هنيهة، توقّف، سكون، نبضٌ ثمّ، كما لو بإشارة من قائدِ فرقةٍ موسيقيةٍ مجنون، على المنصّات كلّها دفعةً واحدةً، قعقعةٌ وصيحاتٌ، وتيّارٌ من الملابس الموحّدة المتطايرة في هربها، وأجسام الحرّاس المندفعة في ارتباك، وكعوب أحذية في الهواء أمام عينيّ مباشرة، وبمحاذاة الكعوب فم مفغورٌ يتمزّقُ من صرخة غير مسموعة. ولسبب أجهله، كان أحدّ ما انغرز فيّ هو آلاف الأفواه تصرخ من دون صوت، كأنّما على شاشة مريعة.

وكما على الشاشة، لاحت على بُعدٍ يسير أمامي في الأسفلِ لثانيةٍ شفتا «ف» المبيضّتان: كانت تقفُ ملتصقة بجدار الممرّ حاميةً بطنها بيديها المتصالبتين. ثمّ لم يعد لها أثر، مُسحتْ من على وجه الأرض أو أنّي أنا نسيتُ أمرها لأنّ .. لكنّ هذا لم يكن آنئذٍ على الشاشة، بل في داخلي، في قلبي المهصور، في صدغيّ اللذَين يدقّان بتواتر.

فوق رأسي يسارًا على المقعد، وثب «ر-13» فجأةً مرغيًا مزبدًا، أحمر، مسعورًا. بين يديه «م» شاحبة، ثوبها ممزّق من الكتف إلى الصدر، وعلى بياضِ جلدها دم. كانت «م» تتشبّث برقبته، وكان يحملها منطلقًا

بها في قفزاتٍ هائلةٍ من مقعد إلى مقعد إلى فوق، كريهًا وماهرًا مثل «غوريلّا».

وكما في الحريق عند الأقدمين، صار كلّ شيء قرمزيًا، لم تعد تتملّكني إلّا فكرة واحدة: أن أنهضَ فألحق بهما. لا أستطيع أن أوضّح لنفسي الآن من أين اجتاحتني تلك القوّة، لكنّي شققتُ الصفوفَ مثل كَبش، وانطلقت فوق الأكتاف، فوق المقاعد، وها أنا ذا قربهما، ها أنا ذا أمسك بتلابيب «ر»:

-إيّاك، إيّاك أقول لك! فورًا! (لحسن الحظّ لم يسمعْ صوتي إذ كانوا جميعًا يندفعون هاربين، كلٌ منهم يصرخ على ليلاه).

-مَنْ؟ ما هذا؟ ماذا؟ - التفتَ «ر»، كانت شفتاه ترتجفان وترشّان رذاذًا، أغلبُ الظنّ أنّه حسِبَ أنّ أحد الحرّاس أمسك به.

-ماذا؟ لأنّي لا أريد، لا أسمح لك! أنزلها عن يديك من الفور!

لكنّه لم يزدْ على أن حرّك شفتيه باستياء، وهزّ رأسه، ومضى راكضًا. هنا، أشعر بخجل غير معقول من كتابتي هذا، لكن يبدو لي أنّه عليّ، مع هذا، أن أسجّله كي تستطيعوا -أنتم يا قرّائي المجهولين -أن تدرسوا قصّة مرضي حتى النهاية.

هنا ضربته على رأسِه بقواي كلّها. ضربتُه، أتفهمون!؟ هذا أمر أذكره بجَلاء. أذكرُ كذلك أنّه انتباني شعور بالانعتاق، بالخفّة في جسمي كلّه بسبب هذه الضربة.

انزلقت «م» سريعًا من يديه.

-اذهبْ .. صرخَتْ «م» بـ «ر»، أنت ترى أنّه .. اذهبْ يا «ر»،

اذهب!

أطبق «ر» أسنانه الزنجيّة البيض بشدّة، ورشّ وجهي بكلمة ما، وقفز إلى أسفل، واختفى. رفعتُ «م» على يديّ، وضممتُها بقوّة إليّ وحملتها.

كان قلبي يخفقُ بين أضلاعي قويًّا هائلًا، مع كلّ نبضة كان يدفع بموجة صاخبة، حارّة، جذلى بشكل لا يصدّق. وإذا كان هناك شيءٌ ما قد تناثر حطامًا، فلا بأس! المهمّ أنّني أحملها هكذا، وأمضي بها، أمضي بها..

مساءً، الساعة الثانية والعشرون..

أكاد لا أقوى على إمساك القلم بيدي، لشعوري بالتعب الشديد بعد أحداث هذا الصباح المدوِّخة كلّها. أوَتكون جدران الدولة الواحدة الأبديّةُ المنقذة قد انهارت حقًّا؟ أعُدنا من جديد بلا سقف يحمينا، إلى حالة الحرّيّة المتوحّشة كأجدادنا الأوائل؟ ألم يعد وجودٌ للمحسن حقًّا؟ «معارض» وفي عيد الإجماع، «معارض؟» إنّي لأشعر بالخجل منهم والألم نحوهم والخوف عليهم. ومن هم، بالمناسبة، هؤلاء؟ ومَن أكون أنا نفسي: أأنا «هُمْ» أم «نحن» -أتُراني أعرف؟

ها هي ذي تجلسُ على مقعد زجاجيّ، سخّنته الشمس في أعلى منصّة حيث حملتها. الكتف الأيمن وما تحته -البدايةُ الرائعة لانحناءٍ لا يمكن حسابه -مكشوفان، وخيط دقيق جدًّا من الدم يتلوّى كرقطاء. وهي كأنّها لا تلاحظ أنّ الدم يسيل، وأنّ الصدر مكشوف، لا بل أكثر من ذلك: إنّها ترى هذا كلّه، لكنّه تمامًا ما تحتاج إليه الآن، ولو كان الثوب عندها معقود الأزرار لمزّقته..

-وفي الغد، (إنّها تتنفّس بنهم من خلال الأسنان المطبقة اللامعة) لا نعرف ما سيكونُ في الغد. أتفهم، لا أعرف أنا ولا أحد يعرف، إنّه المجهول! أتفهم، كلّ ما هو معلوم قد انتهى؟ سيكونُ هناك شيء جديد، غير معقول، لم يُر مثله من قبل.

هناك في الأسفل يرغون، ويزبدون، يتدافعون، يتصارخون. لكنّ هذا بعيد، يمعن فيّ بعده باستمرار لأنّها تنظر إليّ، لأنّها تجذبني ببطء إلى داخلها عبر نافذتَي حدقتيها الذهبيّتين الضيّقتين. واستمرّ هذا طويلًا وبصمت. ولسبب ما، ومض في خاطري كيف أنّي كذلك، نظرت ذات مرّة من خلال السور الأخضر في حدقتين صفراوين غامضتين، وكانت الطيوّر تحوّم فوق السور (أم أنّه كان هذا في مرّةٍ غير تلك؟).

-اسمع، إذا لم يحدث شيء ما خاصٌّ غدًا، سآخذك إلى هناك، هل تفهمُني؟

لا، لا أفهم شيئًا، لكنّني أهزّ رأسي بصمت. لقد انحللتُ، أنا عددٌ متناهي الصغر، أنا نقطة ..

لكنْ في النهاية، للحالة النُّقْطية هذه منطقها الخاص (منطق هذا اليوم): في النقطة أكثر ما يكون من المجاهيل. حسب النقطة أن تتحرّك، أن تهتزّ حتى يوسعها أن تتحوّل إلى آلاف الخطوط المنحنية، إلى مئاتِ الأجسام.

أشعر بالرعب من التحرّك: إلام سأصير؟ وبدا لي أنّ جميعَهم مثلي، يخافون الإتيان بأدنى حركة. إنّهم جميعًا الآن، حين أكتب هذه السطور، يجلسون منزوين في أقفاصهم الزجاجية، يترقّبون حدوثَ أمرٍ ما. لم يعد يسمع في الممرّ الآن أزيز المصعد المألوف في مثل هذه الساعة، ولا تسمع أصوات الضحك ولا وقع الخطى. لكنّي أراهم يعبرون أحيانًا اثنين

اثنين على أطراف أصابعهم في الممرّ، وهم يتهامسون.

ماذا سيكونُ غدًا؟ إلامَ سأصيرُ غدًا؟

*****

المذكّرة السادسة والعشرون

الملخّص:

العالم موجود. الطفح. 41 درجة.

الصباح. السماءُ متينةٌ عبر السقف، مدوّرة حمراء الخدّ كحالتها المعهودة. أظنّ بأنّ دهشتي ستكون أقلّ فيما لو أنّني رأيت فوق رأسي شمسًا مربّعة غير مألوفة، وأناسًا في ملابس متعدّدة الألوان من صوف الحيوان، وجدرانًا حجرية كتيمة. ماذا، ألا يزالُ العالمُ، عالمنا، موجودًا إلى الآن إذن!؟ أم إنْ هذه إلّا العطالة؟ أطفئَ المُولّد، لكنّ المسفّات لا تزال تقرقع وتدور دورة، ودورة ثانية، وثالثة لتهدأ في الرابعة...

هل عرفتم هذه الحالة الغريبة؟ تستيقظون ليلًا، تفتحون عيونكم على الظلمة، وفجأة تشعرون أنّكم تائهون، وتأخذون من فوركم تتلمّسون ما حولكم، تبحثون عن شيء ما أليف وصلب، عن جدار، مصباح، كرسيّ. هكذا تمامًا كنت أتلمّس، أبحثُ في جريدة الدولة الواحدة على عجل وسرعان ما رأيت:

«أقيمَ البارحةَ عيدُ الإجماع الذي انتظرناه جميعًا منذ أمد طويل بفارغ الصبر. وللمرّة الثامنة والأربعين، انتُخب بالإجماع المحسن إيّاه، الذي برهن المرّة تلو الأخرى على حكمته التي لا تلين ولا تضعف. وقد عكّر صفوَ الاحتفال شيءٌ من البلبلة، أثارها أعداء السعادة الذين حرموا أنفسهم، طبعًا بفعلتهم هذه، الحقّ في أن يصبحوا قرميدات في أساس الدولة الواحدة المتجدّد أمس. ومن الواضح لكلّ منّا، أنّ أخذ

أصواتهم في الحسبان سيكون مثلُه في السخافة مثل من يحسب سعالَ مرضى يحضرون مصادفةً حفلة موسيقيةً جزءًا من سمفونية جليلة، بطولية ..».

أيّها الحكيم! أوَنكون حقًّا أنقذنا رغم كلّ شيء؟ وبم يمكن بالفعل الاعتراض على هذا القياس المنطقي الأصفى من البلّور؟

بعد ذلك سطران: «اليوم في الساعة الثانية عشرة، يُعقد اجتماع مشترك للمكتب الإداري، والمكتب الطبّي، ومكتب الحرّاس. وخلال أيام يُنتظر صدور قرار هام».

بلى، لا تزال الجدرانُ قائمة، ها هي ذي أستطيعُ لمسها بيديّ. لقد اختفى فيّ الآن هذا الإحساسِ أنّي ضائع، أنّي في مكان ما مجهول، أنّي تائه، ولم يعد أمرًا عجبًا إطلاقًا أن أرى سماء زرقاء وشمساً مدوّرة، والناسُ جميعًا يتوجّهون إلى العمل كعادتهم.

كنتُ أسيرُ في الشارع بقَدم ثابتةٍ ومرنانةٍ بشكلٍ خاص، كان يتهيّأُ لي أنّهم جميعًا يمشون المشية نفسَها، لكن، ها هو ذا تقاطع طرق، منعطفُ ناصية، إذا بي أرى: يبتعدُ جميعُهم عن الناصية بشكلٍ مريب، يتجنّبونها كأنّما انفجر في الجدار أنبوب، فأخذ الماء البارد يتدفّق منه ناثرًا رذاذه، فلا مجال للسير على الرصيف.

تقدّمتُ خطواتٍ خمس، خطوات عشر، وبلّلني كذلك الماء البارد، رنّحني وقذفني عن الرصيف .. كانت ورقةٌ مربّعة على ارتفاع نحو مترين على الجدار ، تبرز منها حروف خُضر سامّة، غير مفهومة: «الميفي»[1]

---

(١) ليس لهذه الكلمة معنى إلاّ أن تكون توحي باسم «ميفيستوفل» الذي هو

تحتها ظهر متقوّس، وأذنان جناحان تهتزّان بشفافيّة من الغضب أو الاضطراب. كان يثبُ إلى الأعلى رافعًا يده اليمنى، مطوّحًا بيسراه نحو الخلف كجناحٍ مريضٍ، مهيض، لينزع الورقة فلا يطالها، إذ كان يقصر دون الوصولِ إليها قليلًا.

الراجح، أنّه كانت لدى كلّ واحد من السابلة الفكرة التالية: «إذا ما اقتربتُ، أنا الواحد من هؤلاء جميعًا، ألن يُظنّ أنّي اقترفتُ ذنبًا ما؟ ولهذا تمامًا أريد أن ..».

وأعترفُ أنّ هذه الفكرة راودتني أنا الآخر. لكنّي تذكّرت كم مرّةٍ كان لي ملاكًا حارسًا حقيقيًا، كم مرّةٍ أنقذني! فدنوت بجرأة، ومددت يدي، ونزعت الورقة.

استدار «S»، غرز بسرعة فائقة مثقّبيه فيّ حتى القاع، وأخرج شيئًا ما من هناك. ثم رفع إليّ أعلى حاجبه الأيسر، وغمز بحاجبه الأيمن إلى الجدار حيث كان «ميفي» معلّقًا. ولاح لي ذيل ابتسامته التي بدت لي، لدهشتي، تنمّ عن المرح. لكن، والحقّ يقال، علامَ الدهشة؟ الطبيب يفضّل دائمًا الطفح ودرجة الحرارة 40، على الحرارة المرهقة المرتفعة لدوْر الحضانة، فأقلّه هنا المرض معروف، أما «ميفي» الذي تطاير اليوم على الجدران فهو طفح. بلى، أنا أفهم ابتسامته ..![1].

هبطت إلى النفق، تحت الأقدام تلك الورقة البيضاء مرّة أخرى: «ميفي»، على زجاج الدرجات الذي لا شائبة فيه. وعلى الجدار أسفل،

روح الشرّ المعروف في الآداب الأوروبّية، خاصّة في رواية غوته «فاوست» (المترجم).

(١) يجب الاعتراف أنّني لم أجد حلاً دقيقًا لهذه الابتسامة إلاّ بعد عدّة أيام، كانت حافلة بأغرب الأحداث، وأبعدها عن التوقّع.

علي المقعد، على المرآة في العربة كذلك (يبدو أنها ألصقت على عجل، بقلّة اهتمام ، بشكل منحنٍ)، في كلّ مكان الطفح الأبيض الكريه نفسُه.

في السكون، قرقعةُ العجلات الجليّة الواضحة كصخب الدم الفائر. لمس أحدُهم شخصًا من كتفه فارتعد، وسقطت منه رزمة أوراق. وإلى يساري شخص آخر، يقرأ في الجريدة السطر إيّاه بعينه، السطر إيّاه بعينه، السطر إيّاه بعينه، والجريدة في يده ترتعش ارتعاشات لا تكادُ تُرى. وأشعر في كلّ مكان، في العجلات، في الأيدي، في الجرائد، في الرموش، أنّ النبض يتسارع، وقد تصبح الحرارة اليوم، حين سأكون مع «م» هناك، 39، 40، 41 درجة يُشار إليها بخطّ أسود على مقياس الحرارة.

في العنبر، السكون نَفْسُه مشوب بأزيز مروحة بعيدة غير مرئيّة، الآلات تقف صامتة متجهّمة. الرافعات وحدها تنزلق، تنعطف في حركةٍ لا تكادُ تُسمع، كأنّها تسير على أطراف أصابعها، تلتقط بمخالبها كتلًا زرقًا من الهواء المتجمّد، وتنقلها إلى صهاريج على متن «التكامل»، فنحن نعدّه لإطلاق تجريبيّ.

-ماذا، هل ننتهي من شحنه في أسبوع؟ هذا ما قلته للباني الثاني. وجهه آنية خزفية زيّنت بزهرات: اثنتين زرقاوين؟ واثنتين ورديّتين ناعمتين (العينان -الشفتان) لكنّها حائلة اللون اليوم، باهتة. أخذنا نكمل حساباتنا بشكل مسموع، لكنّي توقّفت فجأة من دون أن أكمل كلمتي، وقد فغرتُ فمي: كان هناك عاليًا تحت القبّة، وعلي كتلة زرقاء ترفعها الرافعة مربّع أبيض لا يكادُ يلحظ. ورقة ملصقةٌ. واهتززتُ بكِياني كلّه، ربّما من الضحك. بلى، فأنا نفسي أسمع كيف أضحك (هل عرفتم هذا، حين يسمع أحدكم ضحكه هو؟).

قلت: لا، اسمعني .. تصوّر أنّك في منطاد قديم، مقياسُ الارتفاع يشير فيه إلى خمسة آلاف متر، وأنّ الجناح انكسر، وأنك أخذت تهوي متشقلبًا صوب أسفل، وأنت تحسب في طريقك: «غدًا من الساعة الثانية عشرة حتى الثانية .. من الثانية حتى السادسة .. في السادسة الغداء». أليس هذا أمرًا مضحكًا؟ نحن الآن هكذا تمامًا!

الزهرتان الزرقاوان تتحرّكان، تحدّقان. ماذا لو أنّي كنت زجاجيًا؟ ولم أكن أرى أنّه بعد ساعات معدودة، ثلاثٍ أو أربع..

*****

المذكّرة السابعة والعشرون

الملخّص:

لا حاجةَ لأيّ ملخّص، فهذا غير ممكن.

أنا وحدي في ممرّاتٍ لا نهاية لها -في تلك الممرّات ذاتِها. سماءٌ إسمنتيةٌ بكماء. في مكانٍ ما، ينقّط الماء على حجر. الباب الثقيل، المألوف، غير الشفّاف، ومن هناك هديرٌ مكتوم.

قالت لي: إنّها ستخرجُ إليّ في تمام الساعةِ السادسة عشرة. لكن، ها قد مرّت خمسُ دقائق، عشرُ دقائق، خمسَ عشْرةَ دقيقة بعد السادسةِ عشْرةَ ولا أحد.

ولثانيةٍ واحدة، عدتُ أنا السابق الذي سيشعرُ بالرعب إذا ما فُتح هذا الباب. خمس دقائق أخرى، وإذا لم تخرج إليّ ..

في مكانٍ ما ينقّط الماء على الحجر، لا أحد، شعرت بفرحة شابَها حزنٌ: لقد نجوتُ. ورحتُ أعودُ أدراجي في الممرّ على مهل. كان الخيطُ الراعشُ من المصابيح في السقف يبهت ويبهت..

وفجأةً، يُدفع الباب من خلفي على عجل، ودبيبٌ سريعٌ يندّ برفق عن السقف، عن الجدران، وهي مسرعة، لاهثة الأنفاس قليلًا من الركض تتنفّس من فمها ..

-كنت أعرف، ستكون هنا، ستأتي! كنت أعرف: أنت، أنت...

رماحُ الرموش تتباعد، تولجني في داخلها و .. كيف أقولُ لكم ما يفعله بي هذا الطقسُ القديم، السخيف، الرائع حين تلمس شفتاها شفتيّ؟ بأيّة معادلة أعبّر عن هذا التيّار الذي يجرف كلّ شيء في النفس، إلّا ها هي؟ أجل، أجل في النفس، واضحكوا إذا شئتم.

رفعت جفونها بجهد، ببطء، وبجهد وببطء قالت: لا، كفى .. فيما بعد .. هيّا بنا الآن .

انفتح الباب. الدرجات مطموسة، قديمة. واختلاطُ لغطٍ وصفيرٌ وأنوارٌ بشكلٍ لا يُطاق..

***

ها قد مضى أربعٌ وعشرون ساعة على هذا النحو، كلّ شيء في داخلي تبلور واستقرّ إلى حدّ ما. ومع هذا أجد صعوبة بالغة في إعطاء وصفٍ، ولو كان دقيقًا، بشكل مقارب. كأنّما فُجّرت في رأسي حينئذٍ قنبلة، فالأفواه المفغورة، والأجنحة، والصرخات، والأوراق، والكلمات، والحجارة: أكوام مكوّمة إلى جانبي، الواحدة فوق الأخرى ..

أذكر أنّ أول ما بدر إلى ذهني هو (العودة من فوري مهما كلّف الأمر)، لأنّه كان واضحًا لي أنّهم - بينما كنت هناك في الممرّات أنتظر - قد فجّروا السور الأخضر أو هدموه، فتدفّق من هناك كلّ شيء، وغمر مدينتنا المتطهّرة من العالم الأدنى.

ولا بدّ من أنّني قلتُ شيئًا من هذا القبيل لـ «م» فضحكتْ:

-لا، أبدًا! نحن صرنا خارج السور الأخضر وحسب ..

عندها فتحت عينيّ، فإذا أنا وجهًا لوجه في اليقظة، ذلك الشيء

الذي لم يره حتى الآن أحدٌ من الأحياء إلا مصغّرًا مخفّفًا معتّمًا ألف ضعفٍ بزجاج السور القاتم.

الشمس.. لم تكن هذه شمسُنا الموزّعة تساويًا على السطح الصقيل للطرقات والشوارع، بل كانت نوعًا من الشظايا الحيّة، من البقع المتقافزة باستمرار؛ تبهر العينَ وتصيب الرأسَ بالدوار. والأشجار كشموع مُشرئبّة الأعناق إلى الجوزاء، كعناكب أقعت على أقدامها العوج، كنوافيرَ خُضرٍ خُرسٍ.. وهذا كلّه يزحف، يحبو، يتململ، يخشخش. أسفل قدميَّ تجفلُ كبّة خرشاء، فإذا أنا أتسمّر. لا أقوى على السير خطوةً واحدة، لأنّه لا يوجد تحت قدميّ سطح مستقرّ، أتفهمون؟ ليس هناك سطحٌ مستوٍ، بل شكلٌ طريّ بشكل مقرف، مطواع، حيّ، أخضر، لدِن!

ذهلتُ من هذا كلّه، اختنقت (ربّما الكلمة الأنسب). كنت أقف متشبّثًا بكلتا يديّ بغصنٍ متأرجح.

-لا عليك، لا عليك! هذا في البداية وحدها، قريبًا يزول. تشجّع!

إلى جانب «م»، على شبكة خضراء تهتزّ بشكل يبعث الدوار، منظر جانبيٌّ لوجهٍ ما دقيق مصنوع من ورق.. لا، إنّه ليس وجهًا ما، بل هو وجهٌ أعرفه. إنّه وجه الدكتور. بلى، بلى إنّي أدرك كلّ شيء. وأدرك أنّ كليهما تأبّطا ذراعي، وأخذا يجرّانني إلى الأمام، وهما يضحكان. كانت قدماي تتعثّران، تتشابكان، تنزلقان. وكان هناك نقيق ونعيق، طحلب، صياح عقبان، نتوءات، أغصان، جذوع أجنحة، أوراق، صفير..

وانفرجت الأشجار فإذا نحن في مرج، وفي المرج بَشَرٌ.. لا أستطيع وصفهم، ربّما من الصوابِ القولُ: كائناتٌ.

هنا أصعب ما في الأمر، فقد كان خارج حدود أيّ احتمال. اتّضح لي حينئذٍ لماذا كانت «م» تلوذ بالصمت مع هذا العناد كلّه طَوال الوقت، فما كنت لأصدّق، حتى هي، ما كنت لأصدّقها. يوشكُ أنّني في الغد لن أصدّق حتى نفسي، حتى مذكّراتي هذه.

في المرج، حول حجر ضخم عارٍ يشبه الجمجمة، كانت ترتفع جلبة جمهور من نحو (300) إلى (400) إنسان. ولنقل «إنسان» لأنه يصعب عليّ أن أقولَ غير هذا. كما أنّك لا تلاحظُ للوهلة الأولى من المجموع العام للوجوه على المنصّات إلّا تلك التي تعرفها، كذلك أنا هنا، لم أر للوهلة الأولى إلّا ملابسنا الموحّدة الزرق المائلة إلى اللون الرمادي. وما هي إلا ثانية بعد ذلك، حتى ظهر بين الملابس الموحّدة بوضوح وبساطة أناسٌ (على ما يبدو أنّهم أناس) سود، صهب، بلون الذهب، شهب، بيض، جميعُهم من دون ملابس، لا يغطّيهم إلّا صوفٌ قصيرٌ لامعٌ من النوع الذي يمكن أن يراه أيٌّ منّا على الحصان الفزّاعة، في متحف ما قبل التاريخ. لكنّ وجوه الإناث كانت تمامًا - أجل تمامًا - كوجوه نسائنا، ورديةً ناعمةً، لم ينبتْ فيها شعر. كما كانت صدورهنّ الكبيرة، القويّة ذات الشكل الهندسي الرائع خالية من الشعر كذلك. أمّا الذكور، فلم يكن يخلو من الشعر إلّا قسمٌ من وجوههم، كما عند أجدادنا.

كان هذا بعيد الاحتمال، وغير متوقّع حيث وقفت بهدوء -أؤكّد جازمًا: وقفت بهدوء، ورحت أنظر. كالميزان: ضع في إحدى كفّتيه وزنًا زائدًا، بعد ذلك يمكنك أن تضع فيها ما تشاء، فالإبرة لن تتحرّك.. فجأة صرتُ وحدي: «م» لم تعد معي، لا أعرفُ كيف اختفت وأين! لم يعد حولي إلّا هؤلاء، ذوو الشعر الأطلسي اللامع تحت الشمس. أمسكت بكتف ساخن قويّ أسود:

-اسمع بحقّ المحسن، ألم ترَ أين ذهبتْ؟ حالًا منذ لحظة ..

حدجني حاجبان صارمان كتّان: -ششش، صمت! -وأومأ بكثاثةٍ إلى هناك، إلى الوسط، حيث الحجر الأصفر كالجمجمة.

وهناك، في الأعلى، فوق الرؤوس، فوقنا جميعًا، رأيتُها. الشمس تسقطُ على العيون مباشرةً في ذلك الجانب، ولهذا فهي، «م»، كلّها على لوحة السماء الزرقاء بارزة، سوداء كالفحم، طيف كالفحم على خلفيةٍ زرقاء، فوقها قليلًا تطير السحب، لا، كأنّما هذه ليست سحبًا، بل حجر، هي على الحجر، وخلفها الجمهور والمرج ينزلقان بصوتٍ غير مسموع كالمركب، والأرض تهوي خفيفةً تحت الأقدام..

-أيّها الإخوة، -كانت هي التي تتكلّم - تعرفون جميعًا، هناك داخل السور، في المدينة يبنون «التكامل». وتعرفون، أنّه أتى اليوم الذي سنهدم فيه هذا السور مع الأسوار كلّها كي يسري الهواء الأخضر طليقًا في الأرض كلّها، من أدناها إلى أقصاها. لكنّ «التكامل» سيحمل معه هذه الأسوار إلى هناك، إلى فوق، إلى آلافِ الكواكبِ الأخرى، التي ستهسهسُ لكم اليوم ليلًا بأنوارها عبر الأوراقِ الليليةِ السوداء. وترتطمُ على الحجر أمواج، زبد، ريح:

-يسقطُ «التكامل»! يسقط!

-لا أيّها الإخوة! لا نقولنّ: ليسقط «التكامل»، فـ «التكامل» يجب أن يكون لنا. يوم ينطلقُ في الفضاء يجب أن نكون فيه نحن، لأنّ باني «التكامل» معنا. لقد غادر الأسوار، وجاء معي إلى هنا كي يكون بينكم. عاش الباني!

لحظةً، وإذ بي في مكان ما في العلاء، وتحتي رؤوس، رؤوس، رؤوس، بملءِ أفواهها تهتف، وأيادٍ تعلو وتهبط. كان هذا شيئًا غريبًا خارقًا، شعرتُ بانتشاء، شعرت أنّي فوقهم جميعًا، أنا كنتُ أنا، شيئًا

منفصلًا، عالـمًا بذاته، لم أعدْ طرفًا كما كنت دائمًا، صرتُ وحدةً كاملة.

وها أنا ذا بجسم مجعّد، سعيد، مدعوك كما بعد معانقات غرامية. أسفل، قرب الحجر ذاته، الشمس. ومن فوقها أصوات «م» وابتسامتها. امرأة ذات شعر ذهبي، هي كلّها ذهبية، ناعمةٌ كالأطلس، تفوحُ منها روائحِ الأعشاب، في يدها كأس، كأس من خشب في غالب ظنّي، ترشفُ منها بشفتين حمراوين وتديره عليّ، فأشرب بنهمٍ مغمضًا عينيّ كي أطفىء النار، أشرب شراراتٍ حلوةً شائكةً باردةً.

صار الدم في عروقي كما العالَمُ كلّه؛ أسرع ألف مرّة، الأرض الخفيفة تتطاير هباءً، كلّ شيء يبدو لي خفيفًا، بسيطًا، واضحًا.

وها أنا ذا أتبيّن الآن على الحجر الأحرف الهائلة التي عرفتها من قبل «ميفي»، ولسبب ما، شعرت أنّه أمرًا مهمًّا جدًّا، أنّ هذا هو الخيط البسيط، المتين الذي يربط كلّ شيء. رأيت كذلك، ربّما على هذا الحجر، صورةً مرسومةً بشكلٍ غير دقيق: شاب مجنّح وجسم شفّاف، هناك، حيث يجب أن يكونَ القلبُ، جمرة قرمزية متأجّجة، تأخذ بالبصر. فهمتُ مرّةً أخرى هذه الجمرة أو حريًا بي أنّني شعرت بها تمامًا، كشعوري بكلّ كلمة تقولها من دون أن أسمعها (كانت هي التي تتكلّم من فوق الحجر)، أشعر أنّ جميعهم يتنفّسون معًا وأنّهم على أهبة أن يطيروا كما الطيور آنذاك فوق السور.

من الخلف، من أجمّة الأجسام المتنفّسة بكثافة علا صوت: لكنّ هذا جنون!

يبدو أنّي أنا، نعم يبدو أنّي أنا بنفسي؛ قفزت إلى الحجر.

-أجل، أجل، هو ذا تمامًا! يجب أن نجنّ جميعنا، من الضرورة أن

نجنّ جميعًا أسرعَ ما يمكن، هذا ضروري وأنا أدركه يقينًا.

إلى جانبي «م»، ابتسامتها، والخطّان الأسودان الممتدّان من طرفي الفمِ على شكل زاوية، وفي داخلي جمر. كان هذا خاطفًا، خفيفًا، موجعًا قليلًا ورائعًا.. ثمّ لم تبق إلا شظايا عالقة مبعثرة.

على ارتفاع منخفض يحلّق عصفورٌ متباطئًا، أراه: إنّه حيٌّ مثلي، إنّه كما الإنسان، يميل رأسه ذات اليمين وذات الشمال، وتنغرز فيّ عينان سوداوان مدوّرتان..

ثمّ ظهر ذو صوف لامع بلون العاج القديم، على الظهر تزحفُ حشرةٌ سوداءُ ذات أجنحة قصيرة شفّافة. الظهر ينتفض كيما يذبّ الحشرة ثم ينتفض مرّة أخرى..

.. من الأوراق كذلك يسقط ظلٌّ مجدولٌ متشابك. في الظلّ، يجلس بعضهم يلوكون شيئًا ما يشبه طعام الأقدمين الخرافي: ثمرة صفراء طويلة، وقطعة من مادّة قاتمة اللون. امرأة تدسّ في يدي هذا الطعام ممّا يثير فيّ الضحك، فأنا لا أدري إن كان باستطاعتي أن آكله.

من جديد، حشود، رؤوس، أرجل، أيد، أفواه. تطفو الوجوه ثانيةً وتختفي، تفقع كفقاعات الصابون. ولثانية لاحت لي، أو هذا ما خُيّل إليّ، الأذنان الجناحان الشفّافتان المرفرفتان.

ضغطت بكلّ قوّتي على يد «م». التفتتْ: ما بك؟

قلتُ: إنّه هنا .. تراءى لي..

- من هو؟

- .. منذ برهة تمامًا .. بين الجمهور ..

الحاجبان الرقيقان الأسودان كالفحم انشدّا إلى الصدغين: مثلّث حاد، ابتسامة. لا أفهم سبب ابتسامتها، لا أعرفُ: كيف يمكنها أن تبتسم؟

- إنّكِ لا تدركين يا «م»، إنّكِ لا تدركين معنى أن يكونَ هو، أو أيّ أحدٍ منهم هنا.

-إنّك رجلٌ مضحك! هل يمكن أن يخطر على بال أيّ أحدٍ هناك داخل السور أنّنا هنا؟ تذكّر: أنتَ على سبيل المثال، هل فكّرتَ يومًا أنّه ممكنٌ هذا؟ إنهم يتصيّدوننا هناك، فليتصيّدونّا! إنّك تهذي!

ابتسمتْ ابتسامةً خفيفةً مرِحةً، فابتسمتُ، وما فتئت الأرضُ نشوى جذلى خفيفةً، تسبح بنا..

***

المذكّرة الثامنة والعشرون

الملخَّص:

كلتاهما. القصور والطاقة. الجزء غير الشفّاف من الجسم.

إليكم ما سأقولُه: إذا كان عالمكُم يشبه عالمَ أجدادِنا الأوّلين، فتصوّروا وقوعَكم في المحيط على الجزء السادس أو السابع من الأرض إذن، على «أتلنتيدا» ما، وأنّ هناك مدنًا، متاهاتٍ خياليةً، أناسًا يسبحون في الهواء من دون أجنحةٍ أو مناطيد، وحجارةً ترتفعُ بقوّةِ النظرِ وحدَها، أي بكلمةٍ مختصرةٍ: أشياء يستحيلُ أن تخطرَ على بالكم حتى، وإن كنتم مثلي مصابين بمرض الأحلام. هذا تمامًا ما كانت عليه حالي أمس. لأنّه، وأرجوكم أن تفهموني، لم يخرج أحدٌ منّا خارج السور أبدًا منذ حرب المئتي عام. ولقد حدّثتكم عن هذا من قبل.

وإنّي لأدركُ أنّ من حقّكم عليّ، يا أصدقائي المجهولين، التحدّث إليكم بتِبيانٍ أكثر عن هذا العالم الغريب غير المتوقّع الذي تكشّف لي البارحة. لكن، لا أستطيع العودة إلى هذا الموضوع الآن. إذ إنّ هناك أشياء جديدة، تحدث من دون انقطاع، كأنّها وابلٌ من الأحداث. ليس باستطاعتي وحدي لمّ شتات كلّ شيء: أنا أبسط أطراف ثيابي وراحتيّ، مع هذا، هناك دلاء كاملة تتسرّب وتفسح، ولا يقع منها على هذه الصفحاتِ إلّا قطراتٌ.

سمعت وراء بابي أصواتًا عاليةً بادئَ الأمر، عرفتُ صوتها، صوت

«م» اللون المعدني، وصوتًا آخر صلبًا لا يكاد يلتوي، كأنّه مسطرةٌ خشبيةٌ، هو صوت «خ». ثم انشقّ الباب في صرير، وأطلقهما كلتيهما إلى داخل غرفتي. هكذا تمامًا: أطلقهما كما يطلق الرصاص.

وضعت «م» يدها على مسند أريكتي، وعبر الكتف يمينًا، أخذت تبتسم بأسنانها وحدها لتلك. ما كنت أودّ أن أقف هكذا تحت هذه الابتسامة.

-اسمع، -قالت لي «م»-، هذه المرأة، كما يبدو لي، وضعت نصب عينيها أن تحميَك منّي، كأنّك طفلٌ صغير. فهل هذا بِعلمِك؟

عندئذٍ ردّت الأخرى، وهي تُرعش غلصميها:

-نعم، فما هو إلّا طفلٌ. نعم! هذا لأنّه يرى أن كلّ ما تفعلينه معه إنّما بهدف.. هذه مسخرة.. أجل! من واجبي ..

وللحظةٍ في المرآة، خطّ حاجبَيِ المستقيم يتكسّر، ينطّ. وثبتُ، وصرختُ فيها من قرب، في غلصميها مباشرةً، وأنا أكبح في داخلي بجهد جماح ذاك، ذي القبضتين الشعراوين المرتعشتين، وبجهد أنتزع كلّ كلمةٍ من خلال أسناني:

-اخرجي من فورك، في هذه الثانية! في هذه الثانية!

انتفخ الغلصمان أحمرين كالقرميد، ثم غارا وارمدّا. فتحت فمَها لتقول شيئًا، لكنّها صفقت الباب وراءها، خرجت ولم تنبس بكلمة.

اندفعتُ إلى «م»: لن أغفر، لن أغفر هذا لنفسي أبدًا! هل تجرّأتْ .. عليك؟

لكن لا يمكنك التفكير أنّي أفكّر أنّ .. أنّها .. هذا كلّه لأنّها تريد أن

تُسجّل على اسمي، وأنا ..

-لن يتّسع لها الوقت لأن تُسجّل على اسمك لحسن الحظّ، ولو كان هناك ألف مثلها، فالأمر عندي سواء. أعرف أنّك لن تصدّق الألف، بل ستصدّقني أنا وحدي. فأنا، بعد الذي حدث البارحة، أمامك بكلّيّتي، حتى النهاية كما كنت تريد دائمًا. أنا مِلك يديك. تستطيع في أيّ وقت..

-ما تقصدين «بأيّ وقت»؟ -تساءلتُ، وأدركت ما معناه حالًا. طفر الدمُ إلى أذني، إلى وجنتيّ، وصحت: لا داعي للكلام في هذا، لا تكلّميني في هذا أبدًا! أنتِ تعرفين أنّ ذاك هو أنا السابق، أمّا الآن ..

-وما أدراني بك.. الإنسانُ كالرواية، تبقى النهايةُ مجهولةً حتى الصفحة الأخيرة، وإلّا ما كانتْ جديرةً بالقراءة.

«م» تمسح على رأسي. لا أرى وجهَها، لكنّي أدرك من صوتها أنّها تنظر إلى مكانٍ بعيدٍ بعيدٍ، عيناها معلّقتان بسحابة سابحة بصمت، على مهل، إلى مكان مجهول..

وفجأة، أبعدتني عنها بيدها بتصميمٍ ورقّة:

-اسمعْ، أتيتُ قائلةً لك: ربّما ستكون هذه أيّامنا الأخيرة، لتعرفَ أنّه منذ مساء اليوم، ألغي العملُ في القاعات جميعِها.

-ألغي؟

-نعم. مررتُ اليوم قريبًا منها، ورأيت: إنّهم يتهيّأون لأمرٍ ما في أبنية القاعات. هناك مناضدُ وأطبّاء في لباس أبيض.

-لكن، ما معنى هذا؟

-لا أدري. إلى الآن، لا أحد يدري، هذا أسوأ ما في الأمر. إنّما أشعر فقط: شغّلوا التيار، الشرر يتطاير .. وإن لم يكن اليوم فغدًا .. لكن لن يطولَ الوقت أمامهم.

فيما يتعلّق بي، كنت متوقّفًا منذ فترةٍ طويلةٍ عن فهم من هم، ومن نحن. لم أعد أدري ما أريد: أن يطولَ الوقتُ أمامهم ويتّسع، أو أن يقصر ويضيق. أمرٌ واحد واضحٌ عندي : «م» تمشي الآن على الشفير، إن لم يكن الآن، فبعد قليل ..

قلت: لكنّ هذا جنونٌ، أنتم والدولة الواحدة. هذا أشبه بمن يسدّ بيده فوّهة بندقية بيده ظنًّا منه أنّه يمكنه أن يوقف الرصاصة، هذا جنونٌ كاملٌ!

ابتسامة:

-«يجب أن نُجنّ جميعنا، يجب أن نُجنّ جميعًا أسرع ما يمكن» هذا ما قاله أحدُهم البارحة، هل تذكر؟ هناك ..

أجل، هذا مسجّلٌ عندي. وهو ما حدث حقًّا. نظرت إلى وجهها في صمت: كان واضحًا عليه الآن الصليب الأسود بجلاء.

-«م»، أيّتها العزيزة، ما دام الوقت لم يفت .. إذا أردتِ، أترك كلّ شيء، أنسى كلّ شيء، ونذهب معًا خارج السور، إلى هؤلاء، هؤلاء الذين لا أعرف من هم.

هزّت رأسَها، وعبر نافذتيّ العينين القاتمتين رأيت هناك، في داخلها موقدًا يستعر، شرارات، ألسنة نيران متصاعدة، وأكوامًا مكوّمة من الخشب القطراني الجافّ. بات واضحًا لي: فات الأوان، كلماتي لم تعد قادرةً على شيء ..

نهضتْ لتمضي. قد تكون هذه الأيّام، ربّما الساعات الأخيرة .. أمسكتُها من يدها.

-لا، ابقي لو قليلًا .. بحقّ، بحقّ ..

رفعت شيئًا فشيئًا إلى فوق، إلى الضوء، يدي الشعراء التي أبغضها كثيرًا. أردت نزع يدي، لكنّها كانت تمسكها بقوّة.

-يدك.. أنت لا تعرف، وقليلٌ من يعرف، أنّ نساءً من هنا، من المدينة، حدثَ لهنّ أن أحببن أولئك. وفيك، على ما يبدو، بضعُ قطراتٍ من دم الشمس والغابة. ربّما لهذا السبب أنا..

وتوقّفتْ. يا للغرابة! بسبب هذا التوقّف، بسبب الفراغ، بسبب هذا اللاشيء، القلب ينتفض، وأهتف:

-لا! لن تنصرفي، لن تنصرفي إلّا بعد أن تخبّريني شيئًا عنهم، لأنّك تحبّين .. تحبّينهم. فأنا لا أعرفهم حتى، لا أعرفُ من هم ومن أين جاؤوا. من هم؟ النصف الذي فقدنا O,H2، ولنحصل على H2O، على السواقي على البحار والشلّالات والأمواج والأنواء .. يجبُ أن يتّحدَ النصفان..

أذكر بجلاءٍ كلّ حركةٍ من حركاتها. أذكرُ كيف رفعت مثلّثي الزجاجي عن الطاولة وضمّته إلى وجنتها بضلعٍ حادٍّ طَوال حديثي معها. برز على الوجنةِ ندبٌ أبيضُ، ثمّ تضرّجَ باللّونِ الوردي آخذًا في التلاشي. العجيبُ أنّني لا أستطيعُ تذكّرَ كلماتها، لاسيّما في البداية. ما أذكره، هو صورٌ وألوانٌ متفرّقة.

أذكر بدايةً، كان حديثًا على حربِ المئتي عام. ها هو الأحمرُ على خضرةِ الأعشاب، على الطينِ الداكن، على زرقةِ الثلوجِ بركٌ حمرٌ لا

تجفّ. ثمّ أعشابٌ صفرٌ حرقتها الشمسُ، وأناسٌ عراةٌ صفرٌ شعثٌ، وكلابٌ شعثٌ قريبًا منهم، عند جيفة كلب منتفخة، أو ربّما جيفة إنسان.. هذا كان خارجَ الأسوار طبعًا، لأنّ المدينة كانت قد انتصرت، لأنّه بات لنا في المدينة غذاؤنا الحالي، النفطي.

من السماء حتى أسفل تقريبًا، مطاو سود ثقيلة. المطاوي تتماوج: فوق الغابات، فوق الأشجار، أعمدةٌ بطيئةٌ، دخان. وزعيق مكتوم، إنّهم يسوقون إلى المدينة أرتالًا سودًا لا عدّ لها لينقذوها ويعلّموها السعادة عنوة.

-وكنت تعرف هذا كلّه تقريبًا؟

-نعم، كلّه تقريبًا.

-لكنّك لم تكن تعرف، قليلٌ من كان يعرف وحسب، أنّ عددًا صغيرًا منهم قد سلم، وظلّ يعيش هناك خارج الأسوار. عراةً لجأوا إلى الغابات، هناك تعلّموا من الأشجار والوحوش والطيور والأزهار والشمس. نبت الشعرُ على أجسامهم، لكنّهم، على ما يبدو، احتفظوا تحتَ الشعر بدمٍ حارٍ، أحمر. أمّا أنتم فمصيركم كان أسوأ: لقد غطّيت أجسادكم بالأرقام، وأخذت الأرقام تزحفُ على أجسامكم كالقُمّل. يجب أن ينزع عنكم كلّ شيء، وتُساقوا عراةً إلى الغابات، لتعرفوا هناك كيف ترتعدون من الخوف وترتعشون من الفرح، من الغضب المسعور، من البرد وتصلون إلى النار. إنّنا نحن «الميفي» نريد ..

-لا، حنانيك .. «الميفي»، ما معنى «الميفي»؟

-«الميفي»؛ إنّه اسم قديم، إنّه ذاك الذي .. تذكّر: هناك على الحجر رسمُ شخصٍ .. لكن لا، الأفضل أن أكلّمك بلغتك، فتفهمني أسرع.

هاك: في العالم قوّتان: القصور والطاقة. إحداهما تميل إلى السكونِ المغتبطِ، إلى التوازنِ السعيدِ، والثانية إلى تحطيم التوازنِ، إلى الحركةِ اللامحدودةِ بشكلٍ مؤلم. أجدادنا المسيحيّون، أو بالأحرى أجدادكم أنتم كانوا يعبدونَ القصورَ كإلهٍ، أمّا نحن أضدادُ المسيحيّين، أمّا نحن ..

طرقٌ كالهمس، لا يكاد يُسمع على الباب، ثمّ لحظةً، واندفع إلى الغرفة ذلك المفلطح ذو الجبين المائل فوق العينين الذي حمل إليّ غيرَ مرّةٍ رسائلَ من «م».

اقترب، توقّف، ناخرًا كمنفاخ، من دون أن يمكنه التفوّه بكلمةٍ، لابدّ من أنّه هرع راكضًا بقواه كلّها.

-قادمون.. إلى هنا..

أخيرًا، تكلّم المنفاخ وهو يلهث!

- «م» الحرّاس قادمون ومعهم هذا ..، ما اسمه؟ هذا الشبيه بالأحدب.

- «S»؟

- بلى، بلى. إنّهم قريبون منّا، في البناية. بعد قليل يكونون هنا. هيّا، هيّا بسرعة!

- بسيطة! لدينا وقت.. كانت تضحكُ وفي عينيها شرارات، ألسنةٌ جذلى. يبدو هذا، إمّا شجاعة سخيفة، متهوّرة أو شيء ما آخر، لم أدركْهُ بعد.

- بحقّ المحسبن يا «م»! افهميني، هذا ..

- بحقّ المحسن، - ارتسم مثلّث حادّ -ابتسامة.

- حسنًا، حسنًا، بحقّي أنا.. أرجوك.

- آه، وددتُ لو تحدّثتُ إليك في أمرٍ آخرَ كذلك، لكنْ، لا بأس .. غدًا ..

أومأت لي بمرح (نعم: بمرح)، كما أومأ لي ذاك بعد أن خرجَ لثانيةٍ من تحت حجابِه الجبهوي. بقيت وحدي.

سريعًا إلى الطاولة، بسطتُ مذكّراتي. أمسكت القلم ليجدوني مُكبًّا على هذا العمل الهادف إلى خير الدولة الواحدة. فجأة صارت كلُّ شعرة من شعرات رأسي حيّة، تتحرّك وحدها مستقلّة: (وماذا إن قرأوا لو صفحةً واحدةً من هذه الصفحاتِ الأخيرة؟).

كنت أجلسُ إلى الطاولة بلا حراك، أرى كيف كانت الجدرانُ تميد، القلم يرتعش في يديّ، والأحرف تتمايلُ وتتداخلُ.

هل أخفيها؟ لكن أين، كلُّ شيء من زجاج. أحرقها؟ لكنّهم سيرَون من الممرّ ومن الغرف المجاورة. ثمّ لم أعد أقوى، لم تعد لديّ القدرة على إبادةِ هذا الجزء منّي، ربّما كان أعزّه عليّ.

صارت تُسمع أصوات خطوات في الممرّ من بعيد. لم أستطع غير خطفِ رزمة أوراقٍ ودسّها أسفلَ منّي، وها أنا ذا مسمّرٌ الآن إلى الكرسي، يهتز بكلّ ذرّة منه، في الأرض تحت قدميّ ظهر سفينة يعلو ويهبط.. كنت أراهم وقد تكوّمت على نفسي، وقبعتُ تحت حجاب الجبين، وأنا أنظر نظراتٍ عابسةً مختلسةً: كانوا يمضون من غرفةٍ إلى أخرى بدءًا من الطرف الأيمن للممرّ، يُمعنون مُضيًّا في اقترابهم منّي. بعضهم كان يجلس متجمّدًا في مكانه مثلي، بعضهم الآخر كان يهبّ

لملاقاتهم، ويفتح لهم بابه على مصراعيه، يالسعادة هؤلاء! لو أنّني كذلك ..

-(المحسن هو التعقيمُ الضروريُ الأكملُ للإنسانية، بعد ذلك لن يكونَ في جسم الدولة الواحدة أيّةُ حركة تقلّصية ..) -كنتُ أخطّ بقلم راعشٍ هذه السخافة الكاملة، وأنا أمعن في انكبابي على الطاولة، في رأسي محلّ حدادة مجنون، كنت أسمع بظهري، نعم بظهري، كيف صكّت مسكة الباب وهبّت نفحة ريح، وتراقص الكرسيُّ تحتي ..

عند ذلك سلختُ نفسي بمشقّة عن الصفحة، واستدرت إلى الداخلين (ما أصعب تمثيل المسخرة .. آه، من حدّثني اليوم عن المسخرة؟). في المقدّمة كان «S» وهو يحفرُ بعينيه في عبوس وصمت وسرعة آبارًا فيّ، في كرسيٍ، في الأوراق الراعشة تحت يديّ، ثم لاحت في ثانية وجوهٌ يوميةٌ معروفةٌ في العتبة، برزَ منها واحد: غلصمان منفوخان بنيّان ضاربان إلى اللون الوردي.

تذكّرت كلّ ما كان في هذه الغرفة منذ نصف ساعة. بات واضحًا لي أنّها الآن .. كان كِياني كلّه يخفق وينبض في ذلك الجزء (غير الشفّاف لحسن الحظّ) من الجسم الذي غطّيتُ به المخطوط.

اقتربت «خ» من خلف «S» ولمسته بحذر من كمّه، وقالت بصوتٍ خافتٍ:

-إنّه «د-503» باني «التكامل». لا بدّ من أنّك سمعتَ به. هو دائمًا هكذا وراءَ طاولته .. لا يرحمُ نفسَه أبدًا! ..

وأنا الذي شككتُ فيها؟ يا لها من امرأةٍ فاتنةٍ مدهشةٍ!

انزلق «S» إليّ، انحنى عبر كتفي، فوق الطاولة. أخفيت بمرفقي ما

كتبت، لكنّه صاح بصوتٍ صارم:

- أرجو أن تريني حالًا ما لديك هناك!

ناولته الورقة وأنا أشتعل خجلًا. قرأ ما كنت كتبته، ورأيت كيف انسلّت من عينيه ابتسامةٌ انزلقت هابطةً على وجهه، ثم استقرّت، لا تكاد تحرّك ذيلها الصغير، في مكان ما على زاوية فمِه اليمنى ..

-يحتمل قراءتين، مُوارب إلى حدّ ما، ومع هذا .. لا بأس، تابع. لن نُعيقَكَ بعد الآن.

ودبّ يخبط بقدميه، كما مغارف زورق في الماء، متّجهًا إلى الباب. مع كلّ خطوة من خطواته كانت قدماي، يداي، أصابعي تعود إليّ شيئًا فشيئًا -النفس توزّعت من جديدٍ بتوازن في جسمي كلّه، عدتُ أتنفّس.

آخر ما حدث أنّ «خ» تريّثت قليلاً في غرفتي، ودنت منّي ومالت على أذني، وهمست: -من حسن حظّك أنّي ..

غير مفهومٍ: ما الذي أرادته بقولِها هذا؟

فيما بعد، في المساء، فهمت. لقد أخذوا معهم ثلاثة، وعلى أيّة حال لا أحد يتكلّم على هذا كما على كلّ ما يحدث بصوتٍ مسموع (التأثير التربوي للحرّاس الحاضرين بشكلٍ غيرِ مرئيّ في وسطنا). الأحاديثُ تدورُ بشكلٍ رئيسٍ عن الهبوطِ السريعِ لميزان الحرارة، وعن تغيّرِ الطقس.

*****

المذكّرة التاسعةُ والعشرون

الملخّص:

خيوطٌ على الوجه. البراعم. ضغطٌ غير اعتياديّ

غريب: ميزان الحرارة يهبط ولا أثرَ للريح بعد، بل سكونٌ وهدوءٌ هنا. لقد بدأت العاصفة التي لم نسمع هبوبَها هناك في الأعلى بعد. الغيومُ تركضُ بملءِ قوّتها، لكنّها لا تزالُ قليلةً، بضع قطع مسنّنة متفرّقة. هكذا: كأنها تقوّضت في الأعلى مدينةٌ .. فإلى أسفل تتطايرُ أجزاءٌ من الجدران والأبراج، تكبرُ على مرأى من العينِ بسرعةٍ مريعةٍ وهي تقترب، لكن لا يزال أمامها أيامٌ من الطيران عبر اللانهاية الزرقاء حتى تهوي إلى القاع، إلينا، إلى أسفل.

وفي الأسفل، هدوء وسكون. في الهواءِ خيوطٌ دقيقةٌ، غيرُ مفهومة، غيرُ مرئية تقريبًا، تُحمل إلينا في كلّ خريف من هناك، من وراء السور. إنّها تسبحُ على مهل، وفجأة، تشعر بشيءٍ ما غريب، غيرِ مرئيٍ على وجهك. تريد أن تمسحه، لكن، لا، لا تستطيع، فهو يلتصقُ بك..

هذه الخيوطُ كثيرةٌ بشكلٍ خاصٍ إذا سرتَ محاذاة السور الأخضر حيث سرتُ اليوم: كانت «م» قد ضربت لي موعدًا في البيت القديم –في «شقّتنا» تلك.

كنت قد لمحتُ كتلةَ البيتِ القديم، بعد أن سمعت خلفي خطواتٍ قصيرةً عجولةً، وتنفّسًا متسارعًا، التفتّ ورأيت «ف» لاحقةً بي.

كانت مدوّرة بِلدونة على نحوٍ خاصّ، كامل. كانت يداها وكوبا صدرها وجسمها كلّه، هذا الجسم الأليف تمامًا، قد تدوّر تمامًا، فصار يضغط على اللباس: هنيهة، ويمزّق القماش الرقيق ويبرز إلى الخارج، إلى الشمس، إلى النور. يتهيّأ لي أنّ البراعم هناك، في المتاهات الخضر تشقّ طريقها عبر التراب بمثل هذا العناد كيما تمدّ أغصانها، وتنشر أوراقها بسرعة، كيما تزهر بسرعة.

ظلّت صامتةً بضع ثوان، ولألاءُ عينيها الأزرق مُلقًى على وجهي.

– لقد رأيتك آنذاك، في عيد الإجماع.

– أنا رأيتك كذلك ..

تذكّرتُ من فوري كيف كانت تقفُ تحت، في المعبرِ الضيّقِ ملتصقةً بالجدار، ومغطّيةً بطنَها بيدَيها. على غير إرادةٍ منّي، نظرتُ إلى بطنها المدوّر تحت لباسها.

يبدو أنّها لاحظت ذلك، فانقلبت كلُّها ورديةً مدوّرةً، وأشرقت ابتسامة وردية.

– ما أشدَّ سعادتي! ما أشدَّ سعادتي! إنّي ممتلئة، هل تفهم؟ أكادُ أطفح. أسيرُ ولا أسمع شيئًا ممّا يدورُ حولي، أستمعُ إلى الداخل وحسب، إلى ما في داخلي ..

كنتُ صامتًا. على وجهي شيءٌ ما غريبٌ يعيقُني، لم أستطع التخلّص منه أبدًا. بغتةً، أمسكت بيديّ، لألاء عينيها لا يزال يزداد زرقة، وشعرت بشفتيها على يديّ. كان هذا يحدث معي أوّل مرة في حياتي.كانت هذه ملاطفة قديمة لم أعرفْها حتى الآن، ومن هذه الملاطفة انتباني خجلٌ وألمٌ، فسحبتُ يديّ (سحبتها بفظاظةٍ حقيقةً).

-اسمعي، لقد جننت! وليس أنتِ وحسب، بل أنتم جميعًا. ما لكِ مبتهجة؟ أوَيمكنك حقًّا نسيان ما ينتظرك؟ إنْ لم يكن اليوم، فعلى أيّة حالٍ بعد شهر، شهرين ..

خبتْ: الدوائرُ كلّها التوت فورًا وتقوّست، وفي قلبي ضغطٌ مزعجٌ بل مرضيٌّ متعلّقٌ بالإحساس بالشفقة. (القلب ليس غير منفاخ مثالي. الضغطُ الذي هو امتصاصُ المنفاخِ للسائل أمرٌ ليس له معنى من الناحية التقنية، هنا يتّضح كم هي بلا معنًى، ومخالفة للطبيعة، ومرَضية، أنواع الحبّ والشفقة كلّها، وكل ما يثير هذا الضغط).

هدوءٌ وسكونٌ. زجاجُ السور الأخضرُ القاتمُ عن يسارنا، والكتلة الحمراء القاتمة أمامنا. وهذان اللونان مجموعَين أعطياني كمحصّلةٍ فكرةً باهرةً كما بدا لي ..

-رويدك! أعرفُ كيف أنقذك. سأخلّصك من هذا، أن ترَي طفلك وتموتي. وسيوسعك أن تطعميه، هل تفهمين؟ سيوسعك أن ترَيه ينمو بين يديك ويستدير، ويمتلئ كثمرة ..

انتفضتْ كلّها بقوّة وتشبّثت بكِيانها كلّه بي.

-لا بدّ من أنّك تذكرين تلك المرأة .. نعم آنذاك، منذ فترةٍ طويلة، في النزهة. اسمعي. إنّها الآن هنا في البيت القديم. هيّا بنا إليها، وأؤكّد لكِ أنّي سأتدبّر كل شيء حالًا.

تخيّلتُ، وكأنّي أرى رأيَ العين، كيف أقودُها أنا و«م» عبر ممرّات، ثمّ ها هي قد صارتْ هناك وسطَ الأزهار والأعشاب والأوراق، لكنّها تراجعت القهقرى، واهتزّ قرنا هلالِها الورديّ، وتقوّسا نحو الأسفل.

قالت: تلك ذاتُها؟

- ما تقصدين؟ - ولأمرٍ ما ارتبكتُ. - نعم، هي ذاتها.

- وتريدني أن أذهبَ إليها، وأن أطلبَ منها أن .. إيّاك والعودة إلى هذا الموضوع ثانية!

اِلتوتْ على نفسِها وأسرعت مبتعدةً عنّي، ثمّ استدارت، وكأنّما تذكّرت شيئًا، وصاحت:

- وَلْأَمُتْ، لا بأس، فلا شأن لك بهذا. أليس الأمر سواءً عليك؟

هدوءٌ وسكون. قطع الأبراج والجدران الزرق تهبط من أعلى بسرعة مُريعة، تكبرُ على مرأى من عينيّ. لكنْ ساعاتٍ أمامها، وربّما أيّام من الطيران عبر اللانهاية، وخيوط غير مرئية تسبحُ ببطء، تستقرّ على الوجه، وليس هناك من وسيلة لدفعها أو التخلّص منها.

وأمضي إلى البيتِ القديم، وفي القلبِ ضغطٌ لا معنًى له، مؤلم ..

****

المذكّرة الثلاثون

الملخّص:

العدد الأخير. خطأ «غاليليو». أليس من الأفضل؟

إليكم حديثي مع «م» البارحةَ هناك، في البيتِ القديمِ وسطَ ضجيجٍ مختلط، يكبح المجرى المنطقيّ للأفكار، ألوان حمر، خضر، صفر ضاربة إلى البرونزي، بيض، برتقالية.. ونحن طَوال حديثِنا في ظلّ ابتسامةِ الشاعرِ القديمِ ذي الأنفِ الأفطس، المتجمّدة على المرمر.

أُعيدُ نقل هذا الحديث حرفًا حرفًا، لأنّه سيكون، كما يتهيّأ لي، ذا شأن هائلٍ، حاسمًا مصيرَ الدولة الواحدة، بل أكثر من ذلك: في مصير الكون. ثمّ قد تجدون لي، يا قرّائي المجهولين، بعضَ العذر هنا.

انهالت عليّ «م» فورًا، ومن دون أيّ تمهيد، بكلّ شيء:

-أعرف، بعد غد، ستقومون بأوّل تحليقٍ تجريبيّ «للتكامل»، وفي هذا اليوم سنستولي عليه.

-كيف؟ بعد غد؟

-نعم. اجلس، لا تضطرب. لا يُمكننا تضييعَ دقيقةٍ واحدة؛ بين المئاتِ الذين قبضَ الحرّاس عليهم أمس، هناك اثنا عشر «ميفي». تضييعُ يومين أو ثلاثة، تعني هلاكَهم.

كنت ملتزمًا الصمت.

- كيما تتمّ مراقبة مسارِ التجربة، يجب أن يبعثوا إليكم أخِصّائيّي كهرباء، وميكانيك، وأطبّاء، وراصدين جوّيين. وفي الساعة الثانية عشرة تمامًا، تذكّر، حين يقرع جرس الغداء، ويمضون جميعًا إلى المطعم، نُبقي مَنْ في الممرّ، ونقفل بابَ المطعم عليهم، ويصبح «التكامل» ملك أيدينا.. هل تفهم؟ هذا ضروريٌ مهما كلّف الأمر. «التكامل» في أيدينا سيكونُ السلاح الذي يساعدُنا في إنهاء كلّ شيء من الفور، سريعًا، ومن دون ألم. منطادهم .. ها، ها! سيكون مجرّد بعوضةٍ بائسةٍ في مواجهة حدأة. ثمّ، إذا كان هذا ضروريًّا، يمكنُ توجيهُ فُوّهات المحرّكات إلى أسفل وعند تشغيلها ..

وثبتُ واقفًا:

- هذا غير معقول! هذا سخيف! ألا تدركين حقًّا أنّ ما تنوون القيام به هو ثورة؟

- بلى، ثورة. ولماذا هذا غير معقول؟

- غير معقول، لأنّه لا يمكنُ أن تكونَ هناك ثورة. لأنّ الثورةَ، ثورتَنا، وأنا الذي يقول هذا لا أنتِ، كانت آخر الثورات. بعدها لا يمكنُ أن تقومَ أيّةُ ثورة. هذا أمر يعرفُه أيُّ أحد ..

مثلّث الحاجبين الحادّ، الساخر:

- يا عزيزي، أنت رياضيّ. بل أكثر من هذا: أنت فيلسوفٌ رياضيّ. اذكر لي العددَ الأخير إذن!

- ماذا تعنين؟ إنّي .. إنّي لا أفهمك. أيّ عددٍ أخيرٍ هذا؟

- إي. العدد الأخير، الأعلى، الأكبر.

-إيه يا «م»، لكنّ هذا غير معقول. إذا كان عدد الأعداد غير نهائيّ، فأيّ آخر عدد هذا الذي تريدينه؟

-فأيّ آخر الثورات هذه التي تريدها أنت إذن؟ ليس هناك شيء اسمه آخر ثورة. الثورات لا تنتهي. آخر ثورة: هذا كلامٌ للأطفال: الأطفالُ تخيفهم اللانهاية، من الضرورة أن ينامَ الأطفالُ باطمئنان ..

-لكن أيّ معنى، أيّ معنى في هذا كلّه بحقّ المحسن؟ أيّ معنى ما دام الناس جميعًا سعداء.

-لنفرض ذلك. حسنًا، فليكن كما تقول. وماذا بعد؟

-شيء مضحك! سؤال صبيانيٌّ تمامًا! أروي شيئًا ما للأطفال، أرويه لهم إلى آخره، وستَرَيْنَهُمْ مع هذا يسألونك حتمًا: وماذا بعد؟ ولماذا؟

-الأطفالُ وحدهم هم الفلاسفةُ الجريئون، والفلاسفةُ الجريئون أطفالٌ حتمًا. وهكذا تمامًا، كالأطفال، يجب دائمًا. سأل: وماذا بعد؟

-لا يوجد شيء بعد هذا! نقطة. في الكون كلّه توازن قائم، ينتشرُ في كلّ مكان ..

-ها، ها، توازن، وفي كلّ مكان! هو ذا ما يسمّى الاعتلاج تمامًا، الاعتلاج النفسيّ. أحقًا ليس واضحًا لديك، أنت الرياضي، أنّ الاختلافات -اختلافات الحرارة، الفروق الحرارية -فيها وفيها الحياةُ وحدها؟ وإذا لم يكن في كلّ مكان، في الكون كلّه إلّا أجسام ذات درجة واحدة من الدفء أو البرودة، يجب صدمُ أحدها بالآخر ليكون منها نار، انفجار، جينات، سنجعلها تتصادم.

-لكن، افهمي يا «م»، افهمي: هذا ما فعله أجدادُنا في أثناءِ حربِ المئتي عام تحديدًا.

-آه، كانوا على حقّ، ألف مرّة على حقّ. إنّما أخطأوا خطأً واحدًا، عندما اعتقدوا فيما بعد أنّهم العدد الأخير، وهذا لا وجود له في الطبيعة، نعم لا وجود له. خطيئتُهم هي خطيئة «غاليليو»: كان على صوابٍ في أنّ الأرض تدور حول الشمس، لكنّه لم يكن يعرف أنّ النظامَ الشمسي كلّه يسبحُ هو الآخر حول مركزٍ ما، لم يكن يعرف أنّ مدارَ الأرض الحقيقيّ، غير النسبيّ ليس أبداً دائرة ساذجة.

-وأنتم؟ -نحن، نحن نعرفُ، إلى الآن، أنّه ليس هناك عددٌ أخير. قد ننسى، بل غالبًا أنّنا سننسى حين نشيخ، كما يشيخُ كلّ شيء طبعًا. وعندئذ سنسقط، نحن الآخرين، كما الأوراق من الأشجار في الخريف، وكما ستسقطون أنتم بعد غدٍ .. لا، لا أيّها الغالي، ليس أنت. فأنت معنا، أنت معنا!

مُتوهّجةً، عاصفةً، مُتألّقةً كما لم أرها من قبلُ أبدًا، هكذا عانقتني كلّها، بكِيانها كلّه، تلاشيتُ ..

آخر ما قالته لي وهي تنظرُ إليّ نظرة ثابتة حازمة: تذكّر إذن، في الثانيةِ عشرة. قلت: لن أنسى.

خرجتْ. بقيتُ وحدي وسط اللفظ المحتدم، المتباين الأصوات، الزرق، الحمر، الصفر، الضاربة إلى البرونزيّ، البرتقالية ..

أجل، في الثانية عشرة .. وفجأة داهمني إحساسٌ سخيفٌ بشيءٍ ما غريب استقرّ على وجهي، شيءٌ لا أستطيع له دفعًا. وفجأةً، مَثُلَ في خاطري صباحَ الأمسِ، «خ» وما صرخَت به في وجه «م». لماذا؟ ما هذا

العبث؟ وأسرعت خارجًا نحو البيت بسرعة! بسرعة!

في مكان ما خلفي، سمعت أصواتًا لعصافير الثاقب فوق السور. أمامي في شمس المغيب المسكوبة من نار قرمزية مقطّرة كرياتُ القباب، والبيوتُ المكعّبات الهائلة المتوهّجة، ومسلّة البرج الشبيهة ببرق تجمّد في السماء. وهذا كلّه -هذا الجمال الهندسيُّ الذي لا عيب فيه ولا شائبة، سيكون عليّ أنا وبيديّ. أوَليس هناك مخرج، طريق آخر فعلًا؟

مررت قرب قاعة (لا أتذكّرُ رقمَها). في الداخل كومةُ مقاعد، في الوسط، طاولاتٌ مغطّاةٌ بشراشفَ من زجاجٍ أبيض كالثلج، وعلى البياض بقعةٌ من دم الشمسِ الوردي. كان الغد مجهولًا وفظيعًا لأنّه مجهول، يختفي في هذا كلّه. إنّه لأمرٌ مخالفٌ للطبيعة أن يعيش كائنٌ مفكّرٌ مُبصرٌ وسط اللاسُنن والمجاهيل. لو عصبوا أعينكم وجعلوكم تمشون هكذا، تتلمّسون طريقكم عشوائيًا، تتعثّرون عارفين أنّه في مكانٍ ما قريبٍ جدًّا منكم شفير، وتكفيكم خطوةٌ لتبقى منكم قطعة لحم مفلطحة مشوّهة. أليس هذا هو الشيء نفسُه؟

وماذا لو أرمي بنفسي إلى الهاوية مِن دون انتظار؟ ألن يكون هذا هو الشيءُ الوحيدُ والصحيحُ الذي يُنهي كلّ شيء؟

*****

المذكّرة الحادية والثلاثون

الملخّص:

العمليّة الكبرى. غفرت كلّ شيء. اصطدام القطارات

نجونا! نجونا في آخر لحظةٍ حين بدا لنا أنّه لم يعدْ هناك ما نتعلّقُ به، حين بدا لنا أنّ كلّ شيءٍ انتهى..

وهكذا، كأنّما ارتقيت الدرجاتِ المفضيةَ إلى آلةِ المحسنِ الرهيبة، وغطّتك الكميمة الزجاجية في جلَبةٍ ثقيلة، تلتهمُ السماء الزرقاء بعينيك على عجل لآخر مرّةٍ في حياتك..

فجأةً، ليس هذا كلّه سوى «حلم». الشمسُ ورديةٌ جذلى، والجدار، أيّة فرحة هذه أن تمسحَ بيدِك على الجدار البارد، والوسادة؟ أيّة فرحة هذه أن تنتشي طويلًا طويلًا بالتجويف الذي حفره رأسُك في الوسادة البيضاء؟

هذا قريبًا ممّا عانيته صباحَ اليوم، وأنا أقرأ الجريدة الرسمية. كان هناك حلمٌ فظيعٌ، وانتهى هذا الحلم. وأنا ذو النفس الوضيعة، أنا غير المؤمن، كنت أفكّر في موتٍ إراديّ! يُخجلني الآن أن أقرأ السطور الأخيرة التي كتبتها البارحة. لكن، فلتبقَ على أيّة حال، فلتبقَ ذكرى ذلك الشيء اللامعقول الذي كان يمكنُ أن يكون، والذي لن يكون بعد اليوم أبدًا .. نعم، لن يكون!

على الصفحة الأولى من الجريدة الرسميّة، كان يتلألأُ ما يلي:

«تهلّلوا وابتهجوا، فأنتم منذ الآن كاملون! إلى يومِنا هذا، كان أبناؤكم الآلات أكمل منكم؟ بمَ؟

كلّ شرارة دينامو هي شرارة العقل الخالص. كلّ حركة مكبس، هي قياسٌ منطقيٌ معصوم. أوليس فيكم أنتم كذلك ذلك العقل المعصوم؟

فلسفةُ الرافعات والمنافيخ والمكابس مكتملة وواضحة، كدائرةٍ مرسومة بالفرجار. لكن، هل فلسفتكم أنتم أقلّ وضوحًا واكتمالًا؟

جمال الآليّة في إيقاعها الثابت والدقيق كما في الرقّاص. لكن، أنتم الذين تغذّيتم منذ طفولتكم بنظام «تايلور»، ألم تصبحوا دقيقين كالرقّاص؟

إلّا أنّ هناك أمرًا واحدًا، هو أنّه ليس للآلاتِ خيالٌ.

هل رأيتم يومًا أن انتشرت على وجه أسطوانة المنفاخ في أثناء عملها ابتسامةٌ بعيدةٌ حالمةٌ من دون معنى؟ أو هل سمعتم يومًا أن دمدمت الرافعاتُ، وتنهّدت ليلًا في الساعاتِ المخصّصة للراحة؟

كلّا! أمّا عندكم، واخجلوا من هذا، فالحرّاس يرون هذه الابتسامات، والابتسامات تتزايد. ووارُوا عيونكم، فمؤرّخو الدولة الواحدة يطلبون الاستقالةَ، كي لا يسجّلوا هذه الأحداث المشينة.

لكن هذا ليس ذنبكم، فأنتم مرضى. واسمُ هذا المرض: الخيال.

إنّه دودةٌ تحفر تجاعيدَ سودًا على جبينكم. إنّه حمّى تدفعكم إلى المضيّ إلى الـ «ما بعد»، مع أنّ هذا «ألمــا بعد» يبدأ حيث تنتهي السعادة. إنّه المتراس الأخير في طريق السعادة.

تهلّلوا وابتهجوا لأنّ هذا المتراسَ فُجِّر، وبات الطريق مفتوحًا.

وآخر اكتشافات علم الدولة، هو أنّ مركز الخيال عقدة دماغيّة طفيفة في منطقة «جسر فاروليو». وكيّ هذه العقدة ثلاث مرّات بأشعّة كفيلٌ بشفائكم من الخيال وإلى الأبد.

أنتم كاملون، أنتم مُعادِلون للآلة، الطريق إلى السعادة الكاملة حقيقٌ مفتوح. فأسرعوا جميعًا، كبارًا وصغارًا، أسرعوا إلى العملية العظمى، أسرعوا إلى القاعات حيث تُجرى العملية العظمى. عاشت العملية العظمى. عاشت الدولة الواحدة، عاش المحسن!».

..لو أنّكم قرأتم هذا كلّه ليس في مذكّراتي التي تشبه روايةً قديمة، غريبة، لو أنّ ورقة الجريدة، التي لا تزالُ رائحةُ حبر المطبعة تفوح منها، ارتعشت بين أيديكم كما ارتعشت بين يديّ.. لو أنّكم عرفتم كما عرفتُ أنّ هذا كلّه هو الحقيقة الفعلية، إن لم تكن حقيقة اليوم فالغد، أما كنتم تشعرون بما شعرتُ؟ أما كان رأسكم يدور كُما يدورُ الآن رأسي؟ أما كانت تخزّكم كما تخزّني هذه الإبر الجليديّة اللذيذة المريعة الآن في ظهري، وفي يدي؟ أما كان يبدو لكم أنّكم عملاق، أطلس[1]، وأنكم إذا ما انتصبتم سيصطدم رأسكم بالسقف الزجاجي لا محالة؟

خطفتُ سمّاعة الهاتف:

-«م -330».. نعم، نعم: «330»، ثمّ صحتُ وأنا أغصّ:

---

(١) أطلس هو ملك من ملوك موريتانيا الأسطوريّين. رفض استضافة «بيرسي» فحوّله هذا إلى جبل. وبما أ نّ هذا الجبل عال، فقد بدا أن أطلس كُتب عليه أن يسند قبّة السماء على كتفيه (المترجم).

-أنتِ في البيت، نعم؟ هل قرأتِ، هل تقرئين؟ هذا، هذا .. هذا شيءٌ مدهش!

-أجل .. ثم صمتٌ طويلٌ مبهمٌ. كانت السمّاعة تخشخش خشخشةً لا تكاد تُسمع، كانت تفكّرُ في شيءٍ ما.

-يجب أن أراك اليوم حتمًا. نعم، عندي بعد السادسة عشرة. حتمًا.

أيّتها الغالية؛ الغالية جدًّا! (حتمًا) .. شعرت أنّي ابتسم، وأنّي لا أستطيع بأيّ شكل التوقّف عن الابتسام، وأنّي سأمضي هكذا في الطريق حاملًا ابتسامتي هذه كأنّها مشعلٌ مرفوعٌ فوق رأسي ..

هناك، من الخارج، هبّتْ ريح في وجهي. كانت تدوّم، تصفر، تسوط. لكن هذا لم يكن يزيدني إلّا بهجة. زمجري، اعوي، الأمر سِيّان عندي: الآن لم يعد بوسعك أن تهدمي الجدران. وفوق رأسي تنهال غيومٌ طيّارةٌ بلون الحديد، فليكن: فليس لك أن تُطفئَ الشمس، فنحن قد ربطناها إلى السمت بسلسلة، نحن أحفاد «يشوع بن نون»[1].

عند الناصية كانت تقف كتلة متراصّة من أمثال «يشوع بن نون» ملصقةً جبينها بزجاج الجدار. وفي الداخل، كان أحدُهم يتمدّد على طاولةٍ ذات بياض يبهر البصر. كان يُرى من تحت البياض باطنا قدمَيه العاريتين المنفرجتين، على شكل زاويةٍ صفراء، والأطبّاء البيض قد انكبّوا فوق رأس السرير، ويدٌ بيضاءُ تُمدّ لأخرى محقنةً مملوءةً بشيءٍ ما.

سألتُ:

---

(١) هو الذي أوقف الشمس فلم تمل للمغيب مدّة يوم كامل، كما جاء في التوراة – سفر يشوع (المترجم).

-وأنت لماذا لا تتقدّم؟ - «أنت» هذه لم تكن موجّهة إلى أحد، أو غالبًا، كانت موجّهةً إلينا جميعًا.

استدارت نحوي كرةٌ:

-وأنت؟

-أنا، أنا .. فيما بعد. ينبغي لي أولّ الأمر ..

وتراجعت مبتعدًا، وقد انتابني بعضُ الارتباك. فعلًا كان ينبغي لي أوّل الأمر أن أراها، أن أرى «م». لكن لماذا «أوّل الأمر». أنا نفسي لم أستطع إجابةَ نفسي على هذا السؤال ..

العنبر. كان «التكامل» الجليدي المشوب بالزرقة يلمع، يتلألأ، وفي غرفة الآلات كان الدينامو يهدرُ مردّدًا برقّة ومن دون نهاية كلمة ما، كأنّها كلمةٌ أليفةٌ بالنسبة إليّ. انحنيت، مسحت بيدي على ماسورةِ المحرّك الطويلة الباردة .. لطيفة، يا لك من لطيفة! غدًا ستدبّ الحياةُ فيك، وستنتفضين من الشرر الناري الحارق في أحشائك لأوّل مرّة في حياتك.

بأيّ عينين كنتُ سأنظرُ إلى هذا الوحشِ الزجاجي الهائل، لو بقيَ كلُّ شيء كما كان عليه البارحة؟ لو كنت أعرفُ أني غدًا في الثانية عشرة سوف أخونه .. نعم أخونه ..

لمسني أحدُهم بحذر في مِرفقي. التفتُّ: كان هذا وجهَ الباني الثاني المسطّحَ، الصحني. قال:

-عرفتَ طبعًا بها جدّ.

-ماذا؟ العمليّة؟ أجل، أليس هذا عجيبًا؟ كلّه دفعة واحدة .. من

الفور..

-لا، ليس هذا ما أعنيه. لقد أُجّل التحليقُ التجريبيُّ إلى ما بعد غدٍ. وهذا كلّه بسبب العمليّة تلك.. عبثًا استحثّونا واستعجلونا.

«هذا كلّه بسبب العمليّة». إنسانٌ مضحك، محدود.. لا يرى أبعد من صحنه.. لو كان يعرفُ أنّه لولا العمليّة غدًا، لوجدَ نفسَه في الساعةِ الثانيةَ عشْرةَ من يوم غدٍ مقفولًا عليه في القفص الزجاجيّ يتململُ هناك، محاولًا تسلّق الجدار..

في غرفتي، الساعة 15:30. دخلت فرأيت «خ». كانت تجلس إلى طاولتي معروقة، مستوية القامة، صلبة، مُثبتةً خدّها الأيمن على يدها. لا بدّ من أنّها كانت في انتظاري منذ فترةٍ طويلةٍ، لأنّها حين هبّتْ للقائي، بقيت على خدّها خمسُ حفرٍ من أصابعها.

ولثانية واحدة، داخلني الشعور نفسُه الذي داخلني في ذلك الصباح التعيس، حين كانت هناك تمامًا، قرب الطاولة، إلى جانب «م»، وهي محتدمةٌ غيظًا.. لكنْ لثانيةٍ، وحسب. ثمّ غُسل هذا كلُّه بشمس هذا اليوم. هكذا يحدثُ حين تدخل غرفةً في يوم ساطعٍ، وتدير الزرّ سهوًا. المصباح يضيءُ لكنْ كأنّه غير موجود.. يبدو مُضحكًا، بائسًا، نافلًا.

مددتُ لها يدي من دون تردّد أو تفكير، فقد غفرتُ لها كلّ شيء. أمسكتْ يديّ كلتيهما وضغطت عليهما بقوّة، بشكل شائك، قالت وخدّاها المتدلّيان كالزخارف القديمة يختلجان في تأثّر:

-كنتُ أنتظرُك.. أتيتُ لدقيقةٍ واحدةٍ.. ما أردتُ إلّا أن أقول لك: كم أنا سعيدة، كم أنا مسرورة لأجلك! إنّك تفهمني: غدًا أو بعده

ستكون معافًى تمامًا. ستكونُ وُلدتَ من جديد ..

رأيت على الطاولة ورقةَ الصفحتين الأخيرتين من مذكّرة الأمس. كانتا في مكانهما كما تركتهما مساء أمس .. لو رأت ما كتبتُ هناك .. على أيّة حال، الأمر سواء: فهذه الآن لا تعدو قصّة مضت، إن هي إلّا شيء بعيد جدًّا حتى الإضحاك، كما من خلال منظار مقلوب ..

-أجل.. قلت لها؛ – تعرفين: كنتُ أسيرُ توًّا في الشارع، كان أمامي شخصٌ يسقطُ ظلُّه على قارعة الطريق. أتفهمين: الظلّ كان يضيء. ويبدو لي، بل أنا واثق من هذا، غدًا لن تكون هناك ظلالٌ أبدًا، لن يكون هناك ظلٌّ لأيّ شخص، لأيّ شيء، ستنفذ الشمسُ عبرَ كلّ شيء ..

أجابتْ بحنان وصرامة:

– إنّك ذو خيال جامح! ما كنتُ لأسمحَ لأطفالي في المدرسة التكلّمَ هكذا ..

وأردفت تقول لي أمرًا عن الأطفال، وكيف أخذتهم كلّهم فورًا، جماعةً واحدة إلى العمليّة، وكيف اضطُرّوا هناك إلى ربطهم وكيف أنّه «يجب أن نحبّ من دون رحمة، أجل، من دون رحمة»، وإنّها، على ما يبدو، ستحزم أمرَها أخيرًا ..

سوّت القماش الأزرق الضارب إلى اللون الرماديّ بين ركبتيها، ولصقتْ عليّ كلّي ابتسامةً بصمتٍ وسرعةٍ وخرجت.

ولحسن الحظّ، لم تتسمّر الشمس ولم تتوقّف اليوم. الشمس كانت تُسرع، وها هي الساعة السادسة عشرة وأنا أدقّ الباب، وقلبي يدقّ ..

-ادخلْ!

ارتميت على الأرض قربَ أريكتها، طوّقتُ قدميها، ورحتُ رافعًا رأسي إلى فوق، أتطلّع في عينيها المرّة تلو الأخرى، وفي كلّ منهما أرى نفسي في أَسْرٍ فاتن ..

هناك، وراء الجدار عاصفة، هناك غيوم تزداد سوادًا، ليكن. رأسي غاصّ، كلمات جيّاشة تفيض، وأنا أطير مع الشمس بصوتٍ مسموع إلى مكانٍ ما .. لا، إنّنا نعرف الآن إلى أين، فخلفي الآن كواكب نافثة للّهب، مأهولة بأزهار نارية مترنّمة، وكواكب خرس زرق، الحجارةُ العاقلة فيها وُحِّدتْ في مجتمعاتٍ منظّمة، وكواكب بلغت ككوكبنا الأرضي قمّة السعادة المطلقة، السعادة التامّة ..

فجأة تناهى إليّ من فوق:

-ألا تظنّ أنّ القمّة هي تمامًا الحجارة المتّحدة في مجتمع منظّم؟

المثلّث يزداد حدّة واسودادًا، والسعادة.. ما هي؟ الرغبات تعذّبنا، أليس كذلك؟ واضحٌ أنّ السعادة تكمنُ حيث لا تكون هناك أيّة رغبات، أيُّ .. يا له من خطأ، مِن وهم سخيف أنّنا ما فتئنا نضع حتى الآن أمام السعادة إشارةَ زائد. أمام السعادة المطلقة إشارة ناقص طبعًا، إشارة ناقص إلهيّة.

أذكر أني غمغمت بارتباك: الصفر المطلق هو -273 درجة مئوية.

-ناقص 273 تمامًا. هناك برودة طفيفة، لكن ألا يُثبتُ هذا أنّنا على القمّة!؟

وكما آنذاك، منذ فترةٍ طويلة، كأنّها كانت تتكلّم نيابة عنّي، تتكلّم بلساني، وكانت تطوّر أفكاري حتى غايتها، إنّما كان في هذا شيءٌ فظيع، ولم أقو فانتزعتُ من داخلي بصعوبة بالغة كلمة «كلّا».

-كلّا، _ قلتُ: أنتِ تمزحين.

ضحكتْ. ضحكت بصوت عالٍ، أعلى ممّا ينبغي له .. وبلغت بسرعةٍ، في ثانيةٍ، بضحكتها شفيرًا، زلّت وهوت .. إلى أسفل. توقّفٌ.

نهضَتْ. وضعَت يديها على كتفي. نظرتْ إليّ نظرةً طويلةً بطيئة. ثم ضمّتني إليها. ولم يعد هناك سوى شفتيها الرقيقتين الحارّتين.

الوداع! ندّ هذا من بعيد. من فوق، ولم يبلغْني من الفور، بل ربّما، بعد دقيقةٍ أو اثنتين ..

- أنت مريض، بسببي اقترفتَ جرائم شتّى، ألم يعذّبك هذا حقًّا؟ والآن العملية، وتُشفى منّي. وهذا معناه «الوداع».

- لا .. هتفتُ.

المثلّثُ الأسودُ الحادُّ من دون رحمةٍ على الخلفية البيضاء:

- كيف؟ ألا تريدُ السعادة؟

انشقّ رأسي جامحًا في اتّجاهين مختلفين، قطاران منطقيان اصطدما، علا أحدهما الآخر وهويا، أزّا..

- وماذا أنّي أنتظر، اختر: العملية والسعادة التامة أو..

- «لا أستطيعُ من دونك، لا داعي لأيّ شيء من دونك» ..

قلتُ لها أو أنّي فكّرت وحسب، لا أدري، لكنّ «م» سمعتْ.

- أجل، أعرف، أجابتني. ثم أردفت، وهي لا تزالُ تضع يديها على كتفي، وتثبتُ عينيها في عينيّ:

- إلى الغد إذن. غدًا في الثانية عشرة، أتذكر؟

- لا، بل أخّرْ يومًا آخر .. إلى بعد غدٍ إذن ..

- هذا أفضل لنا. في الثانية عشرة بعد غد ..

كنت أسير وحدي في الشارع العاتم. كانت الريح تدور بي، تحملني، تسفّني كورقة. قطع السماء الحديدية كانت تطير، تطير .. عبر اللانهاية. كان أمامها أن تطيرَ يومًا آخر، يومين .. كانت ملابس من ألقاهم تُلامسني، لكنّي كنت أسيرُ وحيدًا. كان واضحًا أنّ جميعهم قد نجوا، أمّا أنا فلم تعدْ لي نجاة، بل أنا لا أريدُ النجاة.

*****

المذكّرة الثانية والثلاثون

الملخّص:

لا أؤمن. الجرّارات. قطعة إنسانية.

هل تؤمنون أنّكم ستموتون؟ نعم، الإنسانُ فانٍ وأنا إنسانٌ، فأنا إذنْ .. لا، ليس هذا ما أريدُ قوله، فأنا أعرف أنّكم تعرفونه. بل إنّي أسألكم: هل حدث لكم أن آمنتم بهذا، آمنتم به نهائيًا، آمنتم به ليس بعقلكم، بل بجسمكم، هل شعرتم أنّ الأصابع التي تمسك هذه الصفحة ستكون ذات يوم صفراء، جليديّة؟

لا، أنتم تؤمنون بهذا طبعًا، ولهذا السبب لم تقفزوا حتى الآن من الطابق العاشر إلى الشارع، لهذا السبب ما زلتم تأكلون، تقلبون الصفحة، تحلقون ذقونكم، تبتسمون، تكتبون..

الشيءُ نفسه .. نعم، الشيءُ نفسُه يحدثُ معي اليوم. أعرف أنّ هذا العقربَ الأسودَ الصغيرَ على الساعة سيزحفُ إلى هنا، إلى أسفلٍ، إلى منتصف الليل، وسيرتفعُ من جديدٍ ببطءٍ نحو أعلى، سيجتازُ خطًّا ما أخيرًا ويقبل الغد غير المعقول. أعرف هذا كلّه، مع هذا، لسببٍ ما لا أؤمنُ به، أو ربّما يبدو لي أنّ الأربعَ والعشرين ساعة هي أربع وعشرون سنة، ولهذا بإمكاني حتى الآن أن أعملَ شيئًا ما، أن أسرعٍ إلى مكان ما، أن أجيبَ على الأسئلة، أن أتسلّقَ سلّمَ «التكامل». لا أزالُ أشعر كيف يهتزّ فوق الماء، وأدرك أنه ينبغي لي التمسّك بالدرابزين، وأنّ زجاجًا باردًا تحت يديّ. وأرى كيف تغذّي الرافعاتُ الشفّافة الحيّة، «التكاملَ»

في اهتمام وحنان بغذاءٍ مريع متفجّر معدٍّ للمحرّكات وهي تُميل بأعناقها الغرنوقية وتمدّ مناقيرها. تحت على النهر، أرى عروقًا وعقدًا مائيّة واضحة الزرقة منتفخة من الهواء. لكنّ هذا كلّه كأنّها منفصل عنّي أشدّ الانفصال، غريب، مسطّح كرسم هندسي تقريبي، على صفحة ورقة. كان من الغريب أنّ وجه الباني الثاني المسطّح الشبيه بالرسم الهندسيّ، قال فجأةً:

-كم نأخذُ إذن من وقود المحرّكات؟ إذا اعتبرنا ثلاثًا .. أو ثلاثَ ساعات ونصف ..

أمامي مسقطةً على الرسم الهندسيّ، يدي الممسكةُ بالحاسوب. ووجهُ العدّاد اللوغاريتمي ورقمُ 15.

-خمسة عشر طنًا. لكنّ الأفضلَ أن تأخذوا. بل، خذوا مِئة.

هذا لأنّي أعرفُ مع هذا أنّه غدًا ..

وأرى في الوقت نفسِه كيف بدأت يدي التي تحمل العدّاد ترتعشُ ارتعاشًا طفيفًا.

-مِئة؟ لماذا هذه الكمّية الكبيرة؟ هذه الكمّية تكفي أسبوعًا. كيف أقولُ أسبوعًا: بل أكثر.

-لا أحد يعرفُ.. ما الذي يمكنُ أن يحدث..

-بل أعرف.

الريح تصفر، الجوُّ كلُّه مشحونٌ بشيءٍ ما غير مرئيّ. أشعرُ بصعوبةٍ في التنفّس، بصعوبةٍ في السير. العقربُ على ساعة برج المكثّفات هناك في آخر الشارع يزحف بصعوبة، ببطء، لا يتوقّفُ ثانيةً واحدةً. ورأس

البرج بين الغيوم باهتًا أزرقَ، يعوي بصوت مُوحش. إنّه يمتصّ الكهرباء، وأبواق المصنع الموسيقي تعوي.

كعهدِهم دائمًا يسيرون صفوفًا، أربعةً أربعةً. لكنّ صفوفهم تبدو غير مُتراصّة، ربّما كانت تتمايل وتلتوي بفعل الريح، وما تنفكّ تزدادُ إلّا تمايلًا والتواءً. وها هم اصطدمُوا بشيءٍ ما عند الناصية، ارتدّوا إلى الوراء، وصاروا كتلة متراصّة جامدة ضيّقة، متواترة الأنفاس، واستطالت لهم جميعًا من الفور أعناقٌ طويلة إوزيّة.

-انظروا! لا، انظروا هناك، بسرعة!

-هم! إنّهم هم بالتأكيد!

-.. أنا مهما يكن لن أقبل! لن أقبل مهما كلّف الأمر. الأفضل أن أضع رأسي في الآلة..

-اخفض صوتك! مجنون.

في القاعة عند الناصية بابٌ مفتوح على امتلائه، يخرج منه طابورٌ بطيء مُتجهّم من نحو خمسين شخصًا، لا، كلمة «شخص» هنا ليست الكلمة المناسبة: فليس هناك أرجل، بل دواليبُ ثقيلةٌ موثوقةٌ، يديرُها جهازٌ غير مرئي، ليس هناك أشخاصٌ، بل جرّارات تشبه الإنسان. وفوق رؤوسهم تخفق في الهواء رايةٌ بيضاءُ ذات شمس ذهبية مطرّزة، وفي أشعّتها كتابة: «نحن الأوائل! لقد أجريت لنا العملية! ولْيتبعْنا الجميع!».

شقّوا ببطء وبقوّة لا تقاوم أثلامًا عبر الجمهور، وواضح أنّه لو وجدوا في طريقهم بدلًا منّا جدارًا، شجرةً، بيتًا لما تورّعوا، كما فعلوا بنا، عن شقّ أثلام عبر الجدار، الشجرة، البيت. وها قد باتوا في وسط

الشارع. وامتدّوا سلسلة ممسكًا أحدهم بيد الآخر في مواجهتنا. ونحن كومةٌ ذاتُ رؤوسٍ مصفوفةِ الشعرِ نترقّب، الرقابُ ممدودةٌ كالإوزّ. غيوم سود، وريح تَصفُرُ.

فجأة انعقف جناحا السلسلة بسرعة من يمين وشِمال، وأطبقا علينا بسرعة متزايدة كما آلةٌ ثقيلة تطبق على كومةٍ ما، وضربا حولنا طوقًا، وأخذا يدفعاننا إلى الأبوابِ المفتوحةِ، إلى الداخل ..

صرخةٌ نافذة أطلقها أحدُهم:

-يسوقوننا! اهربوا!

وتداعى كلُّ شيء. حذو الجدار تمامًا أبوابٌ صغيرة حيّة، جميعُهم يُدفعون إليها ورؤوسهم إلى الأمام. الرؤوس صارت في لحظة واحدة كالأسافين، والمرافق والأضلاع والأعطاف صارت حادّة. تناثروا على شكلٍ مروحة، كتيّار ماء مضغوط بخرطوم حريق ، فلا ترى حولك إلّا أرجلًا تدبّ، وأيادي تلوّح، وملابس ترفرف. لاح أمامي من مكان ما، للحظة، الجسمُ المعقوفُ عقفة مزدوجة كحرف «S»، والأذنان الجناحان الشفافان، ثم انشقّت الأرض عنه واختفى، وبقيتُ وحدي أركضُ وسط الأيدي والأرجل المارقة بسرعة مذهلة ..

ركضتُ إلى مدخلٍ ألتقطُ منه أنفاسي، وأسندتُ ظهري إلى الباب بقوّة، وللحال كأنّما قذفَتني الريح بقطعة إنسانية صغيرة.

-طَوال الوقت أنا.. أنا في إثرك .. لا أريد، أتفهمني، لا أريد. أنا موافقة ..

يدان صغيرتانِ مدوّرتان على كمّي وعينان زرقاوان مدوّرتان: إنّها هي «ف». وفجأة رأيتها تنزلق كلّها على الجدار، وتقعي على الأرض.

وهناك، في الأسفل، على الدرجات الباردة تكوّمت كومة صغيرة، وأنا فوقها. أمسح على رأسها، على وجهها. اليدان مبلّلتان. وهكذا كأنّما أنا كبير جدًّا وهي صغيرة جدًّا، كأنما هي جزء صغير من ذاتي. إنّها شيء مختلف تمامًا عن «م»، ويتهيّأ لي الآن أنّ شيئًا من هذا القبيل كان يمكن أن يشعرَ به الأقدمون نحو أطفالهم، الذين هم من لحمهم ودمهم.

في الأسفل، ومن خلال اليدين اللتين تغطّيان الوجه، وبصوتٍ لا يكادُ يُسمع:

-أنا في كلّ ليلة .. لا أستطيعُ إذا ما شفيت .. أنا في كلِّ ليلة، وحدي في الظلام، أفكّر فيه، كيف سيكون وكيف سأ.. لن يكونَ هناك عندي ما أعيشُ به، أتفهمني؟ وأنت، أنت من واجبك، من واجبك ..

انتابني شعورٌ سخيفٌ، لكنّني واثق فعلًا: أجل، من واجبي. سخيفٌ لأنّ واجبي هذا سيكونُ جريمةً أخرى. سخيفٌ لأنّ الأبيض لا يمكنُ أن يكونَ في الوقت نفسه أسود. الواجبُ والجريمةُ لا يمكنُ أن يتطابقا. أم أنّه ليس في الحياة أبيض ولا أسود، بل يتوقّف اللونُ على المقدّمة المنطقية الأساسية. وإذا كانت هذه المقدّمة أنّي منحتُها طفلًا بشكلٍ مُخالف للقانون ..

-حسنًا، حسنًا، لكن لا داعي .. لا داعي. قلتُ لها: أنتِ تعرفين، يجبُ أن آخذكِ إلى «م» كما اقترحتُ عليك آنذاك، كي ..

-أجل.. (-بصوت خافت من دون أن ترفع يديها عن وجهها). ساعدتُها في النهوض، ومضينا بصمتٍ في الشارعِ الغارقِ شيئًا فشيئًا في الظلام، بين البيوت الرصاصيّة الخرساء، وسطَ هبّات الريح الشديدة السائطة، وكلٌّ منّا يفكّر فيما يخصّه، أو ربما كنّا نفكّر نحن الاثنين في أمر واحد ..

في نقطةٍ شفّافة، متوتّرة سمعت من خلال صفير الريح الخطواتِ المألوفةَ، الخابطةَ كما في مخاضة، خلفي. التفتُّ فرأيتُ «S» وسط الغيوم الراكضة مقلوبةً، المعكوسة على زجاج الطريق الكامد. من الفور، صارت يداي غريبتَين عنّي، تلوّحان في غير تناسق، ورحتُ أحدّث «ف» بصوتٍ عالٍ على أنّه غدًا .. أجل، غدًا سيتمّ أوّل تحليق «للتكامل»، وسيكونُ هذا شيئًا غير مسبوقٍ إطلاقًا. شيئًا رائعًا، رهيبًا.

نظرت «ف» إليّ، إلى يديّ المطوّحتين بلا معنًى، وبصوت مسموع، نظرات زرقٌ، مدوّرة، مبهوتة. لكنّي، لم أفسح لها المجال في قول كلمةٍ واحدةٍ، بل استرسلتُ في الكلام من دون توقّف. أمّا في داخلي، على انفراد مع نفسي -وهذا لم يكن يسمعه أحدٌ سواي -فقد كانت تدقّ في رأسي وتطنّ بشكل محموم: «لا يجوز .. يجب بشكلٍ ما .. لا يجوز أن نقودَه إثرنا إلى «م» ..).

وبدل أن أنعطف يسارًا، انعطفتُ يمينًا، وأدلّ الجسرُ لنا نحن الثلاثة -أنا و«ف» و«S» من خلفنا -ظهرَه المحنيّ في خضوع وعبوديّة. كانت الأضواءُ تتساقطُ من البنايات المنارة على الضفّة الأخرى في الماء، وتتحطّم شراراتٌ متقافزةٌ بشكل محموم، مرشوشة بزبد أبيض مسعور. كانت الريح تصفر كأنّما هناك في مكان ما غير مرتفع وترٌ مشدودٌ على مقام الباص. ومن خلال صوت الريح طَوال الوقت..

ها هو ذا البيت الذي أقطنه. توقّفت «ف» عند الباب وهمّت بأن تقول شيئًا:

-لا! لكنّك وعدْتَ..

لكنّي لم أمكّنها من الاسترسال. دفعتُها عبر الباب فإذا نحن في الداخل، في الردهة. فوق طاولة المراقبة، الخدّان الأليفان المتدلّيان

المختلجان بانفعال، وحولها كومةٌ متراصّةٌ من الأرقام، ونقاشٌ ما، ورؤوسٌ ممدودةٌ من الطابق الثاني عبر الدرابزين، وأرقامٌ تهبط الدرجَ عدوًا، واحدًا واحدًا. لكنّ هذا فيما بعد، فيما بعد .. أمّا الآن فقد جذبتُ «ف» بسرعة إلى الزاوية المقابلة، وجلستُ وظهري إلى الجدار (ورأيت هناك، خلف الجدار ظلًّا أسودَ ذا رأسٍ كبيرٍ ينزلقُ على الرصيف جيئةً وذهابًا)، وأخرجتُ مفكّرتي.

استقرت «ف» بطيئة في أريكتها -كأنّما كان جسمها يتبخّرُ تحت ثوبها، يذوبُ، فلم يعد هناك إلّا ثوبٌ فارغٌ، وعينان فارغتان تمتصّان فراغًا أزرق. وقالت بصوتٍ متعبٍ: لماذا جئتَ بي إلى هنا؟ هل خدعتني؟

-لا، اخفضي صوتك! انظري إلى هناك: أترين ما وراء الجدار؟

-أجل، ظلّ.

-إنّه هو، دائمًا ورائي.. لا أستطيع، أتفهمين؟ لا يجوزُ لي. الآن، سأكتبُ كلمتين، تأخذينهما وتذهبين وحدك. إنّه سيبقى هنا، أنا أعرف ذلك.

تحت اللباس الموحّد تحرّك الجسمُ الممتلئُ من جديد، تكوّر البطن قليلًا، وعلى الخدّين سحَرٌ، فجرٌ لا يكاد يُلحظ.

دسست القصّاصة بين أصابعها الباردة، وشددت على يدِها بقوّة. ونهلتُ مرّةً أخيرة بعينيّ من عينيها الزرقاوين.

-الوداع! لعلّنا فيما بعد .. ذات يوم ..

سحبت يدها. أحنت رأسها ومضت ببطء. مضت مسافة خطوتين، ثمّ استدارات بسرعة، فإذا بها مرّة أخرى إلى جانبي. شفتان

راعشتان، وبشفتيها، بعينيها، بكِيانها كلّه تردّد كلمة واحدة، الكلمة ذاتها، وابتسامة لا تُحتمل، وألمٌ فظيع ..

القطعةُ الإنسانيةُ الصغيرةُ المقوّسةُ صارت في الباب، والظلّ الضئيل وراء الجدار يمضي، من دون أن يلتفت، بسرعة، بسرعة متزايدة ..

دنوت من طاولة «خ». قالت لي باضطراب واستنكار، وهي تنفخ غلصميها:

-هل ترى، كأنّما جميعهم جنّوا! ها هو ذا أحدهم يؤكّد كأنّما رأى قرب البيت القديم إنسانًا عاريًا مغطًّى كلّه بالصوف..

وخرج من الكومة المنتصبة شعورُ رؤوسها صوت:

-أجل! وأكرّر مرّة أخرى: رأيت، نعم رأيت!

-أيعجبك هذا، أ؟ يا له من هذيان!

كانت في قولها «هذيان» تبدو على قناعةٍ راسخةٍ لا تنتزع، فتساءلت: (أو ليس هذيانًا حقًّا كلّ ما يحصل لي وحولي في المدّة الأخيرة؟).

حانت منّي التفاتة إلى يديّ الشعراوين وتذكّرتُ كلماتِها: «فيكَ، على ما يبدو، قطرةٌ من دم الغابة .. ولعلّ هذا ما جعلني ..».

لا. لحسن الحظّ ليس هذيانًا. لا: لسوء الحظّ ليس هذيانًا ..

*****

المذكّرة الثالثة والثلاثون

الملخّص:

(هذا بلا ملخّص. على عجل. آخر شيء)

ولقد جاءَ هذا اليوم.

وأخذتُ الجريدة بسرعة: لعلّ هناك.. رحتُ أقرأ الجريدة بعينيّ (هكذا تمامًا: عيناي الآن كالقلم كالحاسب اللذَين تُمسك بهما، تشعر بهما بين يديك. إنّهما شيءٌ ما غريب، إنّهما أداة.

وهناك، بخطّ عريض على امتدادِ الصفحة الأولى كلّها: «أعداءُ السعادة لا تغفل لهم عين، ولا يغمضِ لهم جفن. تشبّثوا بالسعادة بيدَيكم كِلتَيهما! غدًا تتوقّف الأعمالُ كلّها. وعلى الأرقام جميعِها أن تتقدّم للعمليّة؟ الذين يتغيّبون يعرضون أنفهسم لآلة المحسن».

غدًا! لكنْ، هل يمكن حقًّا، هل يمكن حقًّا أن يكون هناك غدٌ ما؟

وبحكم العطالة اليومية مددت يدي (الأداة) إلى رفّ الكتب، وضعت جريدة اليوم إلى جانب الجرائد الأخرى في غلاف مُوشًّى بالذهب، قائلًا في نفسي: «علام؟ أليس الأمر سِيّان؟ فأنا إلى هنا، إلى هذه الغرفة لن .. أبدًا ..».

وسقطت الجريدة من يديّ أرضًا. وقفت، وأخذت أتفحّص من حولي الغرفة كلّها، كلّها، كلّها، وأجمع وأحشو بشكل محموم في حقيبة غير مرئيّة كلّ ما آسف على تركه هنا. الطاولة، الكتب، الأريكة. على الأريكة جلست آنذاك «م»، وأنا أمامها على الأرض .. السرير ..

ثم لبثتُ دقيقة، دقيقتين، أنتظر بسُخف معجزة ما، لعلّ جرس الهاتف يرنّ، لعلّها تقول لي إنّ .. لا. لم تحدثْ معجزة..

وخرجتُ إلى المجهول. هذه هي سطوري الأخيرة. الوداع، الوداع أنتم أيّها المجهولون، أنتم أيّها الأحبّاء الذين عشتُ معهم طوال هذا العدد من الصفحات، الذين كشفت لهم، أنا المصاب بمرض النفس، ذاتي كلّها حتى آخر بزال مطحون فيها، حتى آخر نابض انفجر ..

إنّي ماضٍ.

*****

المذكّرة الرابعة والثلاثون

الملخّص:

المعتقون. الليل المشمس. راديو «فالكيريا»[1]

لو أنّي حطّمتُ نفسي والآخرين كلّهم شظايا، لو أنّي وجدتُ نفسي فعلًا إلى جانبها معًا في مكانٍ ما خارج السور بين الوحوش المكشّرة عن أنيابها الصفر، لو أنّي لم أعدْ إلى هنا أبدًا، لكان هذا أسهل ألفَ مرّة، مليونَ مرّة. والآن ما العمل؟ أذهب وأخنق هذه .. لكن هل ينفعُ هذا في شيء؟

لا، لا، لا! تمالكْ نفسَك يا «د -503». ثبّتْ نفسَك على محورٍ منطقيٍ متينٍ، واضغطْ، ولو فترةً قصيرةً بقواك كلّها على العتلة، كالعبدِ القديمِ، وأدر رحى القياسات المنطقية إلى أن تسجّل وتتبيّن كلَّ ما جرى.

حين صعدتُ إلى «التكامل» كانوا جميعًا قد حضروا، كانوا جميعًا في أماكنهم، خلايا القفير الزجاجيّ الهائل كلّها كانت ممتلئة. ومن زجاج سطح المنطاد، لاح أسفل - قرب التلغراف والدينامو والمحوّلات وأجهزة قياس الارتفاع والصمّامات والأسهم والمحرّكات والمضخّات

---

(١) الفالكيريا في الأساطير الإسكندنافية هي الفتاة المقاتلة، كانت تحسم، هي ومثيلاتها المقاتلات، مصير المعركة بإرادة الإله «أودين». ثم يأخذن أشجع المقاتلين الذين سقطوا في المعركة إلى قصر الإله: «أودين» ليتابعوا بعد ذلك حياتهم البطوليّة (المترجم).

والأنابيب - أناسٌ صغارٌ كالنمل. وفي جناح القيادة، أشخاص منكبّون على لوائح وأدوات. يبدو أنّهم المندوبون، المندوبون من قِبَلِ المكتب العلمي، وإلى جانبهم الباني الثاني مع مساعديه.

رؤوسُ الثلاثة جميعُها غارقة بين أكتافهم كالسلاحف، ووجوهُهم رمادية، خريفية، بلا أشعّة.

-كيف الحال؟ - سألت.

-هكذا.. صعب إلى حدّ ما. -ابتسم أحدُهم ابتسامةً رماديةً، من دون شعاع. -قد نضطرّ إلى الهبوط في أيّ مكان، عمومًا لا ندري ..

شعرتُ بضيق لا يُطاق وأنا أنظرُ إليهم، إلى هؤلاء الذين سأخرجهم بيديّ هاتين بعد ساعة، وإلى الأبد، من الأرقام المريحة للوح الساعة، وأنتزعهم إلى الأبد من صدر الدولة الواحدة أمّهم، لقد ذكّروني بالشخصيّات المأساوية لقصّة «المُجازون الثلاثة»، تلك القصّة التي يعرفها أيُّ تلميذ عندنا. إنّها قصّة أرقام أعفوا من العمل مدّة شهر على سبيل التجربة: افعل ما تشاء، اذهب حيث تشاء[1]! أخذ المساكين يتسكّعون قرب مكان عملهم المعتاد، ويختلسون النظرَ بعيونٍ جائعةٍ إلى داخله، كانوا يتوقّفون في الساحات، ويقومون ساعات كاملة بالحركات نفسها التي صارت بالنسبة إليهم في أوقات محدّدة حاجةً عضويّةً! كانوا ينشرون الهواء ويسحجونه، وبمطارق غير مرئيّة يهوون على سبائك غير حديدية، غير مرئية، ويقعقعون. وأخيرًا، في اليوم العاشر لم يعودوا يطيقون صبرًا، فأمسك بعضُهم بأيدي بعض، وغاصوا في الماء على أنغام المارش، وما زالوا يغوصون إلى أن وضع الماء حدًّا لعذابهم..

---

(١) حدث هذا منذ فترة طويلة، في القرن الثالث بعد اللوح.

أكرّر: صَعْبٌ عليّ أن أنظر إليهم، فحثثتُ الخُطى مغادرًا.

-ألقي نظرةً على غرفة الآلات، - قلتُ، - وأمضي!

سُئلت عن شيءٍ ما - أيّ فولتاج يعتمدون لدى انفجار الإطلاق، وكم يجبُ أن يكون ثقل الموازنة المائي في صهريج المؤخّرة؟ كان فيَّ نوع من الحاكي، وكان هذا يردّ على الأسئلة كلّها بسرعة ودقّة، أمّا أنا، فكنتُ باستمرار مستغرقًا في داخلي، مفكّرًا في أمري.

فجأة، في الممرّ الضيّق، أصابني شيءٌ ما هنا، في داخلي، ومن هذه اللحظة، في الواقع، بدأ كلّ شيء.

في الممرّ الضيّق، كانت تلوحُ إلى جانبي ملابس ووجوهٌ رماديّة. وفي ثانيةٍ لاح بينها وجه: شعر مائل إلى أسفل، وعينان عابستان، إنّه هو نفسُه. وأدركتُ أنّهم هنا، لا مناصَ لي من هذا كلّه أبدًا،لم يبق لي إلّا دقائق وحسب، بضعُ عشرات من الدقائق.. سرت رعشة خفيفة، خفيفة جدًّا في جسمي كلّه (ولم تنقطع حتى النهاية) كأنّما رُكّب فيَّ محرّكٌ ضخم، وأنا بناءُ جسمي كلّه خفيف أكثر ممّا ينبغي له، فالجدران والحواجز والكوابل والعوارض والأنوار، كلّها ترتعشُ وتهتزّ.

إنّي لا أعرف حتى اللحظة إن كانت هنا. لكن، ما عاد لديّ متّسع من الوقتِ الآن، فقد أرسلوا في طلبي لأُسرع إلى فوق، إلى حجرة الربّان: آن أوان الانطلاق.. لكن، إلى أين؟

وجوهٌ رماديّةٌ من دون أشعّة. عروق زرق متوتّرة في الأسفل، على الماء. طبقات من السماء ثقيلة حديدية. وأشعر بثقل كبير في رفع يدي والإمساك بسمّاعة هاتف القيادة.

-إلى فوق -45 درجة.

انفجار أصمّ -رجّة -جبل ماءٍ أخضر فاتح مسعور في المؤخّرة، ومقدّمة «التكامل» تغوص تحت الأقدام ناعمةً مطّاطيةً، فكلّ شيء باقٍ في الأسفل، الحياة كلّها باقيةٌ هناك إلى الأبد..كنّا نهوي أعمق فأعمق في فوّهة قُمع، وكلّ شيء حولنا يضيق، بلمحة، بانَ مخطّطُ المدينة الجليدي الأزرق البارز، وفُقاعات القباب المدوّرةُ، والإصبعُ الرصاصيُ الوحيدُ لبرج المكثّفات. ثمّ، إذا نحن بستار قطني من الغيوم. اخترقنا الستار في لحظة فإذا نحن بالشمس، بالسماء الزرقاء. ثوان، دقائق، أميال، الأزرق يتصلّب بسرعة، يتّشح بالظلام، فالنجوم كقطرات العرق الفضّي البارد.

هو ذا الليل المشمس، المنجّم، الأسود، الساطع بشكل لا يُطاق، الفظيع. كما لو أنّك أصبت بالصمم بغتة. إنّك لا تزال ترى أنّ الأبواق تزعق، لكنّك تراها وحسب: الأبواق خرست، والصمت ساد. هكذا كانت الشمسُ خرساء.

كان هذا أمرًا طبيعيًّا، كان هذا ما يجب أن نتوقّعه، فقد خرجنا من المحيط الجوّي للأرض. لكنّ ذلك كلّه حدث بسرعة، وعلى حين غِرّة، حتى أنّهم جميعًا وجلوا وسكنوا. أمّا أنا، فقد بدا لي أنّه أيسر عليّ أن أكون تحت هذه الشمس الخرساء العجيبة: كأنّي تكوّمتُ على نفسي للمرّة الأخيرة، واجتزت عتبةً لا مفرّ منها، فجسمي كلّه في مكان ما هناك في الأسفل، أمّا أنا، فمنطلق في عالم جديد، حيث كلّ شيءٍ يجبُ أن يكون مختلفًا، مقلوبًا.

-واصِلوا السير هكذا.. صحتُ في الآلة، أو بالأحرى، لست أنا الذي صاح، بل ذاك الحاكي فيّ، ودسّ الحاكي بيد آلية ذات مفصليّات سمّاعة القيادة إلى الباني الثاني. أمّا أنا، المكسوّ كلّي برعشة طفيفة، طفيفة جدًّا مسموعة لي وحدي، فقد هرعت إلى الأسفل أبحث عن..

باب جناح القيادة هو نفسه: بعد ساعة سيئزُّ بتثاقل وينغلق.. عند الباب شخص ما غريب، ذو وجه كوجوه المئات، الآلاف، ضائع في وسط الجمهور، قصير القامة لكنّ يدَيه وحدهما طويلتان حتى الركبتَين، شكلهما غير اعتيادي كأنّهما أُخذتا على عجل من تشكيلة إنسانية أخرى خطأً.

امتدّت اليد الطويلة، سدّت الطريق:

-إلى أين؟

واضح لي أنّه لا يعرف أنّي أعرف كلّ شيء. فليكن: ربّما هذا ما يجبُ أن يكون. وأنا من علٍ بصوتٍ تعمّدتُه حادًّا:

-أنا باني «التكامل». وأنا الذي أتولّى أمرَ التجارب. مفهوم؟

اختفت اليد.

جناح القيادة. فوق الأدوات والخرائط رؤوس محدّدة بشعر خشن قصير رمادي، ورؤوس صفر، صلع، ناضجة، وبنظرة واحدة ضممتهم كلّهم بسرعة في حفنة، وعدت أدراجي عبر الممرّ فالسلّم إلى أسفل، إلى غرفة الآلات. هنا حرارة مرتفعة وقرقعة وضجيج تُصدرُه الأنابيب المحمرّة من الانفجارات، وأذرع التدوير تلمع في رقصةٍ مخيفةٍ نشوى، والعقارب على الموانئ ترتعش ارتعاشاتٍ متّصلة، لا تكادُ تُلحظ.

وها هو ذا، أخيرًا، قرب عدّاد الدورات، ذو الجبين المنحني فوق دفتر المذكّرات..

-اسمع .. (بسبب القرقعة، يجب أن تصرخ في أذنه).

أهي هنا؟ أين؟

في الظلّ متجهّمًا ثمّ مبتسمًا: -هي؟ هناك، في حجرة الهاتف اللاسلكي..

اندفعت إلى هناك. وكنّ هناك ثلاثًا، كلّهن في خوذات استماع مجنّحة. وكانت هي كأنّما أطول ممّا عليه عادةً، مجنّحةً متلألئةً مرفرفة كالفالكيريات القديمة، وكأنّ الشرارات الزرق الضخمة فوق، على رأس اللاسلكي تنبعث منها، كما تنبعث منها، من هنا، هذه الرائحة الخفيفة البرقية الأوزونية.

-أيّة واحدة منكنّ .. ولتكن أنتِ، -قلتُ لها وأنا ألهث (من الجري)، -يجب أن أبثّ شيئًا ما إلى أسفل، إلى الأرض، إلى العنبر .. هيّا بنا، سأملي عليكِ..

إلى جانب الحجرة غرفةٌ صغيرة كالصندوق. جلست جانبي على طاولة. بحثت عن يدها وضغطت عليها بشدّة.

-وماذا؟ ما الذي سيحدث؟

-لا أعرف. أتفهم روعةَ أن تطيرَ وأنت لا تعرف إلى أين، المهمّ أن تطير .. عمّا قريب الثانية عشرة، لا نعرف ما الذي سيكون؟ والليل .. أين سنكون معًا في الليل؟ ربّما على العشب، على الأوراق اليابسة.

منها تنطلقُ شرارات زرق، وتفوح رائحةُ البرق، والارتعاش في داخلي يزداد تواترًا.

- سجّلي .. قلت لها بصوتٍ عالٍ وأنا لا أزال ألهث (من الجري):

- الوقت الحادية عشرة وثلاثون دقيقة، السرعة ستّة آلاف وثمانمئة..

أجابت بصوت خافت من تحت الخوذة المجنّحة، من دون أن ترفع عينَها عن الورقة:

-البارحة مساءً أتت إليّ ورسالتك معها .. أعرف، أعرف كلّ شيء، لا تقلْ شيئًا. لكنّ الولد أليس ولدك؟ ولقد بعثت بها مع بعضهم، إنّها الآن هناك، خارج السور، ولسوف تعيش ...

من جديدٍ، أنا في حجرة القيادة. من جديدٍ، الليل الهذياني بسمائه السوداء المنجّمة وشمسه الباهرة؛ وعلى الجدار عقرب الساعة يعرجُ وينتقلُ ببطء من دقيقةٍ إلى أخرى؛ وكلّ شيء، كما في الضباب، تغشاه رعشةٌ رقيقةٌ جدًّا لا يكادُ يلحظُها أحدٌ (غيري).

ولسببٍ ما، بدا لي أنّه من الأفضل عدم حدوث هذا كلّه هنا، بل في مكانٍ ما تحتَ، أقرب إلى الأرض.

-قف، - صرختُ في الآلة.

«التكامل» ممعنٌ في اندفاعه أمامًا بفعل العطالة، إنّما في سرعةٍ متناقصةٍ باستمرار. لكن، ها هو قد اصطدم بشعرةٍ لمدّة ثانية، فتعلّق في الهواء لحظةً من دون حراك ثم انفجرت الشعرة وراح «التكامل» يهوي كالحجر إلى أسفل، بسرعةٍ أكبر فأكبر. وهكذا مرّت في الصمت دقائق، عشرات الدقائق، نبضي أسمعه، والعقرب أمام عينيّ يزداد اقترابًا من الثانية عشرة. وواضحٌ لي أنّي أنا الحجر، و»م» هي الأرض، أنّي أنا حجر رماه شخصٌ ما، وأنّ على الحجر أن يسقطَ طبعًا وأن يصطدمَ بالأرض كي يتحطّم .. وماذا لو .. - كان دخانُ الغيوم الأزرق من تحتنا قد تصلّب، - ماذا لو ..

لكن الحاكي فيّ أمسك السّاعة بحركة ممفصَلة دقيقة، وأمر قائلًا:

«تحوّل إلى السرعة البطيئة» وكفَّ الحجر عن السقوط. ولم تعد تنخر في إعياءٍ إلّا الزوائد الأربع السفليّة -اثنتان في المقدّمة واثنتان في المؤخّرة كيما تشلّ وزن «التكامل»، ووقف «التكامل» في الهواء وهو يهتزّ اهتزازًا خفيفًا، إنّما في ثبات، كأنّما رُبط بمرساة، على بعد نحو كيلومتر من الأرض.

اندفعوا جميعًا إلى ظهر «التكامل» (الساعة الآن الثانية عشرة، جرس الغداء)، وانحنوا فوق حافّته العلوية الزجاجية، وأخذوا يعبّون على عجل بجرعة واحدة، عالم ما وراء السور المجهول هناك، في الأسفل. الكهرماني، الأخضر، الأزرق: غابة خريفية، مروج، بحيرة، على حافّة القصعة الزرقاء أطلال صفراء، عظمية وإصبع «م» تيبّس يلوّح متوعّدًا؛ لا بدّ من أنّه برجُ كنيسةٍ قديمةٍ سلِم بأعجوبة.

-انظروا، انظروا! هناك، إلى اليمين قليلًا!

هناك في الصحراء الخضراء كانت بقعة سريعة تنطلق كظلٍّ بنّيّ. كان المنظار في يدي، فقرّبته من عينيّ آليًا: كان قطيع من الجياد البنّيّة يرمح مغمورًا بالعشب حتى صدره ومرفرفًا بذيله، وعلى ظهور الجياد أولئك الكُماة، البيض، السودُ.

وسمعتُ من خلفي:

-وأنا أقول لك: رأيتُ .. وجهَ شخص.

-إليك عنّي! قل هذا لأحدٍ ما غيري!

-هاك، هاك المنظار.

لكنّهم كانوا قد اختفوا، ولم يبق إلا الصحراء الخضراء اللامتناهية.

وفي الصحراء سرتْ الارتعاشة النافذة للجرس، كانت تملأُ الصحراء كلّها، وتملأُني أنا كلّي، وتملأُنا جميعًا: الغداء، بعد دقيقة، الثانية عشرة.

العالم انقلب إلى حُطَم لحظيّة، غير مترابطة. على الدرجات نوط ذهبيّ مرنان. الأمر بالنسبةَ إليّ واحد: ها هو ذا النوط يطقطق تحت كعبي. وصوت: «وأنا أقول لك: رأيت .. وجهَ شخص!». ومربّع قاتم: بابُ جناح القيادة المفتوحُ. وأسنان بيض مصرورة تبتسم ابتسامة حادّة.

ولحظةَ أخذت الساعة تدقّ ببطء لا مُتناه من دون أن تأخذ نفَسًا بين دقة وأخرى، والصفوفُ الأمامية تتحرّك، تصالبتْ على مربّع الباب فجأةً اليدان الأليفتان الطويلتان بشكل غير طبيعي:

-قفوا!

انغرزت في يدي أصابع، إنّها «م»، إنّها إلى جانبي: -من هذا؟ هل تعرفه؟

-أليس هذا .. أليس .. ؟؟

إنّه الآن على الأكتاف. فوق مئاتِ الوجوه، كان وجهُه الذي يشبه مئات آلاف الوجوه والفريد بينها كلّها:

-باسم الحرّاس .. لكم، أنتم الذين أوجّه كلامي إليكم، إنّكم تسمعونني، كلُّ واحد منكم يسمعني، لكم أقول: إنّنا نعرف. إنّنا لا نعرف أرقامكم حتى الآن، لكنّنا نعرف كلّ شيء. «التكامل» لن يكون لكم. التجربة ستستمر حتى نهايتها. وأنتم لن تجرؤوا الآن على تحريكِ ساكن، أنتم الآن ستفعلون هذا بأيديكم، وفيما بعد .. لقد انتهيتُ على

أيّة حال ..

صمتٌ. البلاطات الزجاجيّة تحت قدميّ رخوة، قطنيّة، وقدماي رخوتان قطنيّتان، ابتسامة التي إلى جانبي بيضاء تمامًا، وشررُ عينيها أزرق مسعور. ومن بين أسنانها همستْ في أذني:

-هذا إذنْ أنت؟ أنت الذي «أدّيت واجبك» إذن! لا بأس ..

انسحبتْ يدها من يديّ بعنف، صارت الخوذة الفالكيرية المجنّحة الغاضبة في مكان ما بعيد في المقدّمة. وأنا وحدي، أسيرُ مثلهم جميعًا، جامدًا صامتًا إلى جناح القيادة..

- «لكنْ لستُ أنا، لستُ أنا! لم أتحدّث إلى أحد في هذا الأمر، إلّا إلى هذه الصفحات البيض الخرس .. ».

كنت أصرخ في وجهها بهذا في داخلي بصوت غير مسموع، يائس، عالٍ. كانت تجلس قُبالتي، تفصلُ بيننا طاولة، من دون أن تلمسني حتى مرّةً واحدة بعينيها، وإلى جانبِها صلعةٌ صفراءُ ناضجة. وسمعتُ (كانت «م» التي تتكلّم): -«كرم المحتدّ»؟ لكن، يا بروفيسّوري العزيز، حتى التحليل اللغوي البسيط لهذه العبارة يبيّن أنها وهمٌ، راسب من رواسب العصور القديمة، الإقطاعية. أمّا نحن ...

شعرتُ أنّي أشحب، وأنّهم جميعًا سيرون هذا من الفور، .. لكنّ الحاكي في داخلي أكمل الخمسين حركة مضغ المقرّرة لكلّ قطعة، وانغلقتُ على نفسي كما في بيت قديم غير شفاف، وسددت الباب بالحجارة، وأسدلت الستائر على النوافذ.

ثمّ بين يديّ سمّاعةُ القيادة، وبعدها طيرانٌ في كآبة جليديّة أخيرة إلى ليل جليديّ، مشمس منجّم، يبدو كان هناك في داخلي محرّكٌ منطقي

يعمل طَوال الوقت بشكل محموم بأقصى قوّته، لأنّه بدا لي فجأة في نقطةٍ من الفضاء الأزرق مكتبي، وفوقه خدّا «خ» الغلصميّان، والصفحة المنسيّةُ من مذكّراتي. وصار واضحًا لي أنّه لا أحد غيرها، اتّضح لي كلّ شيء..

آه، لو أصل، لو أصل فقط إلى اللاسلكي.. الخوذ المجنّحة، رائحة البروق الزرق.. أذكر أنّي قلت لها أمرًا بصوتٍ عالٍ، أذكر أنّها قالت لي من بعيدٍ وهي تنظرُ خلالي وكأنّي مِن زجاج:

-مشغولة. استقبل من تحتُ. أملِ على .. هذه ..

في الحجرة الصغيرة، فكّرتُ دقيقةً ثم أمليتُ بصوتٍ ثابتٍ: الوقتُ هو الرابعة عشرة وأربعون دقيقة. الهبوط. أوقفوا المحرّكات. انتهى كلّ شيء.

حجرة القيادة. قلبُ «التكامل» الآليُّ توقّف. إنّنا نهبط، وقلبي لا يستطيع أن يجاريَه في الهبوط، إنّه يتخلّف، يصعد شيئًا فشيئًا إلى حلقي. سحبٌ، ثم في البعيد بقعة خضراء، وتزداد البقعة اخضرارًا ووضوحًا. تندفعُ نحوَنا كالتيّار. الآن جاءت النهاية ..

وجهُ الباني الثاني الخزفي الأبيض المشوّه. يبدو أنّه هو مَن دفعني بقوّته كلّها، فارتطمَ رأسي بشيءٍ ما، وسمعتُ بشكل ضبابيّ وأنا أربد وأسقط:

-شغّلوا المحرّكاتِ الخلفيةَ بأقصى قوّتها!

وثبةٌ عنيفةٌ إلى أعلى..، ولم أعدْ أذكرُ شيئًا.

المذكّرة الخامسة والثلاثون

الملخّص:

في الطوق. الجزرة. القتل.

طَوال الليل لم أنم. طَوال الليل أفكّر في شيءٍ واحد ...

رأسي بعد أحداث الأمس كأنّه مربوطٌ بضمّادات. لا، إنّها ليست ضمّادات بل طوق. طوقٌ لا يرحم، من زجاجٍ مشدودٍ على رأسي. وأنا في الدائرةِ المغلقةِ نفسها: يجب أن أقتلَ «خ». أقتل «خ» ثمّ أمضي إلى تلك وأقول لها: «أتصدّقين الآن؟». أكرهُ ما في الأمر أنّ القتل شيءٌ قذر، قديم، تهشيم رأس شخصٍ ما يثيرُ إحساسًا غريبًا بشيءٍ ما لذيذٍ إلى حدٍّ مقرفٍ في الفم، وأنا لا أستطيع أن أبلع ريقي، بل أبصقه طَوال الوقت في المنديل، أشعر بجفافٍ في الفم.

كانت في خزانتي قطعةٌ ثقيلةٌ من مكبسٍ انفجرت بعد الصبّ (كنت أريدُ أن أعاينَ بنية سطح الكسر تحت المجهر). لففت مذكّراتي على شكلِ أنبوب (فلتقرأني كلّي حتى آخر حرف) ودسستُها داخلَ قطعة المكبَس، ومضيتُ إلى أسفل. السلّم لا نهاية له، والدرجات زلقةٌ متباعدةٌ، وأنا طَوال الوقت أمسح فمي بالمنديل.

صرتُ في الأسفل. دوّي قلبي. توقّفت. سحبتُ المكبس وإلى طاولة المراقبة ..

لكنّ «خ» لم تكن هناك، بل كان هناك وحسب لوحٌ جليديٌّ، فارغ.

وتذكّرت: هذا اليوم، الأعمال ملغاة كلُّها. عليكم جميعًا الحضور إلى العمليّة. مفهوم: لا معنى لوجودها، فليس هناك من تسجّله اليوم.

صرتُ في الشارع. ريحٌ، السماء من بلاطاتٍ حديديةٍ مندفعة. وكما كانت الحالُ في لحظةٍ ما من لحظاتٍ أمس، كان العالم كلّه تحطّم قطعًا متفرّقة، حادّة، مستقلّة، وكانت كلٌّ منها تتوقّف لثانيةٍ في سقوطها، وتقف معلّقةً في الهواء ثم تتبخّرُ من دون أن تتركَ أثرًا.

كما لو أنّ الحروفَ السودَ، الدقيقةَ التي في هذه الصفحة تحرّكت من مكانِها فجأةً، وراحٍ كلٌّ منها يعدو مذعورًا إلى مكانٍ ما، فلا يبقى من هذه الحروف كلمةٌ واحدة، بل شيءٌ لا معنى له. هكذا تمامًا كان الجمهورُ في الشارع مبعثرًا، غير منتظم في صفوف، يروح ويجيء إلى الأمام، إلى الخلف، بالعرض بالورْب.

لم يعد هناك أحد. لثانيةٍ تجمّد كلُّ شيءٍ في اندفاعه: ها، هناك، في الطابق الثاني، في غرفةٍ زجاجيّةٍ معلّقة في الهواء، رجلٌ وامرأةٌ غارقان في قبلةٍ وقوفًا، المرأة مرتدّة إلى الوراء بجسمها المتقصّف كلّه، وهذا إلى الأبد، هذا لآخر مرّة ..

وفي زاويةٍ ما، شُجيرةٌ شائكةٌ متحرّكةٌ من الرؤوس. وفوق الرؤوس، وحدها في الجوّ رايةٌ، كلمات: «تسقط الآلات! تسقط العملية!». وبشكل مستقلّ (مستقلّ عن ذاتي) كنت أقف وأنا أفكّر لثانية: «أمن المعقول أن يكونَ في كلّ واحد منّا مثل هذا الوجع الذي لا يمكنُه أن يلفظَه من داخله إلّا وقلبُه ملفوظٌ معه؟ وأن يكونَ على كلٍّ منّا أن يفعلَ شيئًا ما قبل أن ..». ولثانية، لم يعد في هذا العالم كلّه إلّا يدُ حيوان (يدي) تمسك الصرّة الحديدية الثقيلة ..

هناك الآن صبيٌّ صغير، يندفع بقوّته كلّها إلى الأمام. شفته السفلى

مقلوبةٌ كطرف كُمّ مرفوع، ووجهُه مقلوب كلّه. إنّه يبكي بكاء عاليًا، وهو ينطلق بقوّته كلّها هاربًا من شخصٍ ما، ووراءه دبيب.

ندّ عن الصبيّ: «نعم، يجب أن تكون «خ» الآن في المدرسة، يجب الإسراع». وهرعت إلى أقرب محطّة نفق.

في الباب، صاح أحدُهم وهو يسرعُ راكضًا:

-لا تشتغل، القطارات لا تشتغل اليوم. هناك..

هبطت، كان هناك هذيانٌ كامل. بريقُ شموسٍ بلّوريةٍ مضلّعة، ورصيفُ المحطّة مدكوك بالرؤوس بكثافة، وقطارٌ فارغ، جامد.

وفي الصمتِ صوت. إنّي لا أراها، لكنّي أعرف، أعرفُ هذا الصوت اللدن المرن السائط كالسوط، وفي مكانٍ ما، مثلّث الحاجبين الحادّ المشدود إلى الصدغين. صحت:

-دعوني! دعوني أذهب إلى هناك! يجب عليّ ..

لكنّ كمّاشةً أمسكت بي من يدي، من كتفي. وفي السكون صوت:

- .. لا، أسرعوا إلى فوق! هناك سيعالجونكم. هناك سيطعمونكم حتى التخمة سعادةً فاخرةً، وبعد أن تشبعوا ستنامون بهدوء، بانتظام وتشخرون في إيقاع واحد -أولًا تسمعون سمفونيّة الشخير العظيمة هذه؟ إنّكم مضحكون: يريدون أن يخلّصوكم من علاماتِ الاستفهام الملتوية كالديدان، القاضمةِ كالديدان، وأنتم تقفون هنا تستمعون إليّ، هيّا بسرعة إلى فوق، إلى العملية العظمى! ما شأنكم إن بقيت هنا وحيدة؟ ما شأنكم إن كنتُ لا أريد أن يريدَ الآخرون نيابةً عنّي؟ بل أريد أن أريد بنفسي، إنْ كنت أريدُ المستحيل ..

صوتٌ آخر بطيء، ثقيل:

-آه، المستحيل؟ هذا معناه: طاردي خيالاتك الحمقاء، ولتبصبص أمام عينيك بذنبها؟ لا نحن مع الذنب، والذنب الذي نطويه تحتنا، ثمّ ..

-ثم تنفزرون وتشخرون، فما حاجتكم إلى ذنب جديد أمام عيونكم. يقال: إنّه كان عند الأقدمين حيوانٌ اسمه الحمار. وكيما يجعلوه يسير إلى الأمام، دائمًا إلى الأمام، كانوا يعلّقون على عريشِ العربةِ أمام وجهِه جزرةٌ بحيث لا يمكنُه أن يطالها. فإن طالها انفزر ..

فجأة أطلقتني الكمّاشة، فرُحت مرتميًا في الوسط حيث كانت تتكلّم. وفي اللحظة ذاتِها، انهال كلّ شيء، تدافع ومن الخلف صرخة: «ها هم قادمون، قادمون إلى هنا!» ارتعش الضوء وانطفأ -أحدهم قطع السلك -وتيّارٌ جارفٌ، زعيقٌ، نشيجٌ، رؤوسٌ، أصابع.

لا أدري كم من الوقت بقينا نتدحرج هكذا في النفق. وأخيرًا: درجات -غبش -ثمّ إذا بالنور يشتدّ شيئًا فشيئًا، فإذا نحن في الشارع من جديد، ننتشر على شكل مروحةٍ في اتّجاهاتٍ مختلفةٍ.

وعدت وحدي. ريح، عتمةُ شفق رمادية فوق رأسي تمامًا، على زجاج الرصيف الرطب وعلى عمق كبير منه أنوار، جدران مقلوبة، هيئات بشريّة تتحرّك وأقدامها إلى فوق، والصرّة الثقيلة بشكلٍ غير معقولٍ في يدي تشدّني إلى الأعماق، إلى القاع.

مرّة أخرى لم تكن «خ» موجودةً في الأسفل خلف الطاولة، فغرفتُها خاليةٌ مظلمةٌ.

صعدت إلى غرفتي، أَنَرْتُ المصباح. الصدغان المشدودان إلى

الطَوْفِ بقوّةٍ كانا يدقّان، وكنتُ أروح وأجيءُ مُسمّرًا في الدائرة المغلقة ذاتِها: الطاولة، على الطاولة، الصرّة البيضاء، السرير، الباب، الطاولة الصرّة البيضاء.. في الغرفةِ جهة اليسار: الستائرُ مسدلة. وفي الغرفة جهة اليمين: صلعةٌ كوزيّة وجبينٌ كأنّه قطع مكافئ أصفر هائل، الغضون على الجبين، صفّ سطور صفر غير مفهومة. أحيانًا تلتقي عيوننا، عندها أشعر أنّ هذه السطور الصفر فيّ.

.. حدث هذا في الساعة 21 تمامًا. أتت «خ» بنفسها. لم يبق في الذاكرة بوضوحٍ إلّا شيءٌ واحد: كنت أتنفّسُ بصوتٍ عالٍ حتى أنّي كنت أسمع كيفَ أتنفّس، وكنت أريد أن أتنفّس بصوتٍ أخفت لكنْ عبثًا، لم أستطع.

جلست، سوّت لباسها على ركبتيها. خفق الغلصمان البنّيّان الضاربان إلى اللونِ الورديّ.

-آه أيّها العزيز، هذا إذن صحيح أنّك جُرحتَ؟ ما إن عرفت حتى أسرعت ..

قطعةُ الحديد أمامي على الطاولة. هببت، وصوتُ تنفُّسي يعلو ويعلو! سمعتْ، توقّفتْ من دون أن تكمل كلامها، ولسببٍ ما، نهضَتْ هي كذلك. كنت أرى الآن هذا المكان على الرأس، وفي فمي طعمٌ لذيذٌ بشكل مقرف .. المنديل، لكن لا منديلَ معي، فبصقتُ على الأرض.

ذاك الذي وراء الجدار عن يميننا، ذو الغضون الصفر المبدية اهتمامًا بي، يجب ألّا يرى. سيكونُ الأمرُ أكرهُ إذا شاهد .. ضغطتُ الزرّ (وليكنْ، ليس لي حقّ في هذا، لكن أليس الأمر سِيّان الآن؟) وسقطت الستائر.

الظاهر أنّها شعرتْ، أدركتْ، فاندفعت إلى الباب لكنّي سبقتها إليه، وتقدّمت منها وأنا أتنفّس عاليًا، من دون أن أرفع ولو ثانيةً عينيّ عن هذا المكان على رأسها..

-أنتَ.. أنتَ جُننت! لن تجرؤ ..، - قالت، وهي تتراجعُ إلى الوراء، وتجلس، بل الأحرى، تسقط على السرير، وتدسّ، وهي ترتعد، يديها المعقودتي الراحتين بين ركبتيها. مددتُ يدي إلى الطاولة ببطء، وأنا أنبضُ كاللولبِ من دون أن أكفّ عن تسمير عينيّ فيها -كانت يدي وحدَها التي تتحرّك -تناولت قطعة الحديد.

-أتوسّل إليك! يومًا، يومًا واحدًا وحسب، غدًا، غدًا حتمًا سأذهب، وأفعل كلّ شيء..

عمّ تراها تتحدّث؟ ورفعتُ يدي.

أعتبرُ أنّي قتلتها. لكم الحقّ أنتم يا قرّائي المجهولين أن تدْعوني قاتلًا. أعرفُ أنّي كنت سأهوي بقطعة الحديد على رأسها، لو لم تصرخ:

-بحقّ .. بحقّ .. موافقة، الآن فورًا.

وضعت لباسَها بيدين مرتعشتين، وارتمى الجسمُ الفسيحُ الأصفرُ المتهدّل على السرير .. وهنا أدركتُ: ظنّت أنّني ما أسدلتُ الستائر .. إلّا لأنّي أريد ..

كان هذا مباغتًا وغبيًّا، فقد جعلني أنفجرُ مُقهقًا. وحالًا، انفجر اللولب الملفوف في داخلي بقوّة، ووهنت يدي وسقطت قطعة الحديد على الأرض مُحدثةً دويًّا. وهنا رأيتُ بتجربتي الخاصّة أنّ الضحك أفظع سلاح. بالضحك يمكنك أن تقتل أيَّ شيء، حتى القتلَ نفسَه.

كنت أجلس إلى الطاولة وأرسل ضحكًا يائسًا، الضحك الأخير. ولم أكن رائيًا أيّ مخرج من هذه الحالة السخيفة كلّها. ولا أدري أين سينتهي هذا كلّه لو سار سيره المعتاد، لكنْ، هنا دخل المعادلةَ، فجأةً، عنصرٌ خارجيٌ جديد: رنّ الهاتف.

انقضضتُ، أطبقت بيدي على السماعة: لعلّها هي؟ وفي السمّاعة صوتٌ غريب:

-حالًا.

خشخشةٌ لا نهاية لها، مرهقة. ومن بُعد خطواتٌ ثقيلة، وتزداد الخطوات قربًا ودويًا، تصبح حديديةً أكثر و ..

-«د - 503»؟ المحسن يكلّمك. إليّ من فورك!

-دِ نْ -السمّاعة عُلقت -دِ نْ.

كانت «خ» ما تزال مستلقيةً على السرير، عيناها مغمضتان، والغلصمان منفرجان عن ابتسامة عريضة. لململتُ ثوبَها عن الأرض، وألقيته عليها ودمدمتُ: -هيّا! بسرعة، بسرعة!

اتّكأت على مرفقها، اندلق نهداها جانبًا، استدارات عيناها، صارت كلُّها كالشمع.

-كيف؟

-هكذا. هيّا ارتدي ملابسك!

هي، منكمشةٌ كعقدة، متشبّثةٌ بثوبها بقوّة، والصوت منها متّزن: -أدرْ وجهك ..

أدرت وجهي وأسندت جبيني إلى الزجاج. على الزجاجِ الأسودِ الرطبِ، كانت ترتعش أضواء، هيئات بشرية، شرارات. لاَ: هذا أنا، هذا فيَّ.. علام دعاني إليه؟ أوَيكون عرف شيئًا عنها، عنّي، عن كلّ ما كان؟

كانت «خ» تقفُ عند الباب، وقد ارتدت ملابسها. خطوتان إليها، وشددتُ يديها كأنّي أريد أن أعتصر من يديها كلتيهما قطرةً قطرةً ما كنتُ بحاجة إليه.

-اسمعي .. اسمها، اسمها، وأنت تعرفين من أقصد، هل ذكرتِ اسمها؟ لا؟ الحقيقة وحدها -هذا ما أحتاجه، الأمر سواءً عندي الآن.. الحقيقةَ وحدها أريد..

-لا.

-لا؟ لكن لماذا ما دمت ذهبت إلى هناك وأخبرتِ..

فجأة، انقلبت شفتُها السفلى كما شفةُ الصبيّ ذاك، ومن خدّيها، وعليهما قطرات.

-لأنّي خفت إن ذكرت اسمها أن تكفّ لهذا عن محبّ.. آه، لا أقوى على ذلك، لم يكن بمقدوري أن أفعل ذلك!

-فهمتُ: إنّها الحقيقة. حقيقةٌ سخيفةٌ، مضحكةٌ، إنسانيةٌ! -فتحتُ الباب..

*****

المذكّرة السادسة والثلاثون

الملخّص:

صفحات خالية. الإله البلّوريّ. في أمّي.

وهنا شيءٌ غريبٌ، كأنّما رأسي صفحةٌ بيضاءُ خاليةٌ: كيف ذهبتُ إلى هناك، كيف انتظرتُ؟ (أعرفُ أنّي انتظرتُ)، لا أذكرُ من هذا كلّه أيَّ شيء! لا أذكر أيّ شيء! لا أذكر أيَّ صوت ولا أيَّ وجه، ولا أيّةَ حركة! كأنّما خطوطُ الاتّصال كلّها انقطعت بيني وبين العالم.

لم أفقْ إلى نفسي إلّا وأنا ماثلٌ أمامه. شعرتُ بالرعب من رفع عينيّ إليه: كلّ ما رأيتُ، يديه الحديديّتين الهائلتين على ركبتيه. وهاتان اليدان كانتا تثقلان عليه هو، وتثنيان ركبتيه. كان يحرّك أصابعه ببطء، ووجهه في مكانٍ ما فوق في الضباب. ربّما لأنّ صوته كان يتناهى إليّ من هذا العلوّ، لم يكن يقصف كالرعد، لم يصمّني، بل كان شبيهًا بصوت إنسانٍ عادي.

-هكذا إذن، أنتَ كذلك؟ أنت باني «التكامل»؟ أنت الذي أُعطيتَ أن تكون أعظم الفاتحين. أنت الذي كان يُفترض في اسمك أن يبدأ فصلًا جديدًا باهرًا في تاريخ الدولة الواحدة ..، أنت؟

تدفّق الدم إلى رأسي وخدّي. مرّةً أخرى صفحة بيضاء: فقط في الصدغين نبضات، وفي الأعلى صوتٌ مُدَوٍّ لكن من دون كلمة واحدة.

لم أفق إلى نفسي إلّا حين صمَتُّ ورأيتُ: يده التي تزن مئة بود[1] تتحرّك، تزحف ببطء وإصبعه تُوجّه إلي..

-ماذا؟ ما لك تصمت؟ هكذا أم لا؟ سفّاح؟

-هكذا، -أجبت مذعنًا. بعدها صرت أسمع كلّ كلمةٍ من كلماته بجلاء.

-وماذا؟ أتحسب أنّي أخاف هذه الكلمة؟ هل حاولت أنت في يوم أن تنزع قشرتها وتنظر إلى ما في داخلها؟ سأريك الآن. تذكّر: الرابية الزرقاء، الصليب، الجمهور. بعضهم، الذي فوق، مرشوشًا بالدم يسمّر الجسدَ على الصليب، وبعضهم الآخر، الذي في الأسفل، مرشوشًا بالدمع ينظر. لكن ألا يبدو لك أنّ عملَ أولئك الذين فوق، هو الأصعبُ والأهمّ، إذ لولاهم، ما أمكن إخراجُ هذه المأساة الجليلة كلّها. لقد قابلهم الجمهورُ الجاهلُ بالصفير. وعلى هذا تمامًا، يجب على صاحب المأساة، أن يكافئهم بسخاءٍ أكبر. وإلهُ المسيحيّين نفسُه الذي هو أرحم الآلهة، والذي يحرق في نار جهنّم البطيئة كلّ من يعصيه، أليس سفاحًا هو الآخر؟ وهل الذين أحرقهم المسيحيّون أقلّ من المسيحيين الذين أُحْرقوا؟! ومع هذا، وأفهم ما أقوله، مع هذا ظلّوا قرونًا يُسبّحون بحمد هذا الإله ويُمجّدونه على أنّه إله المحبّة. عبث! لا على العكس، إنّها شهادةٌ مكتوبةٌ بالدم على حصافة الإنسان الأصيلة. حتى في ذلك الوقت كان، هو المتوحّش الأشعر، يدرك أنّ المحبّة الحقيقيّة الجبرية للبشرية إنّما تفترض القسوة سمة ضروريّة لصدقها، كالنار سمتها اللازمة أنّها تحرق. أرِني نارًا لا تحرق! هيّا، برهن، ناقش!

كيف كان لي أن أناقش؟ كيف كان لي أن أناقش، وقد كانت هذه

---

(١) البود: وحدة وزن تساوي 16،38 كيلو غرامًا.

كذلك أفكاري (سابقًا)؟! لكنّي لم أعرف أبدًا أن أُلبسها هذا الدرع المطروق اللامع. لزمتُ الصمت ..

-إذا كان هذا يعني أنّك موافق، فهات نتكلّم كبالغين بعد أن ذهب الأطفال للنوم، تعالَ نقلْ كلّ شيء إلى النهاية. إنّي أسألك: إلام يتوق الناس، وهم مازالوا في القمط، ويحلمون به ويتألّمون في سبيله؟ يريدون أن يقول لهم أحدٌ ما، مرّة ولكلّ مرّة ما هي السعادة، ثم يسوقهم بالسلاسل إليها. وهل نفعل نحن شيئًا غير هذا؟ الحلم القديم بالجنّة. تذكّر: في الجنّة لا يعرفون الرغبة، لا يعرفون الشفقة، لا يعرفون الحبّ، هناك ملائكة، عبيد الله مغتبطون مُستأصل خيالهم (مغتبطون لأنّه استؤصل خيالُهم لا غير). ولحظة بلغنا هذا الحلم، لحظة أمسكنا به هكذا (انقبضت يده، ولو أنّ فيها حجرًا لانبجسَ منه عصير)، لحظة، لم يبقَ لنا إلّا أن نسلخَ الطريدة ونقسمها قطعًا، في هذه اللحظة أنت، أنت.

الدويّ الحديدي انقطع بغتة. وأنا كلّي أحمر كسبيكة حديد على سندانٍ تحت المطرقة. المطرقة معلّقة فوقك بصمت، والانتظار أرعب.

فجأة: كم عمرك؟

-اثنتان وثلاثون.

-أنتِ في سذاجة ابن ستّة عشر عامًا مضاعفةً: اسمع. ألم يخطرْ ببالك حقًّا ولو مرّة واحدة أنّهم، ونحن لا نعرف إلى الآن أسماءهم، لكنّنا سنعرفها منك، وأنا على يقين من ذلك، بحاجة إليك بوصفِك باني «التكامل» فقط كي يتمكّنوا من خلالك ..

صرخت: لا داعي! لا داعي .. كما لو أنّك تغطّي وجهك بيديك وتصرخ «لا داعي» في وجه الرصاصة: إنّك لا تزال تسمع صرختك

المضحكة هذه «لا داعي»، في حين تكون الرصاصة قد اخترقتك، فأنت على الأرض متكوّمًا تتلوّى.

أجل، أجل، باني «التكامل»، أجل، أجل، وفورًا، وجه «خ» المغيظ ذو الغصلمين الأحمرين القرميديين المرتعشين في ذلك الصباح عندما كان كلتاهما في غرفتي.

أذكر جليًّا أنّي ضحكت، ورفعت عينيّ. كان يجلسُ أمامي إنسانٌ ذو صلعة كصلعة «سقراط»، وعلى الصلعة حُبيباتٌ من عرق. ما أبسط هذا كلّه! كم هو تافه وجليل! كم هو بسيطٌ حتى الإضحاك!

كان الضحكُ يخنقني، يفلتُ منّي حلقات. سددتُ فمي براحتي، واندفعتُ مسرعًا نحو الخارج.

درجات، ريح، شظايا رطبة متواثبة من أنوار، ووجوه، راكضًا أردّد في داخلي: «لا، يجب أن أراها! أن أراها ولو مرّة واحدة وحسب!».

وهنا صفحةٌ خاليةٌ بيضاءُ من جديد. ما أذكر غير الأرجل، ليس الناس، بل الأرجل تحديدًا. أرجلٌ تدبّ دبيبًا لا انسجام فيه، مئات الأرجل تسقط من مكانٍ ما في الأعلى على قارعة الطريق، وابل ثقيل من الأرجل، وأغنية مرحة لعوب وصرخة. لابدّ من أنّها موجّهة إليّ: (إي، إي إلى هنا، إلينا!).

ثم ساحة خالية مترعة بريح متوتّرة، وفي وسطها كتلة باهتة ثقيلة مخيفة: آلةُ المحسن. وكأنّما ينبعثُ منها فيّ صدى مباغت: وسادة ناصعة البياض، وعلى الوسادة، رأسٌ ذو عينين نصف مغمضتين، ملقًى إلى الخلف، وصفٌّ حادٌّ شهيّ من الأسنان .. وهذا كلّه مرتبط بشكل سخيف، مريع بالآلة -وإنّي لأعرف كيف، لكنّي لا أريد بعدُ أن أرى،

أن أذكر بصوت مسموع، لا أريد، لا داعي.

أغمضتُ عيني، وأقعيت على الدرجات المؤدّية إلى الأعلى، إلى الآلة. لابدّ من أنّ المطرَ كان يهطل، فقد كان وجهي مبلّلًا. وفي مكان ما بعيد صرخات مخنوقة. لكن لا أحد يسمع، لا أحد يسمع كيف أصرخ: أنقذوني من هذا، أنقذوني!

لو كان لي كما للأقدمين أمّ، أمّي أنا من دون غيري تحديدًا، وأن لا أكون أنا بالنسبة إليها باني «التكامل» والرقم «د -503»، وأحد جُزيئات الدولة الواحدة، بل قطعة إنسانيّة بسيطة، قطعة من ذاتها هي، قطعةً مداسة مسحوقة مرميّة، حتى تسمعَ سواءً كنت أنا الذي أَصْلِبُ أو أُصْلب، هذا شيءٌ واحدٌ، ما لا يسمعه أحد، حتى تنحني شفتاها العجوزان المطمورتان بالتجاعيد.

*****

المذكّرة السابعة والثلاثون

الملخّص:

النقاعيّات. يوم القيامة. غرفتها.

جاري الذي يجلسُ عن يساري صباحَ اليوم في المطعم، همسَ يقول لي مذعورًا:

-هلّا أكلت! إنّهم ينظرون إليك!

استجمعتُ قواي كلّها وابتسمتُ. شعرتُ كأنّما تشكّل صدعٌ في وجهي: ورحتُ أُمعنُ في الابتسام، فيُمعن شقّا الصدع تباعدًا، ويتعاظمُ ألمي بسبب ذلك.

ثمّ حدثَ ما يلي: ما كدتُ أمسكُ قطعةً مكعّبةً بالشوكة حتى اهتزّت الشوكةُ في يدي، وسقطت على الصحن في رنين، واهتزّت الطاولات، الجدران، أدوات المطبخ، الهواء، ورنّت. في الخارج. ارتفع لغطٌ دائريٌّ مبهمٌ حديديٌّ ضخمٌ يطاولُ السماء، تمطّى عبر الرؤوس، عبر البيوت ثم سكن في البعيد مخلّفًا دوائر ضئيلة لا تكاد تُلحظ، كما الدوائرُ على صفحة الماء.

رأيتُ الوجوه وقد بهَتَ لونُها وزال في لحظةٍ، والأفواهَ تتوقّف، وهي في أوْجِ عملها، والملاعقَ تتجمّدُ في الهواء.

اختلطَ كلُّ شيء، خرجَ عن صراطه الأبدي، وثب جميعُهم من

أماكنهم (من دون أن ينشدوا النشيد)، راحوا ممسكين ببعضٍ كيفما اتّفق لهم من دون انسجام، وهم يكملون مضغَ ما في أفواههم ويشرقون به: «ماذا؟ ماذا حدث؟ ماذا؟». القطع غير المنتظمة للآلة التي كانت في يوم عظيمةً متماسكةً منظّمةً، انهالت كلّها صوب الأسفل، إلى المصاعد، وعلى السلّم وعلى الدرجات دبيب، مقاطع كلمات، كأنّها رسالة مزّقتها الريح ونثرتها.

وهكذا انهال الناس من الأبنية المجاورة كلّها. بعد دقيقة بدا الشارعُ قطرةَ ماء تحت مجهر: كانت النقاعيّات المحصورة في القطرة الشفّافة كالزجاج تسعى بذهول هنا وهناك، إلى فوق إلى أسفل.

-ها، ها، -قال صوتٌ ظافر، وإذا أمامي قذال، وإصبعٌ مصوّب إلى السماء. أذكرُ بجلاءٍ الظفر الوردي المشوب بالصفرة، وتحت الظفر هلالٌ أبيضُ، كأنّه طالعٌ من وراء الأفق. وكان هذا أشبه ببوصلة، إذ استدارت مئات الأعين إلى السماء متتبّعة هذا الإصبع.

هناك كانت الغيوم تندفع، تتزاحم، تُطبقُ الواحدة على الأخرى، تثب فوقها محاولةً النجاة بنفسها من مطاردةٍ غير مرئيّة، وكانت هناك مناطيدُ الحرّاس الموشّحة بالغيوم، ذاتُ الخراطيم السود المتدلّية، ثمّ كان هناك في الغرب شيءٌ أشبه ..

لوهلةٍ، لم يدرك أحدٌ الأمر، حتى أنا الذي كُشف له (لسوء حظّه) أكثر ممّا كُشف للآخرين، لم أدرك. كان هذا أشبه بسرب هائل من المناطيد السود: في مكانٍ ما على ارتفاع غير معقول نقط سريعةٌ لا تكادُ تبين. وازدادت النقط قربًا، وأخذت تتساقط من فوق قطرات مبحوحةٌ، حَلْقية، وأخيرًا، فوق الرؤوس طيور. الطيور تملأ السماءَ على شكلِ مثلّثاتٍ حادّةٍ، سودٍ، زاعقةٍ، هاويةٍ، كأنّ عاصفة تقذفها إلى تحت،

وكانت تحطّ على القباب، على الأسطح، على الأعمدة، على الشرفات.

- ها -ها! - قال القذال الظافر واستدار، فرأيت فيه ذلك المتجهّم، لكن، لم يكن قد بقي فيه الآن من ذلك الشخص السابق إلّا العنوان، إذ بدا وكأنّما خرج بكامله من تجهّمه الأبدي ذاك، فقد نمت على وجهه عند العينين وعند الشفتين أشعّةٌ على شكل حِزم شعر -كان يبتسم.

- هل تفهم؟ - صاح بي من خلال صفير الريح وخفقان الأجنحة والنعيق، - هل تفهم؟ السور، فجّروا السور! أفهمت؟

لاحت أمامي بشكل غامض بعيد، هيئاتٌ إنسانيّة رؤوسها مشرئبّة، تهرع مسرعة إلى الداخل، داخل بيوتها. وفي وسط الشارع سيل مندفع بسرعة، وإن كان يبدو بطيئًا رغم هذا (بسبب التزاحم) من الذين أجريت لهم العملية المتّجهين إلى هناك، إلى الغرب.

.. حزم الأشعّة الشعر عند الشفتين، عند العينين. أمسكت بيده:

-اسمعْ، أين هي، أين «م»؟ هناك، خارج السور أم .. يجب أن .. هل تسمع؟ فورًا، لا أستطيع ..

-هنا .. هتف بي بصوت نشوان، فرح -أسنانٌ قويةٌ، صفرٌ..

-إنّها هنا، في المدينة، تنشط. آه نحن ننشط!

من نحن؟ من أنا؟

كان حوله نحو خمسين من أمثاله -من الذين خرجوا عن تجهّمهم القاتم، من ذوي الأصوات العالية المرحة، والأسنان القوية. كانوا يزحفون وهم يزدردون العاصفة بأفواههم، ويلوّحون بصواعق كهربائيّة تبدو في ظاهرِها مسالمة، غير مخيفة مثلهم (من أين حصلوا

عليها؟) إلى هناك، إلى الغرب، في إثر الذين أجريت لهم العملية، لكن في حركةِ التفاف، عبر الشارع 48 الموازي.

كنت أتعثّر بالحبال المشدودة المجدولة من الريح، وأغذّ الركض إليها. لماذا؟ لا أدري. كنت أتعثّر وأكبو، شوارعُ خالية، مدينةٌ غريبة متوحّشة، لغطُ عصافير ظافرٌ لا يهدأ، يوم قيامةٍ حقيقي. رأيت من خلال زجاج الجدران في عدّة أبنية (وقد استقرّ هذا في ذاكرتي) أرقامًا من إناث وذكور، تتجامعُ من دون حياء، من دون أن يُسدلوا الستائر حتى، ومن دون أيّةِ قسائم، في وضح النهار.

ها هو ذا بيت، إنّه بيتها. بابٌ مفتوح على مصراعيه، ضائع. في الأسفل لا أحد وراء طاولة المراقبة، المصعد متوقّف في منتصف نفقه. ركضت إلى أعلى، أصعد الدرج الذي لا ينتهي، وأنا ألهث. الممرّ وبسرعة كأسنان الدولاب أرقام الأبواب: 320، 326، 330 .. «م -330»، ها هو!

ورأيتُ من خلال الباب الزجاجي: كلّ شيء في الغرفة مبعثر، مقلوب، مدعوك، الطاولة مقلوبة في عجلة على بطنها وقوائمها الأربع إلى فوق، ككلب نافق. السريرُ أزيح بعيدًا عن الجدار بشكلٍ ما سخيف، بالورب. على أرض الغرفة بتلاتُ القسائم الورديّة متناثرةً، مداسة.

انحنيت، لملمتُ واحدة وثانية وثالثة، عليها كلّها كان «د -503»، عليها كلّها كنتُ أنا، كانت قطرةٌ من ذاتي الذائبة، الغامضة. وهذا كلّ ما بقي ..

ولسببٍ ما شعرتُ بأنّه لا يجوز أن تكونَ مرميّةً هكذا على الأرض، أن تطأها الأقدام. تناولت مجموعةً أخرى منها، وضعتها على الطاولة، بسطتها بعناية، ألقيتُ عليها نظرةً وضحكتُ.

فيما مضى لم أكن أعرف هذا، لكنّي الآن أعرفه، وأنتم تعرفونه كذلك: الضحك ذو ألوان مختلفة. إنّه حينًا مجرّد صدى بعيد الانفجار في داخلك، وقد يكون صواريخ عيدٍ حمرًا، زرقًا، ذهبيّةً، وقد يكون مِزقًا متطايرة من جسم الإنسان.

لاحَ على القسائم اسمٌ غريبٌ تمامًا عنّي. لا أذكر أرقامه بل الحرف «غ» منه فقط. قذفت بالقسائم التي على الطاولة كلّها أرضًا ودستُها، وطئت ذاتي بكعب حذائي، هكذا، هكذا، وخرجت.

جلستُ في الممرّ على حافّة النافذة المقابلة للباب، وأنا لا أزال أنتظر حدوثَ شيء ما. انتظرت ببلادةٍ فترةً طويلةً. خفقت عن يساري خطوات واهنة. كان شيخًا عجوزًا، وجهه كفقاعة مثقوبة، فارغة، ترسّبت فيها غضون، ومن الثقب ينساح شيء ما شفّاف، وينزلق ببطءٍ إلى أسفل. أدركت بعد لأيٍ، وعلى نحو غامض أنّها دموع. ولم أفق إلى نفسي إلّا حين ابتعد العجوز. ناديتُه:

-اسمع، اسمع، ألا تعرف الرقم «م -330».

التفت العجوز، أشاح بيده في يأس، وتابع دبيبه ..

عند المغيب، عدت إلى بيتي. كانت السماءُ في الغرب تتقلّص كلّ ثانيةٍ من تشنّجاتِ زرقٍ شاحبة، وكان يُسمع آتيًا من هناك دويٌّ أصمّ مغلّف. وكانت الأسطحُ مزروعةً برؤوسٍ سودٍ كابية: الطيور.

استلقيتُ على السرير، فورًا، تكوّمتُ كالوحش، وخنقني النوم.

*****

المذكّرة الثامنة والثلاثون

الملخّص:

لا أدري كيف أقول. لعلّ الملخّص كلّه شيءٌ واحد: السيجارة المرمية

صحوت. كان الضوء ساطعًا يوجع العينين. زررتُ عينيّ. كانت سحابةُ دخانٍ أزرق تسبحُ فِي رأسي، وكلّ شيء ملفوفٌ بضباب، ومن خلال الضباب: (لكنّي لم أُنِر المصباح، فكيف.. ؟).

وثبتُ من فراشي. كانت «م» تجلس إلى الطاولةِ مسندةً ذقنَها بيدِها، وهي تنظرُ إليّ بابتسامةٍ ساخرة.

إنّي جالسٌ الآن أكتبُ على هذه الطاولة ذاتها. لقد صارت ورائي الآن هذه الدقائقُ العشر -الخمس عشرة الملفوفة في أضيق نابض، يبدو لي أنّ الباب لم ينغلق وراءها إلّا توًا، وأنّه لا يزال ممكنًا اللِحاق بها، إمساكها بيدها، لعلّها ستبتسم وتقول:..

كانت «م» تجلس إلى الطاولة. اندفعت إليها.

-أنتِ، أنتِ! لقد كنتُ هناك، رأيت غرفتك، ظننتُ أنّكِ ..

لكنّي فِي منتصف الطريق، اصطدمتُ برماح الرموش الحادّة الجامدة، فتوقّفت. تذكّرتُ: لقد رمتني بالنظرة ذاتها عندئذ، على متن «التكامل». ولهذا يجبُ حالًا، في ثانيةٍ أن أتمكّنَ من أن أقول لها هذا كي

تصدّقني، وإلّا لن أتمكّن أبدًا ..

-اسمعي يا «م»، يجب عليّ .. يجب عليّ أن أقول لكِ كلَّ شيء.. لا، الآن بعد أن أشربَ جرعةَ ماء واحدة ..

في فمي جفافٌ، كأنّه ملفوفٌ بنشافة، أخذت أسكب ماء، ولم أطق صبرًا، فوضعتُ الكأسَ على الطاولة، وأمسكت الدورق الزجاجي بكلتا يديّ بقوّة.

والآن، الآن رأيتُ: كانت السحابةُ الزرقاءُ تصعدُ من سيجارة. قرّبت «م» السيجارة من شفتيها، عبّت نفَسًا عميقًا، بلعَت الدخان بنهَم، تمامًا كما بلعتُ أنا الماء، وقالت:

-لا داعي، اصمت. أنت ترى على أيّة حال: لقد جئت إليك مع هذا. هناك، في الأسفل بانتظاري .. وأنت تريد أن تكونَ دقائقُنا الأخيرةُ هذه ..

ألقت السيجارةَ على الأرض، ومالت كلُّها فوق مسندِ الأريكة إلى الوراء (هناك في الجدار زرٌّ يصعبُ الوصول إليه). أذكرُ كيف اهتزّت الأريكة، وارتفعت قائمتاها عن الأرض. ثم انسدلت الستائر.

دنت مني، ضمّتني بقوّة. ركبتاها من خلال الثوب سمٌّ بطيءٌ، لطيفٌ، دافئٌ يلفّ كلَّ شيء ..

فجأة .. يحدث هذا: تكونُ غارقًا في نوم لذيذ، دافئ، فجأةً يتحرّكُ شيءٌ فتنتفض، وتنفتحُ عيناك على اتّساعهما من جديد .. هكذا كان: على أرض غرفتها قسائم ورديّة مُداسة، وعلى إحداها حرف «غ» وأرقام. وتشابكت فيّ هذه الأرقام في عقدة واحدة، لا أستطيع حتى الآن القول أيّ شعور كان شعوري حينذاك! لكنّي اعتصرتها حدّ أنّها صرختْ من

ألمها ..

ثمّ دقيقة أخرى كذلك، من هذه الدقائق العشر أو الخمس عشرة: على الوسادة الناصعة البياض رأسٌ ملقى إلى الخلف، ذو عينين نصف مغمضتين، وشريط حادّ شهيّ من الأسنان. كان هذا يذكّرني طَوال الوقت من دون انقطاع وبشكل سخيف، مؤلم، بشيء ما، لا يجوز الآن، لا داعي الآن لأن أذكره. ورحتُ أعتصرها برقّة متزايدة، بقسوة متزايدة، وراحت البقع الزرق من آثار أصابعي تزداد بروزًا ووضوحًا ..

قالت (من دون أن تفتحَ عينيها، وقد لاحظتُ ذلك): -يقال، كنتَ البارحة عند المحسن، هل هذا صحيح؟

-نعم، صحيح.

عند ذاك شُرِّعت عينيها، ورحتُ أرى بلذّةٍ وجهَها كيف أخذ يشحبُ بسرعة، ويمّحي ويختفي. ولم تبقَ إلّا عيناها وحدهما.

أخبرتها بكلّ شيء. شيءٌ واحد سكتُّ عنه لا أدري لماذا..! لا، هذا ليس صحيحًا، بل أدري: لقد سكتُّ عمّا قاله لي في آخر كلامه، عن أنّه بحاجة إليّ فقط بوصفي...

شيئًا فشيئًا، كما الصورة الشمسية في المظهِّر، برز وجهُها: الخدّان، شريط الأسنان الأبيض، الشفتان. نهضتْ، اقتربت من باب الخزانة الزجاجي.

من جديدٍ، أحسست بجفافٍ في فمي. سكبتُ ماء لكنّي كرهت شربه، فوضعت الكأس على الطاولة، وسألت:

-ألهذا أتيتِ.. لأنّك كنت بحاجة إلى أن تعرفي؟

كان المثلّث الحادّ الساخر للحاجبين المرفوعين إلى أعلى، إلى الصدغين يتطلّع إليّ من المرآة. استدارت تقولُ شيئًا، لكنّها لم تنبسْ ببنت شفَة.

لا ضرورةَ لذلك. أعرف.

هل عليّ أن أودّعها؟ حرّكت رجليّ، رجليّ الغريبتين عني، صدمت الطاولة فسقطت على بطنها ميّتةً كما حدث هناك في غرفتها، كانت شفتاها باردتين: في وقتٍ ما، كانت الأرض هنا في غرفتي قرب هذا السرير بمثل هذه البرودة.

افترشت الأرضَ بعد أن خرجتْ، وانحنيت فوق سيجارتها المرمية.

لا أستطيعُ المضيّ في الكتابة، لا أريد!

*****

المذكّرة التاسعة والثلاثون

الملخّص:

النهاية.

كان هذا كلّه، كآخرِ ذرّة ملح أُلقيت في محلولٍ مشبع: زحفت البلّوراتُ بسرعةٍ واخزة كالإبر، تصلّبت وجمدت. وبات واضحًا لي: حُسم كلُّ شيء، وغدًا سأفعل هذا. كان هذا أشبه بقتل الإنسان نفسَه، لكن لعلّي عندئذٍ سأُبعث، لأنّ المقتول وحده هو الذي يمكنه ذلك.

في الغرب كانت السماء ترتعد في كلَّ ثانية معَ تشنّج أزرق، كان رأسي يلتهب ويدقّ. هكذا أمضيت الليل كلّه، ولم أغفُ إلا عند السابعة صباحًا حين امتُصّت العتمة، أخذت تخضرّ، فصارت تلوحُ الأسقفُ المزروعةُ بالعصافير ..

حين صحوتُ، كانت الساعة تُشيرُ إلى العاشرة (يبدو أنّ الجرس لم يُقرع اليوم). كأسُ الماءِ لا تزالُ على الطاولةِ منذ أمس. شربتُ الماء بنهَم، وانطلقت. كان يجبُ أن أنهيَ هذا كلَّه بسرعةٍ، في أسرعِ ما يمكن.

السماءُ خاويةٌ، زرقاءُ، تتآكلُها العاصفة. زوايا ظلال شائكةٌ، كلّ شيء مسكوبٌ من هواء خريفي أزرق، كلّ شيء رقيق بحيث تخاف أن تلمسه كي لا يتقصّف ويتطاير غبارًا زجاجيًا. وشيءٌ مماثل لهذا في داخلي: لا ضرورةَ للتفكير، لا داعي للتفكير، لا داعي له وإلّا ..

ولم أكن أفكّر، بل ربّما لم أرَ كما يجب، كنت أسجّل وحسب. ها

هي ذي أغصانٌ تظهر فجأةً في عرض الشارع، الأوراق عليها خضرٌ، كهرمانيّة، قرمزيّة. وها هي ذي في الأعلى، عصافير ومناطيد تروحُ وتجيءُ متقاطعةً، وها هي ذي رؤوس، أفواه مفغورة، أيادٍ ملوّحة بالأغصان. ولابدّ من أنّ هذا كلّه يرسل زعيقًا، نعيقًا، طنينًا ..

يلي ذلك شوارع خالية، كأنّما كنسها الطاعون. أذكر أنّي تعثّرت بشيء ما طريٍّ بشكل لا يُطاق، مرن، لكنّه جامد مع هذا، من دون حراك. انحنيتُ: كانت جثّة. كانت الجثّة ترقد على ظهرها مباعدة بين رجليها المثنيّتين كامرأة. وكان الوجه ..

عرفتُ الشفتين الزنجيّتين الغليظتين، وكأنّهما ما زالتا حتى الآن ترشّان ضحكتَهما كالرذاذ. كان يضحك في وجهي مباشرة زارًّا عينيه بقوّة. تريّثت في أمري لحظة، ثمّ خطوتُ فوقه، وتابعت عدْوي، إذ لم يوسعْني إلّا أن أفعل هذا، فقد كان عليّ الانتهاء من كلّ شيءٍ في أسرع ما يمكن، وإلّا، كنت أشعر بهذا، سأنكسرُ، سأتقوّسُ كخطٍّ حديديٍ حُمّل فوق طاقته ..

لحسن الحظّ، كان هذا على بعد نحو عشرين خطوة: يافطةٌ من أحرف ذهبيّة: مكتب الحرّاس. توقّفتُ أمام العتبة، عببت الهواءَ في صدري قدر ما وسعني، ودخلت.

في الداخل، كانت الأرقام في الممرّ يقف الواحدُ منها وراء الآخر في سلسلةٍ لا تنتهي، وهي تحملُ أوراقًا ودفاتر سميكة. كانت تتحرّك خطوة، خطوتين، ثمّ تتوقف.

أخذت أروح وأجيء حِذاء السلسلة، ورأسي يتشظّى. كنت أمسك بهم من أكمامهم وأتوسّل إليهم كما يتوسّلُ مريضٌ أن يُعطى من فوره ما يُنهي به في ألم خاطف حادٍ جدًّا كلَّ شيء.

امرأةٌ مشدودةُ الخصر فوق اللباس بزنّار، ووركان كنصفي كرة بارزان بجلاء. وكانت المرأة تديرهما طَوال الوقت ذات اليمين وذات الشِمال، كأنّما مكانُ عينيها هناك تمامًا. انفجرت المرأة بالضحك، وهي تشير إليّ:

-بطنه يؤلمه! خذوه إلى المرحاض، هناك، الباب الثاني إلى اليمين ..

فجأة، أمسكني أحدُهم من مرفقي. التفتُّ: الأذنان الشفّافتان، المجنّحتان. لكنّهما لم تكونا ورديّتين كعادتهما، بل رصاصيّتين: كانت جوزة عنقه تعلو وتهبط، إنْ هي إلا ثانيةٌ ويتمزّقُ غشاؤها الرقيق.

-علام وجودُك هنا؟ .. سألني وهو يخترقني بعينيه بقوّة.

وتشبّثت به: إلى مكتبكم حالًا .. يجب أن أعترف بكلّ شيء، ومن الفور! إنّه لأمر جيّد أن أقوله لك تحديدًا .. قد يكون لأمرًا فظيعًا أن أقوله لك أنت، لكنّ هذا أمر جيّد، جيّد ..

هو الآخرُ كان يعرفها، ولهذا كان الأمر آلم على نفسي. لكنّه قد يقشعرّ حين سيسمع ما سأقوله له، وعندها سنقوم نحن الاثنين بعمليّة القتل، لن أكون وحدي في هذه الثانية الأخيرة من حياتي ..

وصفق الباب. أذكر: كانت هناك ورقةٌ عالقةٌ تحت الباب، وحين أخذ الباب ينغلق أخذت تسحج على أرض الغرفة مخشخشة، ثم خيّم علينا صمتٌ خاصٌ، خانق كأنّه مفرغ من الهواء. لو أنّه قال كلمة، كلمة واحدة، أيّة كلمة لا فرق، لتكن أتفه كلمة، لأزحتُ كلّ شيء دفعةً واحدة! لكنّه كان يلزم الصمت.

وقلت له (من دون أن أرفع نظري إليه) وأعصابي كلّها مشدودة، فقد طنّت أذني:

-يبدو لي أنّي كنت أكرهها دائمًا منذ البداية. كنت أغالب نفسي.. لكن لا، لا، لا تصدّقني: كان بوسعي أن أنجوَ بنفسي، لكنّي لم أردْ ذلك. كنت أريد أن أهلك، وقد كان هذا أغلى وأعزّ ما لديّ... أقصد لا أن أهلك، بل أن تنجو هي .. والآن، حتى الآن وقد عرفتُ كلّ شيء .. هل تعرف، هل تعرف أنّ المحسن استدعاني؟

-نعم، أعرف.

-لكن ما قاله لي .. افهمني: هذا كما لو أنّ أحدهم يسحب الأرض من تحت قدميك، فإذا أنت وكلّ ما تراه هنا على الطاولة من ورق وحبر. ينداح الحبر فوقه فكلّ شيء يتحوّل إلى نقطة حبر.

-تابع، تابع! واستعجل، هناك آخرون ينتظرون.

وعندها قلتُ له في ارتباك واضطراب، وأنا أختنق، كلّ ما كان، كلّ ما دُوِّن هنا. عن أناي الحقيقية وأناي الشعثاء، وما قالته آنذاك عن يدي، أجل، من هنا تمامًا بدأ كلّ شيء، وكيف أنّي لم أردّ آنذاك أداء واجبي، وكيف كنت أخدع نفسي، وكيف حصلتْ على الثبوتيّات المزيّفة، وكيف كنت أصدأ يومًا إثر آخر، وعن الممرّات في الأسفل، وكيف كان ما كان هناك خارج السور ..

وهذا كلّه في كلمات متقطّعة، مبتورة، مفكّكة. كنت أختنق، وكانت الكلمات لا تسعفُني. كانت الشفتان، ذاتا الانحناءة المزدوجة تقدّمان لي بابتسامة ساخرة الكلمات اللازمة، وكنت أهزّ رأسي بامتنانٍ: نعم، نعم .. لكن ها هو ذا (ما الذي حصل يا ترى؟) بات يتكلّم نيابة عنّي ولم أعد إلّا مجرّد مستمع: «نعم، ماذا بعد .. هكذا، هذا ما حصل تمامًا، نعم، نعم!».

شعرت كيف أخذ البرد، كأنما بفعل الإيثر، يدبّ هنا حول الياقة، وسألت بعد جهد:

-لكن كيف.. فأنت لم يكن باستطاعتك أن تعرف هذا من أيّ مصدر ..

كانت ابتسامته الساخرة تمعن في الاعوجاج بصمت .. ثمّ قال:

-ألا ترى أنك أردتَ أن تخفي شيئًا عنّي؟ ها أنت ذكرت لي الذين لحظتهم هناك جميعًا، خارج السور، لكنّك نسيت واحدًا. تقول لا؟ أولا تذكّر أنّك رأيتني هناك طرفة عين، لثانية؟ نعم، نعم رأيتني أنا!

فترةُ توقّف. وفجأةً اتّضح لي في لمح البرق، حتى قمّة الرأس، بشكلٍ وقح أنّه هو كذلك من رجالهم.. وأنا، بذاتي كلّها وعذاباتي كلّها، وبكلّ ما جئت به بجهد بعد أن حفّزت قواي كلّها على أنّه مأثرة، تبيّنَ هذا كلّه أنّه مجرّد أمر مضحك وحسب، كتلك القصّة عن إبراهيم وإسحاق.

إبراهيم يلوّح بالسكّين وهو يتصبّب عرقًا، يريد أن يهوي بها على ابنه، فإذا بصوتٍ يناديه من فوق: «حسبُك! كنتُ أمتحنُك ..».

من دون أن أرفع عينيّ عن الابتسامة الساخرة الممعنة في اعوجاجها، استندت بيديّ على حافّة الطاولة، وشيئًا فشيئًا انفككتُ مع الأريكة عن الأرض. ثم ما لبثتُ أن لملمتُ ذاتي المشتّتة، وتماسكت، واندفعت لا ألوي على شيءٍ عبر الصرخات والدرجات والأفواه.

ولا أدري كيف وجدتني في الأسفل، في أحد المراحيض العامّة العائدة لمحطّة النفق. هناك في الأعلى، كان كلّ شيء يهلك، كانت أعظم وأعقل حضارة في التاريخ كلّه تنهار، أمّا هنا، ويا للسخرية، فكان كلّ شيء رائعًا كما كان دائمًا. ويا لهول أن ترى أنّ هذا كلّه مقضيٌّ عليه

بالفناء، أنّ هذا كلّه سيغرق في هُوّة النسيان، ولن تكون عن هذا كلّه إلا «أساطير».

صعدت أنينًا عاليًا، وفي اللحظة عينِها شعرتُ بشخصٍ ما يربّتُ بودٍّ على كتفي ..

كان هذا جاري الذي يشغل المقعد عن يساري .. الجبين قطع مكافئ أصلع هائل، وعلى الجبينِ سطورٌ وغضونٌ صفرٌ غير مقروءة، وهذه السطور عنّي.

-إنّي أفهمك، أفهمك تمامًا. قال لي. رغم هذا اهدأ، لا داعي. هذا كلّه سيعود، سيعود حتمًا. المهمّ وحده أن تعرف باكتشافي. أنت أوّل من أقول له هذا: لقد حسبتُ، ليس هناك لا نهاية!

ألقيت عليه نظرةً وحشية.

-نعم، نعم. أقولُ لك إنّه ليس هناك لا نهاية. إذا كان العالمُ لا نهائيًا، فإنّ الكثافة المتوسّطة للمادّة فيه يجب أن تعادلَ صفرًا. وبما أنّها ليست صفرًا، وهذا شيء نعرفه، فإنّ العالم تاليًا متناهٍ، ذو شكل دائريّ، ومربّع نصف القطر أي Y2 يساوي الكثافة المتوسّطة مضروبة بـ .. ما يلزمُني وحسب، حساب المعامل العددي، وعندئذ .. أنت ترى معي: كلّ شيء متناه، كلّ شيء بسيط، كلّ شيء قابل للحساب، وعندئذ سننتصر فلسفيًا، أتفهمني؟ بينما أنت يا محترم تُعيقني عن إنهاء حساباتي، أنت تصرخ ..

لا أدري ما الذي أذهلني أكثر: أهو اكتشافه، أم ثبات جنونه في هذه الساعة الرؤيوية؟ فقد كان في يده (ولم ألاحظ هذا إلّا الآن) مفكّرة، ولوحة لوغاريتمات. وأدركتُ من الفور أنّ من واجبي، حتى لو هلك

كلّ شيء، من واجبي (أمامكم، أنتم الذين أجهلكم وأحبّكم) أن أترك لكم مذكّراتي ناجزة.

طلبت منه ورقة، وسجّلت هنا أسطري الأخيرة هذه ..

كنت أريد أن أضع نقطةً، كما كان الأقدمون يضعون صليبًا فوق الحُفر التي كانوا يدفنون فيها موتاهم، لكنّ القلم اهتزّ فجأةً وسقط من بين أناملي ...

-اسمع، قلت مقلقًا بذلك على جاري راحته، اسمع، أقول لك. يجب عليك، يجب عليك أن تجيبني: هناك حيث ينتهي كونُك المتناهي، المحدود، ماذا بعده؟

لم يتمكّن من الإجابة، إذْ سُمعَ من فوق وقعُ خطواتٍ على الدرجات ..

*****

المذكّرة الأربعون

الملخّص:

وقائع. الجرس. أنا واثق.

نهارٌ، نهارٌ صاف، الصفاءُ في كلّ مكان. مقياسُ الضغط يشيرُ إلى 760.

أحقًّا أنّني أنا «د-503» كتبتُ هذه السطور المئتين والعشرين؟ أحقًّا أنّني شعرتُ في وقتٍ من الأوقات، أو تخيّلتُ أنّني أشعر بهذا؟

الخطّ خطّي. وما بعد ذلك الخطُّ نفسُه، لكنْ لحسن الحظّ، الحظّ وكفى، ليس هناك أيُّ هذيان، ولا تشابيه سمجة سخيفة ولا مشاعر من أيّ نوع، بل وقائع وكفى. لأنّي عوفيت، عوفيت بشكل تامّ، مطلق. إنّي أبتسمُ، ولا أستطيع ألّا أبتسم: فقد استؤصلت لي شوكةٌ كانت في رأسي، فصار رأسي خفيفًا، فارغًا، والقول الصحيح ليس فارغًا، بل ليس فيه أيُّ لغو جانبي يعيقُه عن الابتسام (فالابتسام هو الحالة السليمة للإنسان السليم).

والوقائع هي التالية. في مساء ذلك اليوم، أخذ جاري مكتشفُ نهائيّةِ الكون وأنا ومن كان معنا جميعًا إلى أقرب قاعة (أعرف رقمَ القاعة لسبب ما: 112)، هناك شُدّ وَثاقُنا إلى طاولات، وخضعنا للعملية العظمى.

في اليوم التالي مثلْتُ أنا «د-503» بين يدي المحسن، أفضيت إليه بكلّ ما كنت أعرفه عن أعداء السعادة. لماذا أمكن أن يبدو لي هذا في

السابق أمرًا صعبًا؟ أمرٌ غير مفهوم. التفسيرُ الوحيدُ هو مرضي السابق (النفسُ).

مساء ذلك اليوم تمامًا، جلست (أوّل مرّة) إلى طاولةٍ واحدةٍ معه، مع المحسن في غرفة الغاز المشهورة. أُحضرتْ تلك المرأة. كان عليها أن تدلي بشهادتها في حضوري. لكنّ هذه المرأة ظلّت صامتة في عناد، والابتسامة لا تفارقها. لاحظتُ أنّ هذه المرأة ذات أسنان حادّة ناصعة البياض، وأنّ هذا جميل.

ثم أدخلتْ تحت الجرس. صار وجهُها ذا بياضٍ ناصع، وبما أنّ عينيها كانتا سوداوين وواسعتين، فقد كان هذا شيئًا في غاية الجمال. وحين شرعوا يفرّغون الهواء من الجرس، ردّت رأسَها إلى الوراء، وأغمضت عينيها نصف إغماضة، وأطبقت شفتيها. ذكّرني هذا بشيءٍ ما. كانت، وقد تشبّثت يداها بمسندي الأريكة، تنظر إليّ، وظلّت تنظر إلى أن أُطبق جفناها تمامًا. عندئذٍ سحبوها من تحت الجرس، ثمّ بواسطة أسلاكٍ كهربائيّة أعادوها إلى وعيِها، وأجلَسوها من جديدٍ تحت الجرس. تكرّر هذا ثلاث مرّات، ومع هذا، لم تنطقْ بكلمة واحدة. آخرون ممّن اقتيدوا مع هذه المرأة كانوا أشرف: كثيرون منهم تكلّموا من المرّة الأولى. غدًا سيصعدون جميعًا درجاتِ آلةِ المحسن.

الإرجاءُ والتأخيرُ غيرُ واردٍ، فلا يزالُ هناك في الأحياء الغربية فوضى وهديرٌ وزعيقٌ وجثثٌ ووحوشٌ، مع الأسف، عددٌ غيرُ قليلٍ من الأرقام التي خانت العقل.

لكنْ، تمكّنوا في هذا الوقت من بناءِ سورٍ مؤقّت من أمواجِ ذاتِ توتّرٍ عالٍ في الشارع العرضاني 40. آمُل أن ننتصر. بل أكثر من هذا: أنا واثقٌ ومؤمنٌ بأنّنا سننتصر. لأنّ العقلَ يجبُ أن ينتصر.

كتب "زمياتين" روايته "نحن" حوالي عام 1920م، لكنّ النصّ الروسي للرواية لم يظهر كاملًا إلّا في عام 1952م في "نيويورك". وقد عرف العالم الرواية عن الترجمة الإنجليزية التي صدرت في عام 1924م، ثمّ الفرنسية في عام 1929م ولم تصدر الرواية كاملةً باللغة الروسية إلّا في عام 1988م .

أحدثت الرواية تأثيرًا واضحًا في الرواية الأوروبّية المعروفة (بالرواية المضادّة للأوتوبيا) ومن أعلامها "أو. هاكسلي" و"جورج أورويل"

قيل في الرواية كلامٌ كثيرٌ من قِبل النقّاد السوفييت والأوروبيين منذ عشرينات هذا القرن. وقد يكون "زمياتين" في مقابلته مع الناقد الفرنسي المشهور فريديريك ليفيفر" لمجلّة "لونوفيل ليتيرير" في عام 1932م الأقرب إلى" الصواب، في تعريفه موضوع روايته، حين قال: "لم ير النقّاد قصيرو النظر في هذه الرواية أكثر من أهجية سياسية. وهذا غير صحيح طبعًا. فهذه الرواية نذيرٌ بالخطر الذي يتهدّد الإنسان والإنسانية بسبب السلطة المتزايدة المتضخمة للآلة وللدولة، أيًا كانت هذه الدولة"

ISBN 978-9938-880-40-3
9 789938 880403 >